

فن المرافعة أمام المحاكم الجنائية

دكتور

حامد الشريف

الخامس بالنقض والإدارية العليا
والتبعية محكمة استئناف

كلية الحقوق جامعة الفيوم - مراجع قانونية

دار الفكر الجامعي

أمام كلية الحقوق، الاسكندرية

ت ٢٨٢١٣٣

مُحَمَّدُ الشَّافِعِيُّ
مُؤَسِّسُ مَحْكَمَةِ بَابِهَا
مُجْتَمِعِ الْقَانُونِ
مُحَامٍ

كلية الحقوق جامعة الفيوم - مراجع قانونية

فن المرافعة

وصناعة المحامي ووكيل النيابة المترافع
أمام المحاكم الجنائية

الطبعة الثانية
مزودة ومنقحة

١٩٩٤

دار الفكر الجامعي
٣٠ شارع سويفر - الأزاريطة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« رب اشرح لي صدري ويسر لي امرى واحل
عقدة من لساني يفقهوا قولي .. »

(صدق الله العظيم)

قرآن كريم

الافتتاح

الى محامي مصر :

مصائب العدالة وشموعها

رفقاء اشرف رسالة وانبل مهنة

مهنة الجبارة ..

امدى هذا الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خير بداية دائما هي البدء بحمد الله جلّت قدرته على سابغ فضله
ونعمته وفائض احسانه ورعايته عليه عز وجل اعتمادا وبه سبحانه
وتعالى اعترازنا • وصلاة وسلاما على أشرف المرسلين سيدنا محمد
النبي الأُمى المبعوث رحمة للعالمين •

وبعد :

لقد وضع هذا الكتاب للإجابة على سؤال بلغ مبالغاً كبيراً من الأهمية
وهو : كيف تصبح محامياً مترافعا ؟

وقد يبدو الأمر يسيراً في البداية خاصة إذا لاحظنا أن جانباً كبيراً
من الأساتذة المحامين قد جبلوا على المرافعة بالفطرة وبالموهبة الطبيعية
التي حبأها الله لهم • ولكن ينبغي للمحامى من الطراز المترافع أن يقوم
بتدريب نفسه بين الحين والحين وانتقاء بعض العبارات الجميلة والتقاط
ما يبدو له مفيداً في مرافعاته ويعتمد في ذلك على مجهوداته الذاتية ،
وفضلاً عن ذلك فإنه يوجد قطاع عريض من المحامين الشبان في حاجة
ماسة الى تعريفهم بالمرافعة أمام المحاكم وأساليب تلك المرافعة وصورها
وأشكالها وكيفية المرافعة والالقاء والارتجال وتكوين المرافعة كما أنه
تبدو الحاجة - بالنسبة اليهم - ضرورية في بث الثقة والشجاعة في
نفسهم عن طريق محاولاتهم حفظ بعض أساليب المرافعة من مقتدمات

أو خواتيم والخطة العامة الهيكلية لموضوع المرافعة وهو موضوع القضية التي يتم المرافعة فيها •

ولذلك أثير التساؤل عما اذا كانت المرافعة عام أم فن ؟

فالعلم يتطلب الاعتماد على قواعد أصولية وأسس منهجية حتى يصل الطالب في النهاية الى مراده اذا قام بدراستها والتدريب عليها بانتظام ومعرفتها تماما •

أما الفن فهو يعتمد في جانبه الأكبر على المواهب الطبيعية التي يمنحها الله للأفراد بحيث يختلفون فيما بينهم ومنها موهبة الخطابة أو المرافعة أمام المحاكم •

والحقيقة أن المرافعة أمام المحاكم خليط بين هذا وذاك • فهي فن في المقام الأول وتعتمد على الموهبة الطبيعية ثم هي لا تخلوا أبدا من أن تكون علما يقوم الباحث بتعليم نفسه بنفسه أسلوب المرافعة وحفظ بعض الأقوال للاستشهاد بها في المحكمة عند بداية انطلاقه • • كل ذلك حتى يقوم المحامي بواجبه كاملا في المحكمة ويستطيع القيام بدوره الذي يضطلع به • ومن المفيد أن نؤكد على أنه يجب تدريس مادة الخطابة القضائية — المرافعة — في كليات الحقوق حيث أنها المكان الوحيد الآن في مصر الذي يجب أن يقوم بتزويد طالب القانون بأسس وأصول المرافعة أمام المحاكم وحتى يتسنى للطالب بعو تخرجه سواء عمل بالنيابة أو المحاماة أن يقوم بواجبه كاملا لاعمال مبدأ شفوية المرافعة موضع التطبيق •

وحتى يحين هذا الزمن فان الطريقة الوحيدة هي تنمية عادة القراءة التي تكسب الانسان الاحساس بجمال الأسلوب وانتقاء الألفاظ التي تضع الانسان على درجة عالية في هذا المضمار لأن السر في ذلك كما كتب

لنكون أشهر الخطباء الى شاب يتوق ايصبح محاميا ناجحا يكمن في الحصول على الكتب وقراءتها ودراستها بانتباه لأن العمل هو الشيء الأساسى للنجاح^(١) . فاذا اتبع الباحث هذا المنهج فضلا عما يمنحه الله سبحانه وتعالى للبعض من المواهب الطبيعية الفذة القادرة على الانفجار فسوف ينشأ جيل من المحامين من الطراز المترافع من أصحاب مهنة الجبارة الأهر الذى تزدان به كنوز تلك المهنة .

واذا كانت كل الحقائق تتادى بجلال دور المحامى وواجب تمكينه من القيام بمهمته على أوسع نطاق هذا الامام الذى يتوقف عليه هو نفسه وعلى مدى المامه المطلوب بكافة العلوم الانسانية كلها . فان الحقيقة الكبرى هي أن انشاء المحاكم وتنوع القضاء يرتد الى أصل واحد ألا وهو حماية وصيانة ورعاية حقوق الدفاع أمام تلك المحاكم . هذا الحق الذى كفله الشارع بقوة القانون والذى له ضماناته وامتيازاته وحصاناته وأوضح صور ذلك الحق المرافعة الشفوية وخاصة فى المسائل الجنائية .

ويرتبط ذلك بمبدأ شفوية المرافعة أمام المحاكم .

ولقد كان أملا أن يصدر فى موضوع المرافعة كتاب يجمع بين دفتيه أحكام المرافعة الجنائية وأصولها وأساليبها ، اذك راودتني هذه الفكرة منذ أعوام سابقة وبالتالي فان جذور فكرة اصدار هذا الكتاب تعود الى فترة مضت ابان عملى بالنيابة العامة وكان أشد ما يسعدنى أن يقوم الأستاذ المستشار المحامى العام بتكليفى بالمرافعة أمام محاكم الجنايات وأنا مازلت معاونا للنيابة ولشدة دهشتى الآن أننى كتبت أقبل ذلك راضيا تماما بل ومستبشرا .

(١) دايلى كارينغى — فن الخطابة — كيف تكسب الثقة وتؤثر بالناس ص ١٦٤ منشورات دار الكتب الهلال — بيروت — ط ٢ سنة ١٩٨٦ .

ولم يكن يخالجنى الشك ولا الخوف على الاطلاق • بل كنت بحمد الله تعالى ، شجاعا في المرافعة ولم أمنح في أحيان كثيرة الفرصة الكافية لدراسة القضية الدراصة المستفيضة المتأنية لأن الجميع يعلم أن وكيل النيابة المترافع غالبا ما لا يكون هو وكيل النيابة المحقق لطول فترة الاجراءات وخاصة أمام محاكم الجنايات •

ومضت هذه الفترة الجميلة من حياتى وأنا مازلت أحلم بانشاء كتاب عن المرافعة أمام المحاكم قد يفيد منه الزملاء المحامون أو أعضاء النيابة العامة ثم تبلورت تلك الفكرة فى ذهنى تماما واستجمعت أركانها عندما عملت بالمحاماة ووجدت أن عددا كبيرا من المحامين فى حاجة ماسة الى موضوع هذا الكتاب خاصة بعدما شاهدت مرافعات كبار محامى مصر أمام المحاكم • فأليت على نفسى ووجدت أن من واجبى أن يصدر هذا المؤلف لكى يسير محامو العصر على الأسلوب الأمثل فى المرافعة احتذاء بالسلف من جبابرة المحامين فى العصور السابقة •

ومما لا يغيب عن البال أن أهمية هذا الكتاب لا تتصرف فقط الى حاجة الزملاء الجدد له لذاؤا المكتبة القانونية من المادة العلمية له • بل انه أيضا يفيد الزملاء المتقدمين فى القانون بدرجة كبيرة •

ولذلك استلزم هذا الكتاب أن نعرض لأحكام وقواعد المرافعة أمام المحاكم فى الفصول الأولى من الكتاب •

ثم عرضنا لطائفة من مرافعات سلف المحامين المشهورين فى النهاية •

وعلى هذا النحو فقد قمنا بتقسيم الكتاب الى الفصول الآتية :

الفصل الأول : مفهوم المرافعة

الفصل الثانى : عناصر المرافعة

الفصل الثالث : أحكام المرافعة

الفصل الرابع : المرافعات الذهبية

على أن يسبق ذلك كله فصل تمهيدى عن المحاماة وصلتها بالمرافعة.

وبعد :

فهذه مجرد محاولة متواضعة للغوص فى أعماق موضوع على جانب كبير من الأهمية فضلا عن خطورته .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى معالجة فن المرافعة أمام المحاكم الجنائية . فان كنت أصبت فمن الله وان أخفقت فمن نفسى .

« والله ولى التوفيق »

حامد الشريف

فصل تمهيدى

المحاماة مهنة الجبابة

ان المحاماة أشرف مهنة وأنبل رسالة •

فالمحامى — عند بعض الناس — هو حامى الضعفاء والأرامل واليتامى يدافع متبرعا أو مأجورا عن القضايا العادلة ليخلص المظلوم واليائس ويرد الحقوق المغتصبة لأصحابها ويسمع صوتهم لمثلى العدالة ويقوى حجتهم ويدفع عنهم كيد الكائدين ويكشف ستر المتآمرين • ولذلك قال عنه المنصفون أنه حامل الشعلة التى تبدد غياهب الشك وتثير الطريق الى العدالة والحق ومن ثم فهو الشمعة التى تحترق لكى تضاء مصابيح العدالة •

وهو يعتبر — عند البعض الآخر — مجرد ثرثار أجير ، الكلام صناعته والأكاذيب بضاعته سيان عنده أن يدافع عن الحق أو الباطل مادمت ستدفع له الأجر ليستعين بعلمه لكى ينصر باطلاك على حق خصمك ويسعى بعلمه أيضا ليفلت المجرم من العقاب العادل وهو العليم بجرمه •

والحقيقة وسط بين الرأيين • فالرسالة شريفة والمهنة نبيلة وهى ضرورية لا يضيرها أن يكون بين أفرادها — مثلما يكون بين غالبية الفئات — من يسيئون اليها ولا يحقرون الا أنفسهم • ولأن المحاماة بحق أنبل مهنة وأشرف رسالة فهى قديمة قدم القضاء وضرورية كالعادلة

ونبيلة كالفضيلة ولذلك فهي تجمع بين النبل والسمو • ولذلك فإن الناس تمجّب بالمحامى المغمم بالطاقة — مؤلّد الطاقة البشرى — صاحب الابتسامة الساحرة •

ولا شك أن واجب المحامى يقتضيه أن يسمو بنفسه عن كل اغراء قد يدفعه الى محاولة الحصول على كسب أكبر عن طريق اطالة أمد النزاع كما أن هذا الواجب يملئ عليه أيضا أن يبذل كل الجهود الممكنة لاقنناع موكله أن يكون معقولا عادلا وهو فوق كل ذلك مطالب بأن يكون على قدر المستطاع قاضيا وان لم يجلس على منصة القضاء وبالتالي لا يحق له أن يحمل لقب الشرف المتعارف عليه وهو لقب « أستاذ » اذا اقتضت معلوماته على اللوائح فقط لأن المحاماة هي مهنة كل المهن ولذا يجب أن يتروّد المحامى بكافة العلوم الانسانية والاجتماعية عند ممارسة نشاطه^(٢) •

والمحاماة تفتّح أبوابها على مصراعيها لرجال القضاء الجالس والواقف يجيئون اليها ومعهم بضاعة غالية من تجارب حصلوا عليها وقد نبغ منهم الكثيرون ووقفوا على قدم المساواة مع كبار المحامين •

والمحامون هم عماد القضاء وسنده لأن عملهم هو غذاء القضاء ولئن كان على القضاء مشقة في البحث للمقارنة والمفاضلة والترحيل فان على المحامين مشقة كبرى في البحث للابداع والتأسيس ، بل ان عناء المحامين أشد في أحوال كثيرة من عناء القاضى لأن المبدع خير من المرجح •

ويجب أن يمهّد المحامى لنفسه لهذه الصناعة وهو مقبل عليها بالرضا المطلق والثقة حتى يفرغ بالمحاماة اغراما يطعمه حلاوتها وحلاوة الاخلاص

(٢) انظر — أحمد رشدى — المحاماة كما أعرفها — المرجع السابق —

فيها أما التراخي فانه يمهّد العذر ليصبح محامى ضرورة ثم الفرار الى احدى الوظائف الحكومية •

وممها تكن حال القاضى من علم وخبرة وحال المتقاضين من لهفة على الفوز وتطلع الى الغلب فالمحامى وحده هو الذى يسوس الدعوى ويقولى توضيحها فهو «سيد الدعوى بلا منازع» وهو وحده فى الأعم الأغلب الذى يرجع اليه المنقلب من نجاح أو خيبة وببيده لا بيد سواه تحيا الدعوى أو تموت •

فلكل دعوى روح خاصة تنشر الحياة على أعضائها • • وحياة الدفاع فى أسلوبه وفى طريقته وفى حسن اختيار الأدلة وحسن ترتيبها وفى تصوير الدعوى والرد على أوجه دفاع الخصم •

والمحامون هم روح العدالة ، فاذا كانوا لا يكتبون الأحكام فهم يعدون لها البحوث والمرافعات فيقدمون للقضاء المادة الأولية لصنائه وكثيرا ما يقتصر عمل القاضى على الأخذ باحدى النظريتين التى تقدم بها الدفاع أو أن يوفق بينهما •

والغذاء الفكرى للمحامين هو التشريع والفقه والنظريات القانونية الحديثة ولذلك فالمحامى عندما يؤدى عمله يعتبر شمعة تحترق لكى تضىء مصابيح العدالة وتضىء مسالك تلك المهنة الشريفة ، فالمحامون هم رسل العدالة الذين يدافعون فى كل العصور عن الحق فى قاعات المحاكم التى هى حرم العدالة الحامى للحريات •

وقد يتبرم القاضى من اطالة دفاع المحامى ويستحثه على الإيجاز والاختصار ونحن لا نبيأس أن نجد لمثل هذا القاضى عذرا لأن فرصة العمل بالمحاماة لم تنتهأ له يوما من الأيام وذلك لأنه لم يشاهد كيف

يجلس المحامى للقاء قصاده وكيف يستمع الى شكواهم وكيف يعرضون عليه ما بينهم وبين خصومهم من المنازعات وكيف يظفر كارها أو طائعا أن يسمع لأقاصيصهم •

والمعرفة بكل نواحيها غذاء لازم للمحاماة كما ينبغي أن تكون • ولقد قال بلاتون ان مهنة القانون سيده غيور تأبى الا أن تشغل وحدها فراش الزوجية دون شريك لها •

والآخرون ذهبوا الى أنها ليست زوجة غيور بل هى باحتياج دائم انى رفيقات ورفقاء آخرين فالقانون هو أول العلوم الاجتماعية ويحتاج المحامى الى دراسة علوم الفلسفة والفقه والتاريخ والعلوم الطبيعية وغيرها وعلى المحامى أن يرفع بين الحين والحين رأسه عن مكتبه لينظر من النافذة الى العالم الواسع اذ أن الانكباب على مادة بعينها خفيق بأن يورث المحامى ضيقا فى الأفق وسطحية فى النظر ولا يخرج من ذلك الا تلك المخالطة بين القانون وذخائر العلوم والأدب •

فالمحامى يعكف على القضية الموكلة فيها باسطة أمام القاضى ما تثيره من مشاكل قانونية وآراء الفقه بشأنها عارضا لحجج كل طرف وأسائده ليسهل على القاضى مهمته وينير طريقه وييسر له الوصول الى الحقيقة (٣) •

وكم من قضايا لم تتضح خفاياها الا بعد سماع مرافعة المحامى ، وما أكثر الأمور التى لا يكفى فيها مجرد الاطلاع على ما فى القضية لكشف غورها فيتبدد هذا الغموض بالقاء المحامى الضوء على ظروف القضية

وملابستها وكم من قضايا تعثرت أمام القضاء لصعوبة ترجيح حق على آخر فأدى نقاش المحامين وتفنيد كل منهم لرأى الآخر وحجية الى اظهار وجه الحقيقة فيها^(٤) .

وأخيرا فالمحامى وهو الرجل الذى يسعى لتحقيق العدالة دائما هو ضحيته فمؤكده الذى يخسر القضية لا يسلم أبدا بحق خصمه وينسب الخسارة لتقصير محاميه وليس لعدالة ما حكم به ، والموكل الذى يكسب قضيته لا يرجع ذلك لجهد محاميه بل ينسب الفضل فى كسبه الى وضوح حقه ونزاهة قاضيه^(٥) .

ان المرافعة أمام المحاكم — وخاصة الجنائية — فن رفيع ، بل تعتبر قمة الفنون على الاطلاق هذا ان احتاج فى مناحيه العديدة للموهبة^(٦) وان عمل المحامى هو معاونة العدالة على اظهار الحقيقة بالوقوف الى جانب المتهم . لأن العدالة هى اعطاء كل ذى حق حقه ومن التقاليد العريقة المسلم بها فى مهنة المحاماة أن زمام الدفاع هو أمر يتعلق بالمحامى وحده له من السيطرة عليه واستغلال ذلك فى توجيه الخصومة الوجهة التى يراها أقدر على تحقيق مصالح الأحكام فهو وحده صاحبه لا يتقيد فى ذلك بأى قيد^(٧) .

(٤) د/احمد صاوى — شرح قانون المرافعات المدنية والتجارية ١٩٩٠ من ٧٧ حتى ١٤١ .

(٥) حسن الجداوى — كنوز المحاماة — ص ١٢ ، الصاوى بند ٧٩ حتى ١٤٣ .

(٦) د/حسن صادق المرصاوى — المرصاوى فى الحق الجنائى — ١٩٩١ .

(٧) د/احمد ماهر زغلول — الدفاع المعاون — دراسات حول مهنة المحاماة — ص ٢ سنة ١٩٨٦ — ص ٥١ — بند ٣٠ .

ولذلك يجب أن يكون المحامى فصيح اللسان بالغ الأثر بكلامه متلاعبا بالعقول والقلوب فهو سيد الدعوى بلا منازع ويتسم بروح العدالة ويعتبر شمعة تحترق لكى يضىء مصابيح العدالة وهو ضحية العدالة بلا شك وكلامه يتصف بجمال الأسلوب وعمق الفكرة وتأثير البلاغة ، وسلاسة التعبير وقوة الأسلوب وجزالته ، ويجب ألا تغيب عنه عبارة ولا يتعثر له لسان •

كما يجب أن يتصف بحلاوة وطلاوة اللسان وسحر البيان والبلاغة وقوة السحر ويجب أن يتعلم كيف يعالج قاضيه ويلعب على أوتار قلبه حيث اللعب بالكلمات ويقول هنيئاً للقاضى العادل الكريم الجواد ولا يلعب بالنار عندما يقول « ويل لقاضى الأرض من قاضى السماء الا من عدل » • ويجب أن يكون دفاع المحامى مرتجلاً ملتها ويعتمد على عدة سليمة وليس عدة فاسدة •

الفصل الأول

مفهوم المرافعة

تمديد وتقسيم :

نعرض في هذا الفصل للمفهوم الواسع لمعنى المرافعة أمام المحكم الجنائية • وسوف نتناول هذا الفصل في مطلبين حيث نعرض في المطلب الأول لماهية المرافعة أما المطلب الثانى فسنخصصه لمبادئ المرافعة •

المطلب الأول : ماهية المرافعة

ان المرافعة في ساحة القضاء معركة أو ان شئت الدقة فقل هي مباراة تشرف عليها روح رياضية عالية يشترط فيها الصدق وعدم أخذ الخصم غيلة ، والالتجاء الى سلاح شريف لا زائف ولا مسموم ، مباراة أسلحتها الوحيدة المعتمدة قوة البيان وثبات الجنان وقرع الحجة بالحجة • والتدليل المنطقي والاستعانة — ولكن بقدر — بتأثير العاطفة واستدرار رحمة الحكم الذى هو القاضى ، أو استثارة غضبه لتحقيق واجبه كمحام الهيئة الاجتماعية يدفع عنها عدوان المعتدين ، وكملجأ المظلوم وسند للمهزوم •

وهذه المباراة التى يتولى ادارتها دائما قاض واحد أو قضاة تجرى دائما في قاعات متشابهة الوضع وبتنسيق يكاد يكون واحدا فالحكم يجلس في رس القاعة • وتشرف عليه تلك الحكمة الخالدة التى تبلى الدهور وهى لا تبلى وتتغير المبادئ والأنظمة وهى ثابتة التى تقرر أن « العدل أساس الملك » •

فاذا بدأت المباراة وجب على كل من المتبارين أن يبذل قصارى جهده ليقتنع الحكم بحقه ، وليعقد له لواء النصر ولكن المباراة في سبيل العدل لا يستعمل فيها الا سلاح الحق والصدق تسمو فيها الروح الرياضية الحق ، فلا مداورة ولا مواربة ، ولكن كلمة الحق تقال وان أضرت بقاتلها ، وحجة الخصم يسلم له بها وان خسرت المعركة بسببها •

فالخاسر في هذه المباراة والكاسب سواء ، كل منهما سعى لنصرة الحق وبها فاز • فالرافعة هي عملية ذهنية سريعة أى عملية عقلية محضة ولذلك يسهر المحامى الليلالى الطوال يسأل أوراق التحقيق أسرارها ، ويستلهمها خباياها ، ويستتبط الحجج التى أعدها لمصالح موكله ، ويغد لليوم الموعود ما استطاع من عدة وبيان ، ما بين شهود ينفى بهم الاتهام ، وأسئلة محرجة يقضى بها على شهود الأثبات ، ومستندات قاطعة فى الدعوى قاصمة لأدلة الاتهام فاذا ما جاء يوم الفصل بحث عن لسانه فوجده فى جوانب فيه لا يدري ما يقول وبحث عن الحجج التى أعدها فاذا بها قد تبخرت وخلا منها بيانه ونظر الى المستندات التى ظنها دامعة فاذا بها قد تحولت قصاصات لا قيمة لها فى الدعوى ان لم تتحول مستندات عليه لا له •

وتعتمد هذه المباراة على رصيد كبير لا يقدر بالنقود أو الذهب ولكنه رصيد الكلمات ، فالكلمات فى ترتيبها الطبيعى هي مادة القانون الخام وهى تمتاز بسحرها الخاص حيث ان لها صوتا كما أن لها لونا ومعنى ومن ثم فان اختيارها فى تركيب سليم يزيدها سحرا وقوة فعندما نضم بعض الكلمات الى بعضها البعض نجد أن الحياة قد دبت فى أوصالها بطريقة لا ندرىها وكأننا أمام شعر أو أمام أغنية • وليس مجرد جملة بل أمام الهمام متدفق وسرور لا ينتهى ^(١) •

(١) كروز الحلباءة — يوجين جيرهارت — ص ٣ ، سنة ١٩٦٧ ، مكتبة النهضة العربية القاهرة ، ترجمة حسن الجداوى ، محمد عمر ، تقديم حسن جلال المعروسى

ولذلك يجب أن يتسلح المحامى عند تحضير موضوع المرافعة بالمبادئ العامة فى القضية وقد يتسائل فى قضية سرقة مثلا ..

لماذا يقوم المتهم بالسرقة ؟

وكيف يقوم بتلك السرقة فى هذه الأحوال ؟

ومتى يقوم بالسرقة وهو غير متواجد ؟

وأين يقوم بها فى هذه الأحوال ؟

كما يتسلح ببعض المفردات مثل :

والغريب فى هذه القضية

والعجيب فى تلك الأقوال

والفريد فى كل هذا

والثير فى هذا الصدد

والذى يدعو الى الغرابة والدهشة

والسر الدفين فى هذا يمكن فى كذا

ومن هنا تأتى أهمية المرافعة بالنسبة للمحامى شفووية كانت أم كتابية فهى سلاحه الأكبر التى تظهر مواهبه وتنتشر جهوده • فهى للمحامى كالشرط للجراح وكالقلم للكاتب وكانفرجار للمهندس وبالتالي فان جمال الأسلوب وعمق الفكرة وتأثير البلاغة من صفات المحامى الناجح • ولقد بلغ بكبار المحامين الذروة فى سلاسة التعبير وقوة الأسلوب وجزالته ، ومن ثم لا تغيب عنهم عبارة ولا يتعثر لهم لسان لأنهم اتصفوا بحلاوة وطلاقة اللسان وسحر البيان والبلاغة لتأكدهم من أن الوقوف للمرافعة لا يقل شرفا بحال من الأحوال عن الجلوس للقضاء •

فالمرافعة في المحكمة ليست معركة بقدر ما هي مباراة شريفة أسلحتها الوحيدة تعتمد على قوة البيان وثبات الجنان وقوة الحجة والتدليل المنطقي .

ويجب التنويه الى أن السلاح البتار للمرافعة هو الاخلاص في عرض النوقائع ومناقشة الأدلة وليس مجرد اخفاء نقطة الضعف في القضية التي تحتل جانبيين أحدهما مظلّم والآخر مضى حتى ولو تغلب الجانب المظلّم على الآخر .

ومن هنا فان الكلام الغامض عن وقائع غير واضحة يجعلها غير مفهومة اكن الحديث الواضح عن حقائق غامضة يفضي عليها بصيصا من النور وكثيرا من الضوء الساطع .

ومن هنا نلاحظ أنه قد يتراجع أحد المحامين ساعتين ويكون مقلا كما قد يتراجع غيره خمس دقائق ويصبح مملا ولا يكون ذلك الا بالتركيز على الجانب المظلّم من القضية أكثر من الجانب المضى .

ويجب ملاحظة أن سحر الصوت السريع المجلجل وموسيقى ذلك الصوت تؤثر في السامعين . وهذه إحدى سمات المحامي المتراجع الذي يتميز بمقدرة أصيلة على الفصاحة وطلاقة اللسان الأمر الذي يؤكد أن لكل قاض محام بمعنى أنه يجب النظر الى حالة القاضى وظروف الجلسة واليوم وغيره . فالمحامى الذكى هو الذى يعبر الى أعماق قاضيه بنظرة واحدة ومن ثم يختار الأسلوب الملائم للمرافعة باعتبار أن لكل قضية مقال بمعنى أن الصوت العالى والثورة الجارفة من المحامى مؤثر على أن اتهم مظلوم فعلا ولكن اذا كانت الأدلة قوية فيحسن الالتزام بالهدوء والامتنان الكامل لاستعمال عوامل الرأفة في القضية . وذلك مع الالتزام بأساليب المرافعة التى سوف نتناولها فيما بعد وان كنا نرى أن الأساليب الأمثل للمرافعات أمام المحاكم هو حفظ بعض المقدمات والخواتيم مع

معالجة الموضوع من زاويتي الواقع والقانون وذلك باللغة المختلطة بين
الفصحى والعامية .

فالرافعة ليست هي الفصاحة وحدها ولا هي العلم بالقانون
وحده ولكنها قبل أن تكون غزارة علم وزخرف كلام هي سياسة يقظة
واستبصار حول الدعوى وروعة في الأداء ولباقة في إيراد الأمر وإصداره
بالنسبة للدليل .

ويجب أن يكون الكلام ثوبا للمعاني المقصودة لا قصيرا ينكرها
وتنكره ولا طويلا يتعثر بها وتتعثر فيه فقد تكون لاحق المطلوب حياة
في نفسه ولكن لا يلبث أن يموت لأن قصور الإبانة عنه تركه مختنقا تحت
ترابه أو لأن الخروج عن القدر اللازم للإبانة عنه إلى الاطناب في غير
مقتضى أو إلى التعلق بالحواشى البعيدة عن صلب الموضوع أرسل من
الملالة والسأم ما يضيق به صدر القاضى فلا تجد الحقيقة مسلكا إلى قلبه
لأن القاضى على كل حال بشر تعنيه الحجة الظاهرة في العبارة الموجزة عن
التطويل بإعادة ما قيل أو بما لا يقوم به الدليل (٣) .

وان متطلبات النجاح في المرافعة هي الفضيلة وروح المبادرة
والعزم والشجاعة . فإذا أردت أن تكون محاميا مترافعا واثقا من نفسك
فإنك ستصبح كذلك لكن يجب أن ترغب في ذلك وتسير على الطريق
انصحيح بعدم اليأس .

وانها لرسالة مقدسة — رسالة الدفاع — أن تقف بجانب رجل برىء
هجره ذووه وتتكلم له أصدقاؤه وأنصبت عليه أعنة الناس من جميع
النواحى لتدافع عنه وذلك كما يقف القسيس إلى جوار المذنب المحكوم عليه

(٢) أحمد رشدى — المحاماة كما أعرفها — ص ١٥٣ — الكتاب الذهبى
للمحكم الأهلية ط ٢ ، ١٩٩٠ .

بالإعدام ويسير بجواره وسط صخب الصاخبين حتى قاعدة المشنقة ثم يبعث به واقفا للقاء ربه والمحامي من جانبه يقف بجوار هذا البريء ويرفع صوته وسط الاتهامات والجلبة ليعت بهذا الرجل نقياً مطهراً أمام الناس •

فلإي يمكن أن يدبر المحامي ظهره لأي متهم — أبداً — مهما تكن تهمته وكلمة كان صراخ المعارضين عاليا كانت حاجة المتهم لحام أشد وأقوى وحين يدير جميع الناس ظهورهم للمتهم يحتتم أنقانون أن يعين له محامياً يترافع عنه ويكون له ليس مجرد محام بل صديق •

ومن الشروط الهامة في المرافعة :

١ —وحدة الموضوع •

٢ — ترتيب الكلام وترتيب الأفكار بحيث يبدأ أولاً بالفكرة البسيطة ثم يتدرج حتى يصل إلى قمة ما يريد • وفي القمة يبدو انفعاله وقوة صوته وقوة عباراته جميعاً •

٣ — إذا انتقل المترافع من الفكرة الأساسية إلى الأدلة التي يريد الاستناد إليها يجب أن تكون أدلته واضحة قريبة متصلة بما عرضه في موضوعه •

وعلى أي حال فإن عرض الموضوع لأبد له من نوعين من الأدلة تؤيده وأدلة تدفع ما يعارضه أو ما عسى أن يعارضه ولا شك أن المرافعة أمام المحاكم لها أساس واضح من القانون حيث تستند إلى مبدأ شفوية إجراءات المحاكمة الجنائية باعتبارها من المبادئ العامة للمحاكمة أعمالاً للمواد ٢٦٨ — ٢٩٤ إجراءات جنائية •

ولكن الخطأ المميت الذي يقترفه الكثيرون يكمن في إهمال تحضير

الرافعة فكيف يأمل ذلك المحامى حتى في قهر الخوف والتوتى العصبى حين يخوض المعركة بعدة فاسدة أو بدون أية عدة على الاطلاق •

فالمحامى في مرافعته صاحب رسالة حقيقية يسعى الى ابلاغها عن طريق أسلوبه وصوته ونبرته ولن يستعين في ذلك الا بالمواد الخام من الكلمات التى استخرجها من منجمه الخاص •

ويجب ألا يجعل المحامى من حديثه مجرد موعظة مجردة للمحكمة لأن ذلك سيكون مملا •• اذ يجب جعل الحديث مثل كمكة مزينة بالأمثلة والعبارات الرنانة •

والرافعة الجيدة هى تلك التى تتسلح بمادة احتياطية وافرة فائضة أكثر بكثير مما يستخدمه المدافع والا كمن بدأ من دون أن يعرف ما الذى سيقوله وانتهى دون أن يعرف بما نطق •

ولذلك فان بناء الرافعة هام جدا حتى يحقق المحامى رسالته وحتى يكون المحامى سيد موضوعه بالعمل الشاق والتخطيط الصائب والعمل التحضيرى الدائب حتى يصبح محاميا ماهرا وحتى لا تكون كلماته مثل المطرقة •

والنصيحة الأساسية هى ألا يبحث المحامى عن الكلمات ولكن يجب عليه أن يبحث فقط عن الحقيقة والفكرة فعندئذ تتدفق الكلمات من دون أن يسعى إليها •

والمحامى الناجح هو الذى يلم بقوانين التذكر الطبيعية وهى الانطباع والتكرار وتربط الأفكار •• أو ما يسمى بجهاز التذكرة أو فكرة تصوير الوقائع بفكرة الصور أو قانون التذكر الطبيعى وهو لا يؤخر تحضير خطابه للمحكمة الى ما قبل القائه بليلة واحدة فان فعل ذلك ستقوم الذاكرة بسبب الضرورة بالعمل بنصف قدرتها الممكنة لذا يجب التفكير وتحضير القضية قبل يوم الرافعة بمدة كافية وان كانت مهارة

قمة المحامين تمكنهم من قراءة أوراق القضية ثم المرافعة بعسدها بفترة قصيرة جدا بعد الجلسة ولكن يلاحظ أنهم يتعرضون للجوانب القانونية التي من المفروض أنها مدروسة ومحفوظة عن ظهر قلب وتختلف بالنال إلى محام إلى آخر ولا تعتمد إلا على ترابط الأفكار لأن الذهن بشكل رئيسي هو آلة ترابط الأفكار •

كما يجب على المحامي احترام المنصة •• فليس احترام المنصة عيبا ينسب إلى المحامي بل إن جلال المنصة من جلال المحاماه •

ويجب أن يتسلح المحامي أولا وأخيرا بالوقار فالمحامي الذي يفقد وقاره يفقد موكله ويفقد قضيته ويفقد نفسه •

وهذا الوقار يكسبه سحر ورفعة فإن سبب ضياع احترام المحامي وانفضاض موكله عنه هو فقده الوقار •

ولم تعد وظيفة المحامي تقتصر على الدفاع عن الحقوق أمام القضاء بل امتدت لتغطي المعاونة الفنية المتخصصة خارج قاعات المحكمة التي هي حرم العدالة المحامي للحريات •

والمحاماه إن أعطيت فهي لا تعطى إلا لمن عشقها وسار في دروبها وتمكن من الوصول إلى قننا وأسرارها (٣) •

ولمعرفة قيمة المحامي أنظر إلى القاعدة الأساسية عند الفرنسيين التي تقول إن الخالق سبحانه وتعالى يأمر من السماء وعباده أن يطيعوه • أما المحامي — دون مقارنة — فهو الذي يأمر موكله في الأرض الذي عليه أن يستجيب لما رآه محاميه (٤) •

(٣) انظر الأستاذ/أحمد شنن — عظمة المحاماة — ص ٨١

(٤) انظر الأستاذ/أحمد شنن — المرجع السابق — ص ٩

المطلب الثانى

مبادئ المرافعة^(٥)

تمهيد :

سوف نعرض فى هذا الفصل للمبادئ الأساسية للمرافعة أمام المحاكم الجنائية على أن نتناول البلاغة فى المرافعة والعاطفة فى لغة المرافعات ثم الالتماس فى المرافعة ثم الجراءة فى المرافعة والاعتدال أيضا فيها على التوالى وذلك على النحو التالى :

أولا - البلاغة فى المرافعة :

ان البلاغة هى اجتماع اله البلاغة ، وذلك أن يكون المترافع رابط الجأش ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير للفظ ، لا يكلم القاضى بكلام السوقه •

وذكر رسول الله ﷺ شعبيا النبى عليه السلام فقال « كان شعيب خطيب الأنبياء » •

والبلاغة هى اىصال القلب الى القلب أما الفصاحة فهى احتيال اللسان على الأذن من طريق المعرفة اللفظية التى ليست مجرد ظل للمعرفة غير اللفظية •

(٥) عن مقال لغة الأحكام والمرافعات — زكى عريبي المحامى — الكتاب الذهبى بتصرف — ص ١٦٣ •

١ — « ضرورة البلاغة في اظهار الحق »

اتفق الناس من قديم على أن البلاغة صفة لازمة لمن جعل الدفاع عن حقوق الناس مهنة ، وتواضعوا على وجوب أن يكون المحامي فصيح اللسان بالغ الأثر بكلامه متلاعبا بالعقول والقلوب ، وما يزال الاجماع على لزوم توافر هذه الصفات دائما .

فالمحامي ينبغي الى الصنعة والى التفنن في أساليب الخطاب أحد أمرين : اما أن المترافع يرمى الى قلب الحقائق فلا بد له من زخرف القول يموه به ويغفر ، واما أن الحق المجرد بغيته ومطلبه ، والحق المجرد ميسور بمجرد الطلب .

سل طلاب الحق في كل زمان ومكان ينبؤك عن الكلام ونوره الساطع وشمسه المتألقة وسلطانه القاهر خيال في خيال . حدثهم عن كنهه يخبروك بأنه جوهر نادر ثمين مستقر في أعماق الأعماق ، خفى على الباحث ، عسى على المستخرج ، وأن وجوده — اذا هو اكتشف — وجود نسبي يقتصر في الغالب على المكتشف . فاذا ما أراد هذا أن يثبت اكتشافه للغير وجب أن يعد نفسه لحرب عوان ليس له من سلاح فيها غير بيان حسن ومنطق واضح وبلاغة غالبية .

على أنه من ذا الذى يستطيع التحدث عن الحقيقة المجردة المطلقة ؟ أين الحق الذى لا يمازجه باطل وأين الباطل الذى لا يمازجه حق ؟ النسبية قانون متميز في كل شيء في الوجود ، وليس أسهل من تبين حكمه في عالم الحقوق .

في كل دعوى اذن مزاج من الحق هو أشبه شيء بالذهب يخالطه عناصر كثيرة متنوعة على المترافع أن يطهره منها فيخرج بالمعدن النفيس متألقا وهاجا وأنى له ذلك الا أن يؤدى رسالته على الوجه الأكمل فيجلو

ما غمض ويبسط ما تعقد ويسهل ما استعصى • والأمر بعد ذلك ورغم ذلك ، لا للقضاء وحده ، بل للقضاء والقدر قرب حجة سائئة قاطعة يحويها كلام سقيم فتضيع قوتها وتخدم جذوتها ، فإذا ناصرها البيان وقدمها فصيح اللسان انقلبت سحرا حلالا ولذلك فإن البلاغة هي اذن ألزم اللزوميات للترافع •

٢ — « مجال اللغة العلمية في المرافعات »

صحيح أن لغة الارتجال ماتزال تختلف اليوم عن لغة التحرير ، فالأولى تسمع والثانية تقرأ •

أينا لم يسمع عن الهلأوى في أحد مواقفه الرائعة • انه يتكلم بالفصحى فيزري بفقهاء اللغة ولكن الرجل محام بطبعه وسليقته ، فهو يعرف أن العربية الفصحى الصحيحة ماتزال اى اليوم لغة صنعة ، وانها ا تزال تجهد المخاطب والمخاطب معا • والاجتهاد اذا طال انتهى الى ملل وسأم ، لهذا تراه وقد فرغ من التحليق في سماء البيان وانتهى من قرع الأسماع ، في نقطة معية ، بخطاب فخم داوى الألفاظ ، رنان العبارة — تراه بعد هذا وقد هبط من جوه الأعلى الى سهل موطأ من كلام يروى به لطيفة من لطائف الشائعة ، أو يصوغ فيه ملحه من ملحه العذبة البارة ، أو يبرى منه سهما من السخر الفتاك ينفذ به الى مقاتل الخصم •

ولذلك سوف تبقى العامية الى جانب العربية الفصحى لغة مرافعة اضافية تصاغ منها النكتة البارة يخفف بها الصخر ويطوى بمعونتها ملل الجلسات الطويلة القاحلة • وليس في بقائها ضرر فهي لن تطغى على الحلول محلها في موضع الجد وعند المناقشة الحامية تدور حول مسائل علمية أو موضوع خطير •

٣ — « مطابقة لغة المرافعة لمقتضى الحال »

لقد بلغ من اغراق العائلة القضائية ابان بعض العهود في التأديب أن أصبحت المرافعات والأحكام عبارة عن اقتباسات مكسدة من كتب اليونان والرومان تلوح بينهما الألفاظ الفرنسية وتختفى ولكن يلاحظ أنه قد بقي الاتصال وثيقا بين الأدب والقانون • وذلك لأن الكثير من أشهر أدبياتها شغلوا كراسى القضاء أو لبسوا رداء المحاماة •

(ثانيا) « العاطفة في لغة المرافعات »

وليس أجمل في لغة المرافعات ، بل ليس ألزم ، من غلبة العاطفة فيها حيث أن كلام المحامي يبقى مجرد كلام لا طائل تحته حتى تغشاه عاطفة صادقة فتصبح له قوة السحر •

« قديما قالوا أن القول ينفذ الى القلب اذا صدر من القلب » ولذلك يقف محاميان يطلبان الرأفة لتهم فيفوه أحدهما بكلام لا يعدو السمع ويقول الآخر قولاً يهز القلوب هذا • كلاهما يترافع ، وكلاهما يستعمل كلمة الرأفة والشفقة • فكيف يتفاوت أثر مرافعتهم هذا التفاوت ؟ •

فتنقش وابتحث وسل علماء النفس ينبئوك بأن واحدا من الاثنين حساس يستشعر ما يقول ويتأثر منه عدوى التأثير الى الغير ، والتأثر ، لكى يكون له الأثر يجب أن يكون صادقا ، وهو لا يكون صادقا الا أن يصور عن يقين واقتناع • فان فاقد الشيء لا يعطيه وأن تعجبت لشيء فاعجب لهذا الاقتناع يبدو لك صادقا — وهو صادق بالفعل — في قضايا يكاد يستحيل على العقل أن يصدق أن كلام المحامي فيها وليد الاقتناع • ومثال ذلك أنه في احدى القضايا ولم يكن في القضية منفذ لآبرة ، الا من حيث أدبياتها ، أخذ « مرقس » القضية عنوة من ناحيتها الأدبية متوسلا

بما لاحظته من أن التحقيق فيها كان سريا ، وأن المحامين قد منعوا من حضوره . وانظر اليه كيف يبدأ هذا الدفاع المجيد وقتل ان في مصر معامرين:

نحن المحامين : نعالج آلام الناس ونرافقهم في شفائهم ولهمذا نرتدى الثوب الأسود ونقف في هذا المكان المنخفض . فاذا ما أعيانا التعب جالسنا على هذا الخشب الصلب فيزيدنا نصبا . فنحن حقيقة رؤساء ، رفقاء الرؤساء . ولكن رغم هذه المظاهر الخداعة فان الذى فى قلبه ايمان بالحق يرتفع من هذا المركز المتواضع الى السمو الذى لا حد له . ذلك لأن عماده كله حق ، ولأن مأمورية المحامى تهتل حق الدفاع المقدس .

لكن ماذا جرى فى هذه الدعوى ؟
« جرى أن المتهمين جميعا قذف بهم يا حضرة القاضى الى هوة من النار » .

ومن الأمثلة أيضا أنه قد قضى « لا شو » يتراجع ثلاثة أيام وهو كمن يضرب فى حديد بارد حتى أسعفه الحظ ، وقد أخذ اليأس منه كل مأخذ ، بسقطة لسان من النائب العام اذ وصفه فى رده على مرافعته « بالدافع عن الزورين وقطاع الطريق » .

وهنا وثب « لاشو » وثبة الأسد وقد وخز بالسكين ، وعاودته قوته الهائلة بفعل الكرامة المبروكة ، وانطلق ببيان الساهر من عقاله فأتى بما لا يسبقه اليه الكلام ، واستطاع بعد دفاع مرتجل ملتهب أن ينفذ رأس موكله .

(ثالثا) « الالتماس فى المرافعة »

✽ ويجب ألا يغرب عن الذهن أن المترافع ملتصق ، فلفته يجب أن تكون لغة يحوطها الاحترام الكلى للهيئة التى يتراجع أمامها . قد يكون

أغزر من سامعيه علما ، وأظهر فضلا ، وقد يكون كلامه لهم تعليما ، ولكن عبارته يجب أن تكون عبارة اكبار واعظام •

✽ والاحترام والاكبار لا يقتضى التذلل ولا انضعة في توجيه الخطاب • وأشد ما يكره عبارات انتملق والتذلل يوجهها : بعض الزملاء الى قاض ليس بحاجة الى رتبة تخلع عليه على سبيل التأديب الزائد ، وقد يحمل خلعا على أنه زلفى وتقرب •

« رابعا » « المرافعات لغة جراءة »

✽ أنظر الى « ديسيز » وقد دعاه لويس السادس عشر :

أيها المواطنون :

أخاطبكم بلسان الرجل الحر • انى أبحث بينكم عن قضاة فلا أجد غير متهمين ، أتريدون أن تجعلوا من أنفسكم قضاة « لويس » وأنتم خصومه •

أتريدون أن تجلسوا للحكم في قضية لويس ولكم فيها رأى يجب أوروبا من أقصاها الى أقصاها •

أيكون لويس الفرنسي الوحيد الذى لا يحميه قانون ولا يتبعه في محاكمته اجراء واحد صحيح •

أيجرد من امتيازاته كملك ومن حقوقه كمواطن ؟

أيفذه القانون حاكما ومحكوما ؟

يا له من مصير عجيب لا يتصور •

ولاحظ في هذه المرافعة أسلوب التعجب المتواصل والاستنكار المتوالى والجراءة الواضحة •

(خامسا) « الاعتدال في لغة المرافعات »

يجب أن يكون المحامى المترافع معتدلا في مرافاعته بحيث لا يرمى زميله بشيء لأن أقبح من رمى الخصم بما لا يجب ، جرح الزميل •

فصحيح أن المرافعات دفع وجذب ، ونادر هو المترافع الذى يملك زمام أعصابه فلا تجمع به وحدة الدفاع • ولكن المسألة مسألة مران • وانك لتدهش ، وقد عودت نفسك التزام حدود الاعتدال ، كيف يسمو موقفك ، وتعلو حجتك ، ويمتاز بيانك •

(سادسا) « لغة المرافعة لغة حديث لا كتابة »

ان لغة المرافعات قبل كل شيء لغة حديث لا لغة كتابة • تلك هي لغة المرافعات حيث أن المحدث مضطر بحكم طبيعة الموقف الى الابتكار السريع والكلام المرتجل وهو صلة الحدث في غير توقف ولا تردد ولذلك فان أول صفاته دون شك بساطة التعبير •

وتختلف الكتابة عن المرافعة من حيث الأسلوب والعبارات المستخدمة حيث أن الكتابة القانونية تحتاج الى بعض العبارات والكلمات (٦) •

(٦) من التعبيرات والاصطلاحات للكتابة القانونية فيها يلى : —
وحصيلة القول — وخلاصة القول — بيد انه — وتطبيقا لذلك — وعلى هذا النحو وغنى عن البيان — نشأت بعض النظريات في رحاب القانون الحنى — ويعتبر — ذلك ضربا من ضروب الجهل — ويبدو لنا ان هذا النقد في غير محله — والراى السائد فقها وقضاء •
يتناول الباب الاول ويتعلق الثانى ويتصل الثالث ويحاول الرابع ونحاول بسط هذه الموضوعات على النحو التالى :
ولقد تعددت آراء الفقهاء حيث يتفق الباحثون — قد بات واضحا — يبرز دور — وفضلا عن هذا — ساهمت الأبحاث — وينبغى أن — ويلاحظ أن — ويبدو أن — وينكر البعض هذا الاتجاه — وغنى عن البيان — وينكر البعض هذا الاتجاه — ولا نعتبر صحة هذا الاتجاه — وتجدر الإشارة — بالغ الأهمية — بلغ مبغلا — ويبدو لنا من استقراء أحكام محكمة النقض المصرية — الحوار القضائى محور الرسالة — ويبرز على السطح .. وهكذا •

=

(سابعا) المرافعة وشهادة الشهود

قد يعتمد المحامى فى مرافعته على تفنيد أقوال الشهود ومناقشة أقوالهم مناقشة جادة ، ومن ثم يجب عليه معالجة تلك الأقوال المعالجة السليمة .

فالشهادة ترتكز على ثلاثة أعمدة رئيسية : أولا : التركيز وقوة الوعى وأمانة الذاكرة • ثانيا : الإدراك الذى يسجل الوقائع قبل وقوعها • ثالثا : الدقة فى تقرير الوقائع •

ويذهب الأستاذ محمد شوكت التونى بخصوص شهادة الشهود الى أنه يجب على المحامى والقاضى مراعاة الأسس الآتية :

- ١ — الوقوف على المستوى الاجتماعى للشاهد •
- ٢ — التفريق بين شاهد الاثبات وشاهد النفى •

٣ — العناية بأقوال الشهود من حيث كلامهم عن لون الملابس وبعد المسافة والوقوف بالمواجهة أم من الخلف ، وهل الضرب بالعصى أم

= الملاح الاساسية للنظام — ولقد اهتم هذا البحث بدراسة ،

وكان رائدنا فى هذا البحث .

يتنهل فى — يرتد الى اصل واحد .

وكلت مهمتا الاولى هى فض الاشتباك — هناك حاجة تشريعية لمعالجة بعض النقض فى القانون يبدو فى — ولا بد من احداث تعديل تشريعى يأخذ فى الاعتبار مسلك التشريع الفرنسى ويبدو لنا ذلك من زاويتين أو من زاوية هامة — استخلصنا — استجلاء .

ينسف — يدبر — يعصف — يحطم .

فى اطار قانون العقوبات .

من زاوية قانون الاجراءات .

ومناد تلك النصوص .

تتغلغل .

تتوغل — تنهض — تظهر — يكمن .

بالخيزانة ، وهل كان المتهم يمشى أو يسرع الى غير ذلك من أمور ..

٤ — بث الطمأنينة في نفس الشاهد أثناء مناقشته •

ويجمع أساتذة المحاماة على أنه يجب على المحامي أثناء توجيه الأسئلة للشاهد ومناقشته له أن يضع في ذهنه — بغض النظر عن كونه صادقا أو كاذبا — النتائج الآتية^(٧) •

١ — جعل الشاهد ينكر أو يغير أو يحرف أقواله •

٢ — جعل الشاهد يعترف بوقائع في صالح الشخص الذي يشهد ضده •

٣ — جعل الشاهد يرد على نفسه بنفسه ، أى حملة على الادلاء بتصريحات متضاربة •

وكها أمور القصد منها اقناع القاضي ببراءة المتهم أو ثبوت التهمة عليه •

وفي احدى القضايا ، استطاع المحامي نتيجة لقدرته على توجيه الأسئلة للشهود وادارة الاستجواب أن يوقع بالشهود ، فأثبت أن كل أقوالهم ان هي الا خيالا صبيانيا خقه الايحاء والخوف مجتمعين • وعندئذ قضت المحكمة بالبراءة •

قد يعتمد المحامي في مرافعته على ما جاء بتقرير الطب الشرعى اعتمادا كاملا الأمر الذى يتعين معه المام المحامي بمبادئ ألطب الشرعى حيث أن له قواعده وأصوله وأحكامه^(٨) •

ولقد أطلق على الطبيب الشرعى اسم « القاضى الفنى » ، لأن كثيرا

(٧) كيف تصبح محاميا — الاستاذ/ محمود العمروسى — ط ١ سنة ١٩٨٦ •

(٨) كيف تصبح محاميا — الاستاذ/ محمود العمروسى — ط ١ سنة ١٩٨٦ •

من القضايا يكون فيها الطبيب الشرعى هو صاحب الرأى فيها ، وكثيرا ما يكون مصير المتهم رهينا لما سيكتب فى تقريره •
ولعل هذا كاف للتدليل على أهمية ذلك العلم بالنسبة للمحامى والأسرة القضائية عموما •

فالطب الشرعى هو فرع من فروع الطب يختص بإيضاح المسائل الطبية التى تنظر أمام رجال القانون ، وهو مجموعة قواعد طبية وبيولوجية لازمة فى التطبيق العملى للقانون الجنائى ويشمل دراسة المسائل القانونية التى لا يجوز حلها الا بواسطة تلك المعلومات البيولوجية أو الطبية كما يشتمل على دراسة كافة الظواهر البيولوجية والاكلينيكية التى تستخدم لحل المشاكل القضائية • وهو بصفة عامة يمدنا بكافة أسباب الاصابات والوفاة والتحليلات الكيمائية لبيان طبيعة العادة المستخدمة فى احداث الاصابة أو القتل • بالاضافة الى تحليل الخطوط لمعرفة شخصية المتهم •

تاسعا — دور قاعة الجنائيات الكبرى بمحكمة مصر (٩) :

للحجارة ذاكرة أقوى من ذاكرة الانسان • عرف الأعرابى ذلك فيها • فكان اذا أراد أن يسترجع الماضى ، عقل ناقته بجوارها ووقف فى ظلها يسألها عن أسرارها • ويستردها ودائع أخبارها • وأدرك الفراغه أنه اذا كان صمتها طويلا فلأنها تعى التاريخ وتحفظه • ثم تتممخض عنه على الزمن دروسا بينات • وآيات مفصلات • فكلما زناها بحثا وتنقييا ردت الينا من أسرارها حجرا دفيننا بل كنزا ثميننا •

فاذا عمدت اليوم الى قاعة من قاعات المحاكم ، أضغ تاريخها وأدون أخبارها فليس فى هذا عجب ، فلقد كانت هذه القاعة ولا تزال

(٩) مقال الاستاذ/محمد صبرى أبو علم — الموسوعة الذهبية لمحكمة النقض — طبعة نادى القضاة — ط ٢ — ص ٨٧ وما بعدها •

مسرحا للحوادث تمثل بين جدرانها ، وميدانا لتاريخ السياسى والاجتماعى يسجل فى ساحتها ويدون فوق منصتها •

قف ببابها مقيا السمع الى الصدى الذى يرتد اليك من أعماقها ، ويخلص الى نفسك وسمعك من بين حناياها وأركانها فى صمت وخشوع واحترام • فانت على أبواب معبد • ولكن الرجوع الذى يتردد بين الجدران صداه ، وتدوى بين أعمدة القاعة تموجاته وهزاته أو بقاياها ، ليس مع ذلك أذان المؤذنين فى مسجد ، أو أنغام المرتلين فى هيكل أو معبد ، واكن تلك دار العدالة وهذا هيكلها وأنت فى محرابها • وما تتلقفه أذنك ليس الاقطعا من تاريخ تتأثر من حين لآخر ، وصيحات وعبارات وأنات تخرج من أعماق نفس معذبة ، بل تلك صرخات محكوم عليه صعقت نفسه تحت وطأة الجريمة أو شدة العقوبة فذابت حشرات أو انطلقت لعنات داويات ، بل ذلك صوت الندم والاستغفار تحركت به شفتا مجرم ، بل هو طغيان النفس المتمردة على المجتمع ترتكب الاثم وتحمله مسئوليته : خليط من غيظ مكظوم ، أو حقد مكتوم ، أو كبرياء محطمة •

بل ذلك معمل النفس الانسانية • فيه تشرح وتكشف عن أسرارها • وفيه تفصح وتعلن عن سؤاتها • وعلى مائدته الممدودة تدل الى أجزائها الأولى •

بل ذلك بركان الطبيعة البشرية • فيه تثور ثورتها ، وتبرز قوتها ، وتخرج من مكان النفس الأمارة بالسوء ، غلبة ، قوية ، منفعة • يلعب الشر فى أسرتها ، وينضح الدم من عروقها ، ويطل الغدر من عيونها • ويتفجر الاثم دما ونارا •

وادخل معى تلك القاعة التى تشبه سائر قاعات المحاكم فى بنائها ومظهرها ونظامها ، ولكنها تختلف عنها فى كل شئ • فهذه القاعة قد اقترنت بتاريخ مصر السياسى والاجتماعى وعاصرتة ، وأصبحت ساحتها

مرصدا تسجل فيه هزات العالم السياسى وأحداث مصر الكبرى — قاعة انطبعت فيها أدوار الحياة المصرية العامة والخاصة • فكلما حدث فى البلاد حدث سياسى ، أو تفاعل بين مختلف التيارات التى تتجاذب الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الوطنية ، شهدت فى ساحتها صدق ذلك كنه معروضا فى قضية جنائية • وكلما اهتزت قوائم الحياة السياسية رأيت أثر الهزة معروضا فى هذه القاعة بعد فترة من الزمن عرضا محفوها بالاهتمام — فى حادث من الحوادث التى تجذب إليها جمهور النظارة يتهافتون على مقاعدها ، ويتهاككون على الوقوف فى جوانبها •

وتعصف العواصف السياسية وتدوى صواعقها ، فتثير الغبار وتقذف باللهب والنار • ثم تتركز ثورتها وتتبلور حرارتها فى قضية من القضايا تعرض فى هذه القاعة ، فتنتقن إليها ثورة الشارع بكل ما فيها من معانى الحياة المتدفقة المتدافعة • أليس هناك معرض الحياة السياسية بجوها المكرب ومظاهرها المختلفة ، وما ينبعث عنها من حماس ثائر وفتنة ؟؟؟؟ أليس هنا معرض البلاغة والبيان الساحر ؟؟؟؟ لقد نصبت العدالة الميزان ، ووقفت بين الخصوم يتقاذفون الحجج ، ويتجادلون ، ويتصارعون حتى اذا ما استنفدوا كلامهم وأتموا دفاعهم تنزلت من سماء العدالة كلمة الحق فخروا لها ساجدين •

وهناك فى قفص الاتهام توالى وقوف شخصيات لها خطرها فى كل مسالك الحياة • هنالك من خلف أعواد الحديد المدببة كالسهام أطلقت رموس قادة الرأى العام : من أصحاب المذاهب والآراء ، كتابا وساسة وزعماء ، ليلتلقوا ضربات الاتهام • هنا وقف رجال كانت قضاياهم جزءا من تاريخ مصر الحديث • وكانت الأحكام التى صدرت فيها نقطة التحول فى مجرى الحوادث • وقفوا وقد سلطت عليهم شهوات الخصومة نارها التى لا ترحم ، وسد عليهم الاتهام منافذ الخلاص وجمع حولهمهم الشهود ورماهم بالتهم • وقفوا بين معتز بيراعته يستل من الخصومة القضائية السهام التى رماه بها الاتهام ليرسلها أقواسا حاصدات ، ويرمى

بها نبالا قاصدات • وبين معتز بوطنيته متحصن بمعمريته يأبى أن يتقدم
لغير قضائه المصريين بدفاع • وبين متهم ينزل عليه القضاء حكما
بالاعدام فلا يحرك ساكن نفسه انى راضها على ما تلقى في سبيل
ما تعتقد •

في عام ١٩١٠ نشطت الحركة الوطنية وأخذ الكتاب والشعراء
والخطباء يغزونها بأقلامهم وألسنتهم ، وتعددت المحاكمات الصحفية ،
ونشر الشيخ على الغاياتى أحد محررى جريدة العلم التى كانت اذ ذاك
لسان الحزب الوطنى بعد تعطيل « اللواء » كتابا أسماه « وطنيتى »
ضمنه كثيرا من المنظومات الشعرية ، وقدم المغفور له الشيخ عبد العزيز
شاويش الكاتب الى الجمهور بكلمة • ثم طلب الشيخ الغاياتى من المرحوم
محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى أن يكتب له رسالة فى الشعر
والشعراء جعلها مقدمة لكتابه • ورأت النيابة أن فى الكتاب ما يؤاخذ عليه
فباشرت التحقيق واجتازت الغاياتى حدود البلاد فحوكم غايبا • وقدم
الشيخ شاويش لمحكمة جنائيات مصر ، واحتواه قفص هذه القاعة وتولى
الدفاع عنه المرحوم أحمد بك لطفى والأستاذ محمد على بك • وعقدت
الجلسة برياسة المرحوم محمد مجدى بك وحضور حضرات على
ذى الفقار بك ومسيو سودان مستشارين ومحمد توفيق نسيم بك رئيس
نيابة الاستئناف • وثبت لدى المحكمة أن الشيخ شاويش قد حسن ومجد
أهوالا معاقبا عليها قانونا بصفة جنحة ، وذلك بأن امتدح هذا الكتاب
بمقدمة وضعها فيه بامضائه وقضت بحبسه ثلاثة أشهر فى يوم ١٦
أغسطس سنة ١٩١٠ وكان فريد بك غائبا عن مصر ، فلما عاد حققت معه
النيابة وقدمته للمحاكمة واتهمته بأنه حسن كتاب « وطنيتى » المشتمل
على عدة أمور معاقب عليها قانونا • ونزل المرحوم فريد بك بدوره ضيفا
على هذه القاعة فى مقعد الاتهام • وشكلت المحكمة برياسة المستر
دلبراو غلو وعضوية حضرتى أحمد بك ذو الفقار وأمين بك على المستشارين
وجلس فى كرسى النيابة محمد بك توفيق نسيم • وحل فريد بك المحكمة

لا يصحبه محام ولا مدافع وقضت المحكمة بحبسه ستة أشهر • وقد
أثارت هاتان المحكمتان اهتمام الرأى العام اذ ذاك •

وفى ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ نزل رئيس الوزارة المصرية المأسوف
عليه « بطرس غالى باشا » يحيط به كعاقبه رجال الحكومة حتى بلغوا
سلم نظارة الحقانية ولم يكذب يودع مشيعيه حتى ابتدره الشاب « ابراهيم
نصف الوردانى » ففرغ فيه عدة رصاصات طرحت على الأرض يتخبط
فى دمه ، أطلقها من مسدس كانت تحمله يده •

وكان هذا أول حادث قتل سياسى فى البلاد • فارتج القطر للحالة •

وقبض الجانى متلبسا بالجريمة • ثم قدمت القضية للمحاكمة •
وكتب لهذه القاعة أن تشهد تلك المحاكمة الكبرى • وتولى رئاسة المحكمة
جناب المستر دلبراوغلو وجلس حواله المستشاران أمين بك على وعبد
الحميد بك رضا • وتولى الاتهام من بدايته لنهايته المرحوم عبد الخالق
ثروت باشا النائب العام • ودام نظر القضية من يوم ٢١ ابريل سنة
١٩١٠ الى يوم ١٨ مايو سنة ١٩١٠ •

ووقف النائب العام يصف هول الجريمة وسوء وقعها ، ويطالب
برأس المتهم فى بيان رائع يعتبر مثالا عاليا للبلاغة القضائية الهادئة حل
فيه شخصية المتهم وأثبت مسئوليته عن عمله • وتولى الدفاع الأستاذة
ابراهيم الهلباوى بك والمرحومان أحمد بك لطفى ومحمود بك أبو النصر •
تغلغل الدفاع فى صميم الأسباب الملبسة للجريمة ، وحال شخصية
المتهم والعلة النفسية التى قال انها تنزلت اليه بالوراثة أو بحكم البيئة
التي عاش فيها • واستدعى الشهود والخبراء لاثبات ضعف عقله ليصل
الى تحديد مسئوليته • وأثار كثيرا من المسائل الفقهية لنفى سبق الاصرار
عن المتهم • وكان صراعا قضائيا جبارا ذلك الذى تولاه من جانب المرحوم
عبد الخالق ثروت باشا والمحامون الثلاثة من الجانب الآخر كان صراعا

حول رأس الوردانى • يطلبها النائب العام باسم العدالة لقتلها يد
الجلاد جزءا ما اقترف • ويحاول الدفاع انتزاعها لأنه يرى أن التهم
غير مسئول مسئولى كاملة • وأخيرا اختتم الدفاع بعبارات مؤثرة ألحها
المرحوم أحمد لطفى بك • ثم انتهى الدفاع وخلا القضية الى أنفسهم •
ثم عادوا لينطقوا بالحكم باعدامه شنقا • وهكذا سقطت رأس أول قاتل
سياسى تحت ضغط جبل الجلاد •

وجاء عام ١٩١٢ فشهدت هذه القاعة من جديد المحاكمة فى قضية
مؤامرة سياسية اتهم فيها امام واكد واثنان من الشبان • بأنهم فى يوم
أول يونيه سنة ١٩١٢ اتفقوا على ارتكاب جنائية القتل العمد مع سبق
الاصرار على شخص كل من سمو الخديوى (عباس باشا حلمى) وعطوفة
محمد سعيد باشا رئيس مجلس النظار وجناب اللورد كتشنر المعتمد
البريطانى وسعادة محمد مجدى باشا وجناب المستر دلبراو غلو
المستشارين بمحكمة الاستئناف الأهلية — وعرفت هذه القضية بمؤامرة
شبرا •

قضت المحكمة على امام واكد بالأشغال الشاقة خمسة عشر عاما
وعلى زميليه بالسجن مدة خمسة عشر عاما • وفيها طبقت محكمة الجنائيات
لأول مرة المادة (٤٧ مكرر الخاصة بالاتفاقات الجنائية) وهى التى
وضعت عقب حادثة الوردانى • وفى هذه القضية عرفت مصر لأول مرة
نظام شاهد الملك فى شخص أحد الشهود الذين سمعوا فى القضية • وكان
بطل الاتهام فى مؤامرة شبرا هو « جورج بك فليبيدس » « أمور ضبط
العاصمة — الرجل الذى جمع بين أصابعه كل خيوط التحقيقات السياسية
التي جرت قبل الحرب العظمى وفى بدايتها • فلما أعلنت الحرب وأعلنت
معهما الأحكام العسكرية البريطانية فى البلاد كان هو الأمين على تنفيذ كثير
من الاجراءات التى رأت السلطة العسكرية أن تتخذها ضد بعض الأفراد
أو الهيئات •

ووقف جورج فليبيديس أثناء المحاكمة في قضية شبرا يؤكد للمحكمة ادانة المتهمين وبناء على ما قال انه رآه بعينه وسمعه بأذنيه أخذ المتهمون من قفص الاتهام الى غيايات السجن •

وشاء القدر أن تشهد هذه القاعة بعد ذلك « جورج فليبيديس بك » متهما وأن ينزل هو وزوجته بعد خمس سنوات ضيفين في نفس القفص ، فقد اتهمته النيابة العمومية بأنه أساء استعمال السلطة التي كانت في يده ، وخان أمانة رؤسائه ومؤتمنيه واتجر بما كان بيده من نفوذ واستغله لمنفعته المادية ، واتهمته هو وزوجته بالرشوة • ونظرا لخطورة المركز الذي كان يشغله وخطورة التهم التي نسبت اليه رأت الحكومة لأول مرة بعد ما نقل القانون الى النيابة العمومية « أن يقوم بالتحقيق وكان يمثل الاتهام أمامه حضرة « محمد بك زكى الأبراشي » •

وتولى الدفاع عن المتهمين الأساتذة : عبد العزيز بك فهمي (الذي شهد التحقيق فقط) و ابراهيم بك الهلباوى ، ومقص بك حنا •

وتابع الرأى العام والسلطات — باهتمام وعناية — اجراءات هذه القضية حتى صدر الحكم فيها أخيرا بادانة فليبيديس بك •

ورزحت البلاد تحت أعباء الأحكام العرفية البريطانية ، وجاءت معها محاكمها وقضاتها وقوانينها واجراءاتها • واختيرت هذه القاعة مكانا لعقد جلسات المحاكم العسكرية في القضايا الكبرى ، فعقدت فيها محاكمة المتهمين بمخالفة منشورات التموين •

وعقدت فيها في أواخر عام ١٩١٥ المحكمة العسكرية محاكمة محمد شمس الدين ومحمد نجيب الهلباوى اللذان اتهما بالاعتداء على حياة المغفور له السلطان حسين كامل والشروع في قتله في مدينة الاسكندرية •

وانتهت الحرب الكبرى ولم تنته الأحكام العسكرية ، بل ظلت مفروضة على البلاد • وشكل سعد زغول باشا الوفد المصرى فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ وهى لاتزال مبسطة الظل وقبض على سعد وصحبه فى ٨ مارس سنة ١٩١٩ فثارت البلاد ثورتها الكبرى • ثم أفرج عنهم وسافر الوفد الى باريس تاركا خلفه لجنة الوفد المركزية وسكرتيرها عبد الرحمن بك فهمى وتقع حوادث الاعتداء على حياة بعض الرعايا البريطانيين ، فيتهم عبد الرحمن بك وكثيرون من الشبان الوفديين : محامين وطلبة ، بالاشتراك فى ارتكابها ويقبض عليهم ثم يفرج عنهم ، ثم يعاد القبض عليهم ويحقق ضدهم فى الوقت الذى تجرى فيه مفاوضات غير رسمية بين الوفد المصرى ولجنة لورد ملربندرة •

وترفع الدعوى العمومية ويقع الاختيار على نفس هذه القاعة التاريخية لتشهد هذه المحاكمة العسكرية الكبرى • ويجلس على منصة القضاء فى هذه القاعة قضاة المحكمة العسكرية ويقوم القاضى « ثورب » بوظيفة نائب الأحكام العسكرية • ويتولى الدفاع فى القضية الأستاذ ديفونشير وطائفة من كبار المحامين المصريين • فى مقدمتهم مصطفى النحاس بك ، ومرقس حنا بك ويعهد الى أحد كبار المحامين بلندره بالدفاع فيأتى الى مصر فى طائرة مستر متشل انس والميجور هيدلى ويشتركان فى الدفاع •

وصدر الحكم بعد ذلك بادانة كثير من المتهمين فأودعوا السجون المصرية وظلوا بها نحو أربع سنوات حتى أفرج عنهم سعد زغول باشا رئيس الوزارة المصرية فى ٩ فبراير سنة ١٩٢٤ •

وتشكل وزارة عدلى باشا فى مارس سنة ١٩٢١ ويعود سعد من باريس • وتختلف الوزارة والوفد على اجراءات المفاوضات ويسافر عدلى ومعه وفد حكومى للمفاوضة مع الحكومة الانجليزية ثم تقطع المفاوضات ويعود الى مصر — وتتحرك مصر من جديد للقيام فى وجه

الانجليز ففتحرك السلطات العسكرية للبطش • وينفى سعد وبعض زملائه الى جزائر سيشل ، وتعلن انجلترا بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ أن مصر أصبحت دولة مستقلة • ويعاد تشكيل الوفد المصرى من جديد من حضرات حمد الباسل باشا ، ويصا واصف بك ، واصف بطرس غالى بك ، مرقس حنا بك ، محمد علوى الجزار بك ، مراد انشريعى بك ، جورج خياط بك •

وتأتى الى مصر الأخبار السيئة عن صحة سعد فتثور الخواطر، ويعلن الوفد المصرى نداء يقيم فيه الانجليز والحكومة المصرية بالعمل على القضاء على حياة سعد • فتحرك السلطات العسكرية للقبض عليهم • وتسوقهم الى نفس القاعة وتنزلهم نفس القفص بتهمة الاعتداء والتعريض ضد النظام الحاضر • ويقف حمد واخوانه ويدعون الى الدفاع عن أنفسهم فلا يستجيبون ويواجهون فى كبرياء وعزة الرجال الذين أجلستهم الساطة العسكرية فوق منصة القضاة المصريين قائلين : « لو أن المحكمة تأخذ بتصريح حكومتها أو تعتبره تصريحاً جدياً وهو أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة لكان حقاً عليها أن تعلن من تلقاء نفسها عدم اختصاصها بمحاكمتنا • لكم أن تحكموا علينا وليس لكم أن تحكمونا • ونحن لا نعرف مهيمنة علينا غير ضمائرنا وتوكيل الأمة التى شرفتنا بهوقوانين بلادنا ومحاكمتنا • فمهما تكن العقوبة التى يروقم أن تشرفونا بها فاننا سنقابلها بالسورور والفخار لأنها خطوة الى الأمام فى طريق المجد الذى تسير فيه مصر الى مصيرها الخالد » •

وتواجه المحكمة هذا التحدى الجرى بالحكم بالاعدام ، فيهدف المحكوم عليهم لمصر بالحياة قبل أن يسمعو تعديل الحكم الى سبع سنوات وخمسة آلاف جنيه غرامة •

والغيت الأحكام العسكرية وأعلن الدستور ، وعاد سعد وأصحابه

من المنفى وخرجوا من السجون ، وشكل سعد وزارته فشهدت هذه القاعة من جديد طائفة من المحاكمات الصحفية •

وحادث سعد مستر رامزى مكدونلد بلندرة وقطعت المصادقات ، وعاد سعد الى مصر وافتتح الدورة الثانية للبرلمان • ولم يكذ يمضى على افتتاحها أيام معدودات حتى اكفهر الجو وثار العواصف ووقعت « حادثة السردار » •

ففى ظهر يوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ بينما كان المغفور له «السيرلى ستاك باشا سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام » عائدا من وزارة الحربية أطلقت عليه عدة عبارات نارية قرب وزارة المعارف العمومية فنقل الى دار المندوب السامى حيث توفى فى اليوم التالى •

وقعت هذه الحادثة فى جو لم يكن لينقصه الا شرارة لتثير أكبر احتكاك بين الحكومة الوفدية والحكومة الانجليزية •

ففى مساء اليوم التالى لوقوع الحادث ركب الماريشال اللنبى فى موكب عسكري من دار المندوب السامى الى دار رئاسة الحكومة المصرية — وهناك سلم باسم حكومته انذارا رسميا الى « سعد زغلول باشا رئيس الحكومة » : طلبت فيه الحكومة البريطانية التحقيق مع المسؤولين عن جنائية القتل من غير نظر الى أشخاصهم ومحاكمة المجرمين أيا كانوا وأيا كان سنهم • واستقال سعد زغلول وشكلت وزارة جديدة • وسحب الجيش المصرى من السودان • وعطلت الحياة النيابية •

وفى خلال ذلك تولى « محمد طاهر نور باشا » النائب العام التحقيق فى القضية وقبضت السلطات العسكرية على بعض النواب الوفديين البارزين ثم سلمتهم للسلطات المصرية ، وجرى التحقيق • وأخيرا أصدرت النيابة قرارا باتهام عبد الفتاح غنايت الطالب بمدرسة الحقوق وعهد الحميد غنايت الطالب بمدرسة المعلمين العليا ، وشفيق منصور

المحامى ، ومحمود أحمد اسماعيل الموظف بوزارة الأوقاف ، وخمسة من العمال بقتل السرى ستاك باشا مع سبق الإصرار •

وأحيل المتهمون إلى محكمة الجنايات المشكلة من المغفور لهم أحمد عرفان باشا رئيسا وجناب المستر كيرشو ومحمد مظفر بك المستشارين ، وسعادة محمد ظاهر نور باشا النائب اعمومى •

وبجلسة ٧ يونية سنة ١٩٢٥ أصدرت المحكمة حكمها حضوريا على كل من عبد الفتاح عنایت وعبد الحميد عنایت وأبراهيم موسى ومحمود راشد وعلى إبراهيم محمد وراغب حسن وشفيق منصور ومحمود أحمد اسماعيل بالاعدام ، وعلى محمود صالح محمود بالحبس مع الشغل لمدة سنتين •

ونفذ هذا الحكم فى شهر أغسطس فى المحكوم عليهم عدا عبد الحميد عنایت الذى استبدل بحكم الاعدام الصادر ضده حكم الأشغال الشاقة المؤبدة •

وفزل الستار على هذه القاعة عقب محاكمة المتهمين بمقتل السردار ثم رفع من جديد بعد عام لتشهد هذه القاعة محاكمة أكبر منها خطرا وأجل شأنا — تلك هى قضية « الاغتيالات السياسية » • وهى القضية التى تمخضت عنها التحقيقات فى قضية مقتل السردار • وكان شفيق منصور صلة وصل بين القضيتين وكانت اعترافاته وتقاريره حجر زاوية فى التحقيقات الجديدة • وعلى أساس هذه الاعترافات اتهمت النيابة العمومية الدكتور أحمد ماهر وزير المعارف فى وزارة سعد زغلول باشا ، والأستاذ محمود فهمى النقراشى وكيل وزارة الداخلية بها ، والأستاذ حسن كامل الشيشينى المدرس بمدرسة التجارة العليا ، والأستاذ عبد الحليم الببلى سكرتير المفوضية المصرية بأنقرة وبعض العمال بارتكاب حوادث اغتيال الرعايا الانجليز وبعض المصريين •

واستأثرت القضية باهتمام الجمهور والساسة في مصر وبريطانيا ،
لما نبض المتهمين من مركز خطير ولخطورة الملبسات التي أحاطت
بأقضية والنتائج السياسية التي تقترتب على الفصل فيها .

ورئى ألا تتظر القضية أمام الدائرة التي فصلت في قضية مقتل
المردار . ولم يخل تشكيل الدائرة الجديدة من صعوبات استدعت عقد
الجمعية العمومية لمستشارى محكمة الاستئناف ، وأخيرا شكلت المحكمة
من جانب المستر كيرشو رئيسا وكامل بك ابراهيم وعلى بك عزت
مستشارين ، وجلس في كرسى النيابة حضرة مصطفى بك حنفى ، وتولى
الدفاع في القضية طائفة من كبار المحامين في مقدمتهم مصطفى النحاس
باشا ، مرقس حنا باشا ، محمد نجيب الغرابلى باشا ، مكرم عبيد ،
أحمد لطفى بك .

وأصبحت هذه القاعة وأصبح قفص الاتهام فيها ملتقى أنظار
الرأى العام المصرى والبريطانى . ولم يكن في فضاء القاعة ما يتسع لكل
من يرغبون في شهود المحاكمة فحدد عدد من يسمح لهم بدخول القاعة ،
وأقيمت الحواجز والموانع حولها وأصبح ما يدور فيها ويجرى في ساحتها
يحدون في الصحف ويظهر الى الخارج .

وقد كانت جهود المحامين في هذه القضية نساعة فقد بلغت صحف
التحقيق فيها نيفا وثلاثة آلاف عدا الملاحقات . وتوفر المحامون على
دراستها واستيعابها قبل بدء المحاكمة .

وكان استجواب الشهود آيات من الفن القضائى . ثم جاء دور
الدفاع وترافع المحامون فكانت مرافعاتهم صورة حية للبيان الساحر
والمنطق السليم . كانت مرافعاتهم من وحي قلوبهم وعقائدهم . وكان
الكثيرون منهم تربطهم بالمتهمين روابط أعظم توثقا من الصداقة . ودافع
المحامون عن سمو الحركة الوطنية وتجردها عن النوايا الاجرامية .

فكانوا في دفاعهم ملهمين موفقين • وفي الوقت الذي كانت ألسنتهم تقيض بالسحر حلالا يبتذل فوق منصة القضاء كانت عيونهم وقلوبهم مشدودة الى القفص حيث وقف رجال كرام عليهم وأعزاء على مصر ، فكانت نبراتهم من عباراتهم وأشد تأثيرا •

وتوفى المرحوم أحمد بك لطفى بعد صدور الحكم بقليل ، فكانت قضية الاغتيالات السياسية آخر قضية كبرى ترافع فيها وكانت آخر عهده بهذه القاعة •

وجرت المحاكمة داخل هذه القاعة • وكان يجري في نفس الوقت خارجها صراع انتخابي بين الوفد ومن ائتلف معه من الأحزاب وبين حزب الاتحاد • وكان الواقفون على ما يجري خلف ستار الحوادث السياسية يدركون مقدار ما بين الحكم الذي يخرج من داخل هذه القاعة والحكم الذي يخرج من صناديق الانتخاب من صلة وتلازم • وشاءت الأقدار أن يصدر حكم القضاة وحكم الناضحين في وقت واحد : أصدر القضاة حكمهم بعد دفاع دام شهرا ببراءة خمسة من المتهمين هم الدكتور أحمد ماهر والأستاذ محمود فهمي النقراشي والأستاذ حسن كامل الشيشيني والأستاذ عبد الحليم البيلي والحاج أحمد جاد الله • وصدر حكم الناضحين لصالح الائتلاف ومرشحيه •

واهترت البلاد طربا لهذه النتائج كلها وشرع الساسة يتبادلون الرأي في استثمارها وأخيرا تعكر الجو حين خرج جناب المستر كيرشو على تقاليد القضاء فكتب الى وزير الحقانية يعلن أنه كان معارضا في براءة الدكتور أحمد ماهر والحاج أحمد جاد الله وقال انه اعتبر من واجبه الخروج على سر المداولة فتوجه بعد اصدار الحكم الى دار المنسوب السامي وأطلع فخامته على رأيه باعتباره حاميا للأجانب •

وعقب وصول هذا الخطاب استقالت الوزارة • وشكلت بعد ذلك

وزارة حضرة صاحب الدولة عدلى يكن باشا • فتولى المرحوم أحمد زكى أبو السعود باشا وزير انحقانية فيها الرد على الخطاب ، واستقال جناب المستر كيرشو •

وهكذا لم تنته قضية الاغتيالات السياسية بالحكم الذى صدر فيها، بل كانت لها ذيول ، ولم ينزل الستار على القاعة التى كانت ميدانا للمعارك القضائية الا ليرفع فى ميدان آخر ليس هنا مجال الكلام عنه •

وتمتعت البلاد بفترة استقرار دامت أكثر من عامين فى ظل ائتلاف الوفد والأحزاب السياسية الكبرى ، ثم توفى سعد وبعد وفاته بقليل أسندت رئاسة الحكومة الى حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا الذى خلفه فى رئاسة الوفد ولم تدم وزارته طويلا حتى تصدع الائتلاف وتكرر الجو مرة أخرى ، فاختلفت الأحرار الدستوريون والاتصاديون مع الوفد •

وقبل أن تسند رئاسة الحكومة الى حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا كان قد وكل هو والأستاذ ويصا واصف بك وكيل مجلس النواب والأستاذ النائب جعفر فخرى بك المحامى عن الأميرة نوجوان هانم والدة الأمير أحمد سيف الدين للمطالبة بزيادة النفقة المقررة له أمام مجلس البلاط ولرد أملاكه اليه بعد رفع الحجر ، وحررت وثائق بشأن الاعتبار •

ثم انتخب الأستاذ ويصا واصف رئيسا لمجلس النواب فى الوقت الذى أسندت فيه رئاسة الحكومة الى حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا ففتحيا عن القضية •

وظلعت الصحف المتكلمة بلسان حزبى الدستوريين والاتحاد فجأة على الناس بصورة وثائق الاتفاق مع ترجمة خطاب قيل ان جعفر بك فخرى أرسله الى محمود شوكت بك وكيل الأميرة نوجوان هانم • وزعمت

أن رئيس الوزارة ورئيس مجلس النواب وزميلهما استغلوا نفوذهم فأبلغ رئيس الوزارة الأمر الى النيابة التي تولت التحقيق ، ثم أقيلت الوزارة • وسارت النيابة في التحقيق ضد حضرات المحامين • وقدمتهم الى مجلس تأديب المحامين متهمين بعدة تهم من بينها أنهم استخدموا نفوذهم وتقاضوا أتعابا باهظة لا تتناسب مع عملهم •

واختيرت نفس هذه القاعة مكانا لعقد مجلس التأديب للنظر في هذه القضية اتي عرفت « بقضية الوثائق » •

وعرضت القضية على مجلس تأديب المحامين الذي عقد برياسة حضرة صاحب المعالي المرحوم حسين درويش باشا وكيل المحكمة وحضور حضرات أصحاب العزة عبد الحكيم عسكر بك ومحمود سامي بك ومحمد بهي الدين بركات بك مستشارين ، والمرحوم الأستاذ عبد الخالق عطية أفندي عضو النقابة وأحمد شرف الدين بك رئيس نيابة الاستئناف • وتولى الدفاع في القضية حضرات الأساتذة محمد نجيب انغرابلي باشا ، محمود بسيوني بك ، كامل صدقي بك ، محمد يوسف بك ، حسن صبرى بك ، ومكرم عبيد •

وكان لجوانب هذه القاعة التاريخية جاذبية خاصة تجذب اليها كل قضية سياسية ، فاخترت من جديد مكانا لعقد جلسات مجلس التأديب الذي شكل للنظر في هذه القضية الجديدة • وجلس قضاة مجلس التأديب وجلس أمامهم في حرم المحكمة حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا والأستاذ ويصا واصف بك والأستاذ جعفر بك فخري • واحتل المحامون المترافعون ومن عاونهم في اعداد المرافعات المقاعد الأولى ، واستغرق نظر القضية عدة جلسات • وأخيرا أصدرت المحكمة حكمها في يوم ٧ فبراير سنة ١٩٢٩ ببراءة حضرات المحامين مما نسب اليهم جميعه •

وقد أثارت هذه القضية اهتمام الهيئات السياسية بمصر وإنجلترا ،

كما أنها استرعت اهتمام الرأى العام الذى تابع بشغف عظيم جميع المراحل التى قطعتها من يوم أن بدىء فى تحقيقها فى شهر يوليه سنة ١٩٢٨ أى أن تم انفصل فيها •

وهكذا ظهرت المحاماة فى مصر بريئة مما نسب اليها ، وثبت أن أعلام المحامين فى مصر قد حافظوا على خير تقاليد المهنة المعروفة فى مصر والخارج ، ولم يجد مجلس التأديب الأعلى مجالا لنقد تصرفاتهم •

ونفذت من جديد أحكام الدستور فى أواخر عام ١٩٢٩ وعادت الحياة النيابية • ولكن لم يكتب لها الحياة طويلا : فحل البرلمان وألغى الدستور وقامت بالحكم وزارة جديدة - استصدرت دستورا جديدا ودعت الى انتخابات قاطعها الوفد والأحرار الدستوريون ، وجرت قبيل الانتخابات وخلالها حوادث دموية • واضطرابات شديدة شغلت الرأى العام مدة طويلة انتهت الى قضايا ومحاكمات وجدت منفذا الى هذه القاعة التى تنتظر كل المحاكمات السياسية الكبرى فنظرت فيها « قضية العنابر » وقضية « خطابات المزورة » •

وقد شهدت القاعة أثناء نظر القضية الأخيرة تحولات فجائية مثيرة مدهشة • وكان التحقيق الذى أجرته المحكمة - وكانت مشكلة من حضرات محمود بك غالب رئيسا ومصطفى بك حنفى وأحمد بك نظيف مستشارين - دقيقا شاملا • أحاط بالحوادث والأشخاص • وكان من نتائجها أن انتقل بعض الأشخاص من مقاعد الشهود الى قفص الاتهام وقضى عليهم بالعقوبة • ، اذ ثبت أنهم هم الذين زوروا الخطابات التى نشرتها احدى الصحف على أنها مكتوبة بتوقيع بعض أنصار حزب الشعب وبعض موظفى الادارة •

وأخيرا تهيأت هذه القاعة لشهد آخر المحاكمات السياسية الكبرى التى جرت فيها فى الخمسين عاما الماضية ، فقد توالى حوادث القاء القنابل

في أوائل عهد حكم حضرة صاحب الدولة اسماعيل صدقى باشا في ظروف
روائية مدهشة • ولم يقع فيها اعتداء على الأرواح • ولم يضبط أحد
وقت ارتكاب الحوادث • وقبض على الدكتور نجيب اسكندر بتمهة تموين
هذه الجماعة بالمال والاشترك معها في ارتكاب الحوادث وتحريضها على
ارتكابها •

وجاءت القضية أمام الدائرة التى نظرت قضية الخطابات المزورة ،
وبعد أن نظرتها عدة جلسات اجتمع لدى رئيسها من الأسباب ما حمّله
على التتحي عن نظرها ، فنظرتها الدائرة المشكلة برئاسة المرحوم محمد
بك نور المستشار •

واستغرق نظر القضية عدة أشهر ، ولم تخل جلساتها من زوابع
ومفاجآت ومواقف مثيرة ، وأخيرا عصف العواصف وانسحب كثير من
المحاميين فى القضية وعلى رأسهم الأستاذ مكرم عبيد • وكان لانسحابهم
آثار وذبول • واستأنفت المحكمة نظر القضية وقضت فيها ببراءة الدكتور
نجيب اسكندر وبعض المتهمين •

وكانت آخر قضية سياسية شهدتها هذه القاعة أن احتفل بانقضاء
خمسین عاما على انشاء المحاكم الأهلية •

وهكذا كتب لهذه القاعة أن تمر بها مواكب الحوادث السياسية
الكبرى التى شهدتها مصر خلال أكثر من ربع قرن ، فكان لكل حادث
فى أركانها صدی وعلى جذرانها ظلا — توالى عليها صور الحوادث
وألوانها ومشت فيها مواكب الحياة السياسية والاجتماعية التى لبست
لباس الجريمة أو شبه لذوى الرأى أنها لبسته وأصبح قفصها قنطرة
تعبر عليها الحوادث والرجال تمشى من التهم على أسنة وحراب •

هنا وفى هذه القاعة جلس قضاة مصر نحو أكثر من ربع قرن أو يزيد

يحكمون باسم ولئى الأمر فى القضايا السياسية فكانت كلمتهم فصل الخطاب •

هنا وأمام منصة القضاء سكن مد الحوادث وانحصر طغيانها ،
وهذأت الشهوات •

هنا لم يعرف القضاء المصرى شيئا ولا أحزابا ولا حاكما ولا
محكما ، وإنما عرف مصريين يقيم بينهم العدل ويرفع مناره ، وينشر
لواء القانون ويعلى جداره ، فكان للمصريين فى ليل الحوادث واضطرابها
الملجأ الأمين والمنار الهادى •

(عاشر) « المرافعات فى مصر »

وجد حسين صقر والقانى والباجورى وغيرهم من بناء المجد فى
زمن كانت المحاماة فيه مجرد اجتهد •

وثمة نموذج من هذا المجد الغابر تجده فى شخص شيخ الجماعة
وامام الحنابلة الأستاذ الأكبر ابراهيم الهلباوى بك •

من ذا يستطيع الى اليوم تحدى بديهته الوثابة ولغته الفكهة
اللاذعة وسخره القتال •

ومن جبابرة ذلك العصر أيضا : أحمد لطفى بلغته السهلة الممتعة •

وعبد العزيز قهفى بقلمه ولسانه الجبارين يتصرفان فى المعنى وفى
المبنى كما يريد ويشتهى • وهيب دوس صاحب المنطق الجزل والديباجة
الرشيقة والبيان المتدفق فى غير صنعة ولا تريد • ومرقس السذى
لا يلحق ولا يدانى • مرقس الجذاب الأخاذ ، المتغافل بسامعه الى
الأعماق ، السامى به الى السبع الطباق •

كل هؤلاء لا يستحق أن يدرس دراسة خاصة ، وأن يقدمه الى الناس قلم غير هذا القلم وأن توقف عاينه جهود لا تستطيعها هذه العجالة .

وفي دراسة هؤلاء الفحول دراسة لناحية مجيدة من أدبنا القومى يجب ألا تهمل .

وحسبك منا هنا الاشارة الى آثارهم فى مختلف ألوان الكلام القضائى مما لا يحصىه محص .

كما أن من جبابرة المرافعة فى هذا الزمن نقيب المحامين الحالى الأستاذ أحمد الخواجة ، راقبه وهو يترافع وتؤكد أنك ستتعلم منه الكثير حين يبدأ وحين ينطلق وحين يزمجر وحين يختم مرافعته بأسلوب سليم صحيح قوى جذاب .

الفصل الثاني

عناصر المرافعة

تمهيد :

المرافعة أو الخطبة القضائية هي التي تلقى في ساحة المحاكم أمام القضاء طلبا للحكم في أمر ما ، وهي باختلاف المحاكم التي تلقى بها ، وموقف المحامي أو وكيل النيابة — يختلف باختلاف القضية التي يتكلم من حيث نوعيتها وأهميتها والأحداث التي بنيت عليها •

وقد بين الرسول (ﷺ) أهمية هذا النوع في قوله لنفر من الأنصار اختصموا اليه (انما أنا بشر مثلكم وأنتم تختصمون الي وقد يكون بعضكم ألحن^(١) بحجته من الآخر فأحكم له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له شيء من حق أخيه فانما اقتطع له قطعة من نار) •

وبين هذا الحديث أن المحامي اللبق يستطيع أن يخدع القاضي وأن يلبس الباطل ثوب الحق •

والقضاة الأذكياء يحرصون على ألا يخدعوا ببلاغة الخطيب وأن يبحثوا القضايا التي أمامهم من الوجهة القانونية البحتة ، والخطيب التفتيشي رغم هذا لا يستغنى عن إثارة عواطف القضاة ، وبعبارة أخرى أمام هذا الخطيب لنجاحه أمران : الأول والأهم هو البحث القانوني وتطبيق قضيته عليه •

الأمر الثاني وهو أمر مساعد وهو جذب عواطف القضاة نحو

ما يدمو اليه • وهذا الأمر الآخر وان كان محدود الأثر لا يخلو من أهمية • لأن القانون ذو مرونة ومرونته متروكة للقضاة • مثلاً نجد العقوبة في جريمة ما غرامة لا تقل عن خمسين جنيها وسجن شهر أو إحدى العقوبتين فالغرامة قد تؤخذ في أضيق حدودها وقد يكتفى بها وحدها وقد تزيد عن حددها الأدنى ويضم إليها الحبس ، ومن هنا نجد أن عاطفة القاضي لها أثر •

ولكن الاستعطف يأتي من ناحية توهين المستند والتحذير من عقوبة شخص برىء أو هو أقرب إلى البراءة وأن القانون يفضل براءة الجانى أو عشرات الجناة على أن يعاقب شخص برىء بأدنى عقوبة •

عناصر نجاح المرافعة القضائية

وأهم ما تعتمد عليه الخطبة القضائية :

١ — درس القضية درساً عميقاً شاملاً لا يغيب عن المحامى أى جزء منها •

٢ — وضعها في الصورة القانونية الملائمة •

٣ — أن تصاغ الخطبة في صورة منطقية متسلسلة •

٤ — جودة الأسلوب وقوة التعبير • وكبار المحامين يطبعون خطبهم ليقرأها من لم يشهد القائها من المحامين الآخرين والخطباء •

٥ — محاولات تجريح الشاهد أو التماس فارق بسيط بين أقوال الشهود ثم يطيل في خطبته لاقتناع موكله أنه بذل جهوداً •

والخطبة القضائية لها مدارسها ورجالها • ويجب أن نتذكر وصية عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى حين ولاء القضاء ، وهي رسالة

مشهورة مذكورة في أكثر الكتب الأدبية والتاريخية ، ويجب ألا نغفلها ولا يغفلها دارس سواء كان محاميا أو قاضيا أو خطيبا^(١) .

وسوف نعرض لموضوع عناصر المرافعة في ثلاثة مطالب على أن نعرض في المطالب الأول لافتتاح المرافعة وفي المطالب الثاني نتناول موضوع المرافعة أما المطالب الثالث فيعالج ختام المرافعة .

المطلب الأول

افتتاح المرافعة

يجب افتتاح المرافعة بمقدمة مثيرة وبشيء يأسر الانتباه في الحال والخطيب الذي يتمتع بالذكاء يحفظ المقدمة أولا والتي يفضل في هذا الزمان أن تكون قصيرة كلائحة الاعلان لأن ذلك يتطابق مع مزاج القاضى في هذا العصر الذى يجب أن يستخاض الحقائق ويجب ألا يبدأ المحامى مرافعته بالاعتذار بأنه لا يجيد المرافعة فهذا خطأ جسيم والأفضل عدم الاستمرار لأنه ليست هناك فائدة من الاستمرار .

ولكن قد يبدأ المحامون مرافعاتهم بتقديم مثال محدد واضح أو الافتتاح بسؤال عام محدد الاجابة عليه تنطبق على القضية كما أن البعض يفتتح المرافعة افتتاحا طارئا بحادثة مثيرة متعلقة بالقضية . ومن المفيد أن يلتقط المترافع أنفاسه في البداية لكي يزول التوتر العصبى .

والمقدمة هى أول ما يطرق سمع الناس فاذا كانت جذابة مشوقة أنجحت المحامى وجعلت القضاة يقبلون عليه واقبالهم عليه يشد عزمه

(١) انظر د/ عبد الجليل شلبى — الخطابة واعداد الخطيب — ط ٥

سنة ١٩٩١ ص ١٠٢ .

ويثير فيه النشاط والحمية وهو في جملتها عامل تهيؤ للسامعين ثم يبدأ التسلسل إلى موضوعه تدريجياً •

والمحامى فى المحكمة ليس بحاجة الى شد انتباه القضاة بهذا الشكل لأنهم تلقائياً متجهون نحوه مصغون لكل ما يقول وهو مع ذلك فى القضايا الكبيرة مضطر الى مقدمة تطول والغرض منها هو التهيئة للموضوع ولبيان أنه يدافع عن الحق لا لأنه منوب من طرف معين • ويقول :

نحن لا نقف اليوم أمام عدالتكم لا لندافع عن هذا المتهم بل لندافع أصلاً عن الحق ولا نقف ضد شخص بعينه ونهاجمه بقدر ما نقف ضد الظلم •

مميزات وأسلوب المقدمة :

١ — أن تكون مشوقة ذات قدرة على شد انتباه السامعين على نحو ما سبق « عنصر التشويق » •

٢ — لكي يصل المحامى الى هذه الدرجة يبدأ بالفاظ واضحة ومفهومة وأفكار قريبة لا تعوز الى تفكير « حسن البداية » •

٣ — لا بد أن تكون شديدة الصلة بموضوع المرافعة فلا يكون بينها وبين المرافعة حين ينتقل اليها فجوة ، بل تكون امتداد للمقدمة وبذلك يتم ربط الصلة بين المقدمة وموضوع المرافعة •

٤ — من ناحية طول المقدمة أو قصرها يجب أن تكون غير مسرفة فى أى من الجانبين لأنها اذا كانت موجزة جداً لم يكن ثم مقدمة واذا كانت طويلة جداً ذهبت فائدتها أيضاً لأنها تستنفذ قوة المترافع •

وَن أمثلة افتتاح المرافعة ما يلي :

مثال لافتتاحية مرافعة :

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد النبي الأُمى المبعوث رحمة للعالمين ، فان خير بداية دائما
هى البدء بحمد الله جلّت قدرته على سابغ فضله ونعمته وفائض احسانه
ورعايته عليه عز وجل اعتمادا وبه سبحانه وتعالى اعترازنا •

وبعد :

فاننى بعد أن استغرقت فى قراءة أوراق تلك القضية وبعد أن
انتهيت من قراءتها تماما شعرت بدوار فى رأسى وكاد أن يشل تفكيرى
وتساءلات وصرخت من أعماقى :

ألهذا الحد يمكن أن يصل ظلم الانسان لأخيه الانسان من
أجل المال ؟

ألهذا الحد يصل ظلم الانسان لأخيه الانسان من أجل الحقد ؟

ألهذا الحد يصل ظلم الانسان لأخيه الانسان من أجل الأرض ؟

وانتفضت من أعماقى وتمنيت لو دافعت عن هذا المتهم ليس أمام
ساحات القضاء الشريفة بل تمنيت لو دافعت عنه فى ساحات القتال
الشرسة التى خاضها مع أناس لا يعرفون طريقا الا الظلم والعُدوان •
وسوف ترون عدالتكم وبأنفسكم أن ما حدث فى هذه القضية من
أغرب القضايا وتفوق بحق حكايات الخيال المسطورة •

حضرات المستشارين :

لا يخفى على عدالتكم وكما تعلمنا فى محرابكم هذا المقدس أن

لكل دعوى شقين لعل الشق الأول هو الواقع أما الشق الثانى فهو القانون •

وفي الحقيقة فإن المتهم فى هذه القضية يعتبر مجنيا عليه كما أن المبنى عاينه هو الجانى الحقيقى الذى يحاول الايقاع بذلك الصيد الثمين •

ووقائع هذه القضية تقود بأكملها الى براءة موكلى من التهمة المنسوبة اليه • واسمحوا لى يا حضرات المستشارين أن يتنوع دفاعى بخصوص معينة وقائع تلك الدعوى الى النقاط الثلاثة الآتية :

ومن المقدمات المشهورة من كتاب الله تعالى :

١ — « رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى وأحل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ... » •

صدق الله العظيم

٢ — « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقا بنبا فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » •

صدق الله العظيم

كما وقف أحد المدعين بالحق المدنى فى قضية قتل وقال :

من المعلوم أن المريض اذا أشرف على الهلاك أتوا له بأشهر الأطباء وأعلمهم وأغزهم وبالتالي فإن حضور أساطين القانون مع المتهم دليل دامع على ادانته وعلى اشرافه على الهلاك •

ولقد وقف أحد المحامين فى قضية كبيرة فقال : يا حضرات المستشارين :

نقف أمام هذه القضية موقف علماء المنطق من قضاياهم المنطقية انهم يضعون المقدمات ثم يرتبون عليها النتائج ، فإذا كانت مقدمات القضية سليمة مقطوعا بصحتها كانت النتيجة المرتبة عليها صحيحة مقطوعا بصحتها •

بهذه العبارات أشعر القضاة أن لديه أدلة مقطوعا بها لا تقبل أى طعن أو توهين وعقبها مباشرة أخذ فى شرح المقدمات التى كان يريدتها •

المطلب الثانى

موضوع المرافعة

يجب أن يكون (المترافع) سيد موضوعه ومن ثم فإن النجاح لا يكون الا عن طريق العمل الشاق والتخطيط الصائب والعمل التحضير الدائب كما أنه يجب محاولة تذكر التركيب الانشائى • ويجب ألا يبحث المترافع عن الكلمات ولكن يبحث فقط عن الحقيقة والفكرة عندئذ تتدفق الكلمات من دون أن تسعى اليها •

ويجب الترام قواعد التذكر وتحسين الذاكرة • عن طريق الانطباع — التكرار — ترابط الأفكار • حتى لا يتوه مبدأ أو فكرة فى المرافعة كما أنه يجب تحضير المرافعة قبل الجلسة بيومين على الأقل والافان الذاكرة لن تعمل الا بنصف قدرتها الممكنة • لأن العقل هو آلة ترابط الأفكار بشكل ما •

والمعاصر الأساسية للمرافعة الناجحة :

١ — ضرورة المثابرة •

٢ — قرار النجاح •

فلقد كتب شاب ينوى دراسة القانون الى لندون يطلب النصيحة فقال له :

إذا قررت أن تصبح محاميا تكون قد أنجزت نصف العمل تذكر دائما أن قرارك الذاتي للنجاح أهم بكثير من سائر الأشياء •

إذا تابعت الدراسة الذاتية لفن المرافعة بحماس وإخلاص وثابرت على التدريب فإنه يمكن أن تستيقظ ذات صباح جميل وتجد نفسك أحد أبرز المحامين في مدينتك •

وإذا أردت أن تكون محاميا واثقا من نفسك فإنك ستصبح واثقا من نفسك لكن يجب أن ترغب في ذلك (٢) •

ولكن يجب على كل شخص أن يقوم بتفجير المزايا الكامنة في أعماقه للتغلب على الخوف وكسب الثقة بالنفس والبعد عن الارتباك وفقد القدرة على التفكير تماما • ومن هنا يستطيع المحامي الناشئ أن يكون مترافعا بارعا بالتدريب الجاد ومن خلال المقدرة على القاء الخطابات • فعدم القدرة على المرافعة قد يضل المحامي الى وضع مخزى للغاية عندما تتضاعف دقات قلبه وتتلاشى بالتالى الأفكار من رأسه ويقف محرجا كالأخرس • ولا شك أن معالجة ذلك لا يكون الا عن

(٢) فن الخطابة — المرجع السابق — ص ٦٥ •

طريق تحضير المرافعة مسبقا والتدريب عليها باصرار ومن ثم يخف التوتر وتزداد الثقة بالنفس ويصبح خلال فترة محددة نجم الخطابة والمرافعة بين أقرانه وبالتالي فان كسب الثقة بالنفس والقدرة على التفكير بهدوء أثناء المرافعة ليس أمرا طبيعيا كما يتخيله البعض وهى ليست فقط مجرد موهبة وهبها الخالق لأفراد عديدين • بل ان كل فرد باستطاعته ان ينمى طاقته الكامنة اذا ما كانت لديه رغبة كاملة وذلك بالتدريب والممارسة التى تزيل الخوف وبفك عقدة اللسان حيث تكون الحالة العصبية للمترافع أساس ذلك ويلاحظ أن غالبية المترافعين ذوى الجدارة الحقيقية يتميزون بالعصبية •

فاذا ما تتبعت موضوعك باصرار وحيوية فما من شئ تحت السماء يستطيع أن يهزمك •

واعترف مرة خطيب قائلا : قبل دقيقتين من البدء بالخطاب أفضل لو أنى جلدت على أن أستهل خطابى لكن بعد دقيقتين من البدء أفضل أن أقتل على أن أتوقف (٣) •

ويجب ان تفكر مليا وتخطط لحديثك • وتعرف ما الذى ستقوله لأنك ان لم تفعل ذلك ستكون كالأعمى الذى يقود أعمى فى مثل تلك الظروف • ولذا يجب أن يكون المترافع واع لنفسه يشعر بالندم والخجل ان أهمل • ومن ثم لا تتكلم حتى تتأكد أن لديك ما تقوله •

والخطأ المميت الذى يقترفه الكثيرون هو اهمال تحضيرهم للمرافعة فهو خوض المعركة بعدة فاسدة أو بدون عدة على الاطلاق • ولذلك فان القواعد الصحيحة فى المرافعة هى اتباع ما يلى :

١ — التحضير :

(أ) لا تأخذ الأفكار المعلقة كما هي من الكتب والا ستكون المرافعة هزيلة وناقصة •

(ب) يجب ابلاغ الرسالة الحقيقية الى المستمعين •

(ج) يجب أن تستخرج المواد الخام من منجمك الخاص •

٢ — التفكير في التحضير عن طريق كتابة كل شيء عن الموضوع •

٣ — تحديد موضوع المرافعة : لماذا ، كيف ، متى ، وأين •

اجعل الحديث مثل كعكة مزينة بالأمثلة والقضايا العامة والعبارة الخلاقة •

٤ — سر الطاقة الاحتياطية :

المرافعات الرائعة يجب أن تتسلح بمادة احتياطية وافرة وفائضة فلا تكون كمن بدأ دون أن يعرف ما الذى سيقوله وانتهى من دون أن يعرف ما نطق به ولذلك فانه يجب حفظ بعض الأقوال المأثورة عن مرافعات كبار المحامين التي ظلت عبر العصور نبراسا يهتدى به في أشد الأوقات حلكة • ومن أمثلة ذلك :

— لو أنصفقتا !لنيابة العامة لما تركت هذا الشاهد •

— القضاء هو القانون النحى وبغيره يصبح القانونون فعلا مجردا عاجزا لا خير فيه ولذلك فنحن نمثلي احتراما للقضاء ونحيطه بالتقدير والمحبة •

— ولذلك فإن ضوء العدالة سوف يلمع دائما ويظهر كل ما هو دنس •

— وسوف يبرز فجر العدالة على الجميع •

كما يجب علاج العمود الفقري في القضية ولا تنتظر الى الضلوع والتركيز على مفتاح الحديث في الدعوى لأن : الحقيقة ليست بنت الجدل ولكنها بنت البحث الكريم •

ومن الأمثلة الانشائية أيضا :

— ان اللغم المضى في هذه القضية هو كذا أو كذا •

— وإذا كان المنطق هو ذلك الشيء الذي اذا عرض على العقول تلقته بالقبول • فإن هذه القضية قد خلت من أسباب ومبادئ المنطق •

— الضوء الساطع — الخلية الضوئية — الكائنات الضوئية في الدعوى •

— الصيد الثمين قد وقع في الفخ •

— ان وقوف المتهم لحظة واحدة في قفص الاتهام ينسيه ألف كتاب قرأه عن الحرية •

— ان الأدلة هي السلاح البتار في الدعوى ولذلك يجب عرض الأدلة تفصيلا •

« أقوال مأثورة في موضوع المرافعة »

ان الرياء يظل رياء وان قلم أظافره والغش يبقى غشا وان لانت ملامسه ، ولكن لا يصير صدقا وان لبس الحرير وسكن القصور ، والخداع لا يتحول انى أمانة اذا ركب القطار أو اعتلى المنطاد ، والجرائم لا تصير فضائل وان سارت بين المعاهد والفصول — والعبودية ستبقى عبودية ولو ظلت وجهها وغيرت ملابسها فهي عبودية ولو دعت نفسها حرية •

ويقولون لى اذا رأيت عبدا نائما فلا توقظه لئلا يحطم بالحرية فالناس عبيد الحياة وهى العبودية التى تجعل أيامهم مكتتفة بالذل والهوان واليهم مغمورة بالدموع والدماء وهذه هى الحقيقة ومن ثم فان الله الخالق سبحانه وتعالى قد جعل الحقيقة ذات أبواب عديدة يفتحها كل من يطرقتها بيد الايمان •

فماذا أقول فيمن استدان مالى ليشتري سيفا يبارزنى به ورجل فتك برجل آخر فقال الناس هذا قاتل ظالم — وعندما فتك به القاضى قال الناس هذا قاض عادل • ورجل حاول أن يسلب الدينير فقل الناس هذا لص شرير وعندما سلبه القاضى حياته قال الناس هذا قاض صالح ، أو امرأة خانت بعلمها فقال الناس هى زانية فاجرة ، واكن عندما سيرها عارية ورجمها على رؤوس الاشهاد قالوا هذا قاضى شريف فان سفك الدماء محرم ولكن من حله القاضى وسلب الأموال جريمة ، ولكن من جعل سلب الأرواح فضيلة • وان خيانة النساء قبيحة ولكن من جعل رجم الأجساد جميلا وان التقاليد الفاسدة تظلم الضعيف اذا سقط أما القوى فتسامحه وان المجرم لا يحاكمه المجرمون ، والكافر الشرير لا يدافع عن نفسه أمام الخطاه وأن الشفقة لا تجوز على المجرمين الضعفاء أما العدل فهو كل ما يطلبه الأبرياء وان المال مصدر شرور الانسان والحب ينبوع

السعادة والنور فالمنجمون لا يحولون مسار النجوم والسجين المظلوم الذى يستطيع أن يهدم جدران سجنه ولا يفعل يكون جباناً •

وجميل أن تعطى من يسألك ما هو فى حاجة اليه ، ولكن أجمل من ذلك أن تعطى من يسألك وأنت تعرف حاجته فان من يفتح يديه وقلبه للعطاء يكون له فرح بسعيه الى من يتقبل عطاياه والاهتداء اليه أعظم مما بالعطاء نفسه •

فليس القتل بريئاً من جريمة القتل ، ولا المسروق بلا لوم فى سرقة وكثيراً ما ذهب المجرم ضحية لمن وقع عليه جرمه فانما اللص صنيعه المحتكر ، والمجرم خليفة الظالم ، والقاتل صنيعه القتل ، والخبيث ثمرة العرديد ، والعقوب نتيجة الصارم •

وقد تغلح الحيلة فى البداية ولكنها تخيب فى النهاية والمتفائل ينظر الى الوردة ولا يرى أشواكها ، والمتشائم يحدق فى الأشواك ولا يرى الوردة ولذلك ابعدنى رباه عن لسان المرأة الأفعى التى لوثت الحياة • فالحياة امرأة تستحم بدموع عشاقها وتتعطر بدماء قتلاها ، وهى امرأة ترتدى بالأيام البيضاء المبطنة بالليلالى السوداء وهى أيضا امرأة ترضى بالقلب البشرى خليلاً وتأباه خليلاً • وهى أيضا امرأة فاسقة ولكنها جميلة ومن يرى فسقها يكره جمالها وليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب • وقد بنى الله الأجسام هياكل للأرواح فعلمنا أن نحافظ على هذه الهياكل لتبقى قوية فالحب كنز ثمين لا يودعه الله الا القلوب الكبيرة الحساسة •

كلمات خالدة (٤)

✽ ها هنا كنوز الحكمة ، فتعالوا أيها المحبون للحكمة ، نملاً أيدينا
من الدر والياقوت والجواهر •

✽ ها هنا ينابيع الحكمة ، فيها نشرب ونرتوى ، بحق أقول لكم
ما قال نبي الله عيسى بن مريم : ان من يشرب من هذا الماء لن يعطش
الى الأبد •

✽ أنظروا الى طيور السماء ، انها لا تزرع ولا تحصد ، ولا تجمع
الى مخازن ، وأبوكم السماوى يقوتها — الستم أنتم بالحرى أفضل منها —
ومن منكم اذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة ؟

✽ « لا تدينوا لى لا تدانوا لأنكم بالدينونة التى بها تدينون
تدانون وبالكيل الذى تكيلون يكال لكم » •

✽ ويقول الله فى سورة الاسراء :

(وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن
عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا
كريما • واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني
صغيرا ، ربكم أعلم بما فى نفوسكم ، ان تكونوا صالحين فانه كان للأوابين
غفورا • وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذرا ، واما
ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ، واما
تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ، ولا
تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ،

(٤) انظر كنوز المعرفة — السيد ابو ضيف المنى — مختارات من كلام
الحكام والانبيا — ١٩٩١ — دار المعارف — ط ٢ •

ان ربك ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، انه كان بعباده خيرا بصيرا ،
ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وايحكم ، ان قتلهم كان
خطئا كبيرا ، ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا ، ولا تقتلوا
النفوس التي حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا
فلا يسرف في القتل انه كان منصورا ، ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي
هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد أن العهد كان مسئولا . وأوفوا
الكيل اذا كلمتم وزنوا بالحق سطات المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا .
ولا تنفق ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان
عنه مسئولا . ولا تمشى في الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ
الجال طولاً كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ذلك مما أوحى اليك ربك
من الحكمة ، ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا .

وفي وصف عباد الرحمن يقول الرحمن جل جلاله :

(وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم
الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين
يقولون ربنا انصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما . انها ساءت
مستقرا ومقاما والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك
قواما . والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم
الله الا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق اثاما . يضاعف له العذاب
يوم القيامة ويخلد فيه مهانا الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك
يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ومن تاب وعمل صالحا
فانه يتوب الى الله متابا) .

ويقول الشاعر :

واذا أصيب القوم في أخلاقهم فاقم عليهم ماتما وعويلا
وحيث يقول في قصيدة أخرى :
وليس بعلمر بنيان قوم اذا أخلاقهم كانت خرابا

وحيث يقول في قصيدة ثالثة بيته الذائع :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان هموا ذهب أخلأقهم ذهبوا

ويقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم :

﴿ اذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله ، ان الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصله في عامين أن أشكر لى ولوالديك الى المصير ، وانجاهذاك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب أنى ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون • يا بنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ، ان الله لطيف خبير يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك أن ذلك من عزم الأمور ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور • واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير) •

— ضرب الوالد ولده كالسماد للزرع •

— قيل للقمان ما أقبح وجهك فقال : أتعيب بهذا على النقش أم على النقاش ؟

— دار أنت اليها تسير أقرب من دار أنت عنها مرتحل •

— أمر لا تدرى متى يلقاك ، استعد له قبل أن يفجأك •

— ان من الكلام ما هو أشد من الحجر ، وأنفذ من الابر ، وأمر من الصبر ، وأحر من الجمر ، وان من القلوب مزارع ، فازرع فيها الكلمة الطيبة فان لم تثبت كلها نبت بعضها •

— ان كنت فى الصلاة فاحفظ قلبك ، وان كنت فى الطعام فاحفظ

خلقك ، وان كنت في بيت الغير فاحفظ عينيك ، وان كنت بين الناس فاحفظ لسانك •

— لا تتعلم العلم لتباهى به العلماء ، وتمازى به السفهاء أو ترائى به في المجالس •

— لا تأمر الناس بالبر وتتنى نفسك ، فيكون مثلك مثل السراج ، يضيء الناس ويحرق نفسه •

— ثلاثة لا تعرفهم الا في ثلاثة : لا تعرف الحليم الا عند الغضب ولا الشجاع الا عند الحرب ، ولا تعرف أخاك الا اذا احتجت اليه •
— ان عالما قليل العلم يحاول انارة عقول الناس بما يعلم ، خير من عالم واسع العلم ضنين به •

— الولادة مؤلمة والمرض مؤلم والشيخوخة مؤلمة والحزن والبكاء والخيبة واليأس كلها مؤلم وتلك الحقيقة السامية عن سبب الألم سببه الشهوة التي تمازجها اللذة ، والشهوة التي تسعى وراء اللذائذ وتك الحقيقة السامية عن الألم : ان نجت هذه الشهوة من أصولها ، فلا تبقى لها بقية في نفوسنا •

— فليس ثمة ما يتحدى الموت ، لأن الموت شريعة الحياة •
— ليس هناك من نار أشد من الشهوة وليس هناك من رميه مثل البعض •

— ان الكلام المنق يجعلنا أحيانا عاجزين عن التفرقة بين ما هو حسن وما هو سيء •

— عندما تسود الألفة بين الزوجة والأولاد والزوج ، فما أشبه المنزل بربابة وعود ، قد تألفت أنعامها • وعندما يعيش الأخوة في تألف وسلام ، فحينئذ يظل الى الأبد في وحدة وأنسجام •

— ان الأرض تلد كل شيء ثم تسترده •

— ان فعل الجاهل في خطابه أن يذم غيره ، وفعل طالب المعلم أن يذم نفسه ، فعل الأديب ألا يذم نفسه ولا غيره .

— قال سولون لابنه : دع المزاح فان المزاح لقاح الضغائن .

— جوعوا الى الحكمة ، واعطشوا الى عبادة الله ، قبل أن يأتيكم المنع منها .

— لو أن اسانا صادقا أمر جبلا أن يزول لزال .

— اذا حاكمت رجلا فليكن فكرك في حجته عليك أقوى من فكرك في حجتك عليه ، واحذر أن يسبقك الى الحق ، فان سبقك اليه فرجوعك الى الصواب أحسن من ظفرك به .

— أضعف الناس من ضعف عن كتمان شره ، وأقواهم من قوى على غضبه ، وأصبرهم من ستر فاقته وأغناهم من قنع بما تيسر له .

— تزينوا بالعدل والبسوا ثوب العفاف تفلحوا .

— من فضيلة العلم أنك لا تستطيع أن يخدمك فيه أحد كما يخدمك في سائر الأشياء ، وانما تخدمه بنفسك ، ولا يستطيع أحد أن يسلبك اياه كما يسلبك غيره من المقتنيات .

— الانسان بلا عقل كالتمثال بلا روح .

— ويروى عنه أنه كان يجوب الطرقات نهارا حاملا مصباحا ، وحين يسأل عن ذلك ، يجيب بأنه يبحث عن انسان ، والمغزى واضح ، فهو يريد أن يبحث عن انسان كامل تتحقق فيه فضائل الانسانية الصحيحة .

— لا تلتقوا اللؤلؤ الى الخنازير ، فانها لا تصنع به شيئا ، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدونها فان الحكمة أفضل من اللؤلؤ ومن لا يريدونها شر من الخنازير .

— ولا تجعلوا كنوزكم في الأرض يفسدها السوس والدود ولكن

اجعلوا كنوزكم في السماء فانه حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم .

— ان العين هي سراج الجسد ، فاذا كانت عينيك صحيحة فان جسدك كله مضيء .

— الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تغمروها — النظر يزرع في القلب انشوة ، وكفى بها خطيئة .

— قال الجاحظ في كتابه « البيان والتبين » يصف كلامه ﷺ :

« وهو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثرت معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف كان كما قال الله تبارك وتعالى (وما أنا من المتكلفين) » .

ويقول الأستاذ مصطفى الصادق الرافعي عن بلاغة الرسول ﷺ :
« هذه هي البلاغة الانسانية التي سجدت الأفكار لآياتها ، وحسرت العقول دون غايتها ، لم تصنع وهي من الأحكام كأنها مصنوعة ، ولم يتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة .

— طوبى للمخلصين ، أولئك مصابيح الهدى ، تتجلى عنهم فتنة ظلماء .

— أكثر ذكر الموت يسلك عن الدنيا ، وعايك بالشكر ، فانه يزيد النعمة .

— من أصبح معافى بدنه ، أمنا في سربه وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها .

— خذ من شبابك لهرمك ، ومن غناك لفقرك ، ومن صحتك لاسقمك .

— ما أخلص عبد العمل لله أربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .

— حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، واستقبلوا البلاء بالدعاء .

استفت قلبك الحلال بين والحرام بين ، وكما نقول نحن .. صوت
الفطرة .. وصوت الضمير . فما أكثر ما فعل الكهنوت بالناس من مفساد
وما أكثر ما أضلّتهم الايديولوجيات ، ولو أنهم أنصتوا الى صوت الفطرة
في داخلهم ، ولو أنهم استمعوا الى صوت الضمير ذلك السفير الالهي
الذي لا يخطئ .. لما ضلوا ولما أضلوا .

وان صفوة الانسان هم الأنبياء هو خاتمهم محمد ﷺ .. فهو
الانسان الكامل المراد من جنس الانسان على الاطلاق .. وهو العماد
الذي ضربت عليه قبة الوجود وهو النبي الخاتم الذي اجتمعت له مفاتيح
المعارف وكنوز الرحمة ومقام الشفاعة وأنوار الهداية وتميز على الكل بأنه
على خلق عظيم فقال له ربه « وانك لعلی خلق عظیم » .

ان قصة الابتلاء والامتحان هي أعظم القصص .

.. وهذا كلام مطلسم تدور له الرؤوس ..

.. الحديث الغيبي لا أساس له من الصحة .

.. ان هذه القوة التي تراها هي قوة مصنوعة .

.. يقول على بن حمزة وقد نزل عنده المتنبى بعد فراره من مصر
انه لم يره يصلى أو يصوم أو يتلو قرآنا .

.. ذلك هو المتنبى أشعر شعراء العرب .. ملا الدنيا وشغل الناس
وبلغ أوفى الحظوظ من الثراء والشهرة والجاه وغطت سيرته
التاريخ لعدة قرون وما زالت .. فما حظه من الآخرة ؟

.. لا يعلم ذلك الا الله الذي يعلم البواطن والنيات والقلوب لأن
السرائر هي مفتاح المصائر ومن ذا الذي يعلم السرائر الا هو .

وظاهر الأعمال تكفى للحكم لصاحب القضية في الدنيا واكتفها
لا تكفى لمعرفة الحكم في الآخرة .

- • ولذا كان المصير لغزا محجوبا عن الكل •
- • ولذا كانت المفاجأة التي ليس بعدها مفاجأة • • حين تهتك الأستار وتكشف الأسرار •
- • فالآخرة هي البرلمان الوحيد الذي تهلك فيه الأغلبية وتتجو الأقلية •
- • والنفس المؤمنة لا تعرف داء الاكتئاب • • فهي على العكس نفس متفائلة تؤمن بأنه لا وجود للكرب مادام هناك رب • • وأن العدل في متناولنا مادام هناك عادل •
- • وأن باب الرجاء مفتوح على مصراعيه مادام المرتجى والقادر حي لا يموت •
- • هو تنفيذ المكتوب وجريان القدر بما كتب في اللوح المحفوظ •
- • اذا كان الله منفردا بالقضاء والقدر والتصريف والفعل والرزق والصبر والضر والنفع والهداية •
- • واذا كان الأمر كله لله وليس لنا من الأمر شيء فماذا بقى لنا ؟
- • يقول العارفون : بقيت لنا النية والمبادرة وعليها نحاسب وآيات كثيرة من القرآن جعلت فعل الرب مؤسسا على مبادرة العبد وعلى علمه بقلبه ونيته •
- (والذين اهدوا زادهم هدى) •
- (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) •
- (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) •
- • وفي المواقف والمخاطبات :
- يا عبد كل شيء لى فلا تنازعنى مالى •

يا عبد أجبت كل شيء من يدعوك ولا تجيبني •

يا عبد غرت عليك فنهيتك •

يا عبد لا أكون أنا المنتهى حتى تراني من وراء كل شيء •

يا عبد لا تسكر بسواي تكن عارفا •

يا عبد ليس بيني وبينك بين •

ليس بيني وبينك أنت — فانظر الى فاني أحب أن أنظر اليك •

يا عبد اهدم ما بنيته بيدك قبل أن أهدمه بيدي •

يا عبد ميعاد ما بينك وبين أهل الدنيا أن تزول الدنيا فترى أين أنت
وأين أهل الدنيا •

يا عبد نم وأنت تراني أتوفك وأنت تراني • • تستيقظ وأنت تراني
أحشرك وأنت تراني يوم الموت يوم العرس يوم الخلود يوم الانس •

يا عبد قل في ندم ربي الناظر الى فكيف أنظر الى ما سواه •

يا عبد اذا تحققت بسرک لعلمت بأنك مني وأنت تليني وكل شيء في
الوجود يأتي بعدك • •

لا شيء يقدر عليك اذا عرفت مقامك ولزمت مقامك • • فانت أقوى
من الأرض والسماء أقوى من الجنة والنار أقوى من الحروف والأسماء
• • أقوى من كل ما بدا في دنيا وآخره • • ولا مستقر لك الا عندى حيث
لا حيث وعند لا عند •

« خطر اللسان »

« عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال :
« عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : من كان يؤمن
بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » .

وفي بيان أن اللسان قائد الأعضاء في الاستقامة والاعوجاج .
أخبر النبي ﷺ فيما رواه عنه أبو سعيد الخدري رضى الله عنه
أنه « إذا أصبح ابن آدم فان الأعضاء كلها تكفر اللسان ، فتقول : اتق
الله فينا ، فانما نحن بك فان استقممت استقمنا وان اعوججت اعوججنا » .

قل « ربى الله ثم استقم » .

وأول ما ذكره النبي ﷺ لعقبة بن عامر رضى الله عنه في بيان
النجاة هو : امسك عليك لسانك .

ما النجاة ؟ قال : امسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك وابك على
خطيئتك .

القول على الله بلا علم

« قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى
بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله
ما لا تعلمون » .

وقال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما »

قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » •

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما »

ان العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالا ، يرفعه الله بها درجات وأن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالا يهوى بها في جهنم •

أشارت بطرف العين خيفة أهلها

أشارة محزون ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال:مرحبا

وأهلا وسهلا بالحبيب المقيم

ان الكلام لفي الفؤاد وانما

جعل اللسان على الفؤاد دليلا

قال : « ان نفس الانسان اذا اتسخت ، كان كلامه في حاجة الى أن

يغسل بالماء والصابون » •

فليست « الكلمة » الا تعبيراً عن موقف القلب وبياناً لحالة الروح
واعراباً عن ذات الضمير .

قال تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة
أصلها ثابت وفروعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله
الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت في
الأرض ما لها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة
الدنيا والآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » .

في ظل الشجرة الثابتة مثلاً للكلمة الطيبة :
(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة)

« ان العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ، لا يلقي لها بالا ، يرفعه
الله بها درجات ، وان العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا
يهوى بها في جهنم » .

« وفي حديث أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« مررت ليلة اسرى بى قوم تقرض شفاهم بمقاريض من نار ،
فقلت : من هؤلاء يا جبريل قال خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون »

قال « كان النبي ﷺ اذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال من
رأى منكم الليلة رويأ قال فان رأى أحد قصها فيقول ما شاء فسالنا يوماً
فقال : هل رأى أحد منكم رويأ قلنا لا قال : لكننى رأيت الليلة رجلين
أتانيئ فأخذا بيدي فأخرجاني الى الأرض المقدسة فاذا رجل جالس
ورجل قائم بيده كlob من حدود قال بعض أصحابنا عن موسى بن
اسماعيل كlob من حديد يدخله في شدقه — حتى يبلغ قفاه ، ثم يفعلهُ

بشده الآخـر مـثـل ذلـك ، وـيـلـتـم شـدقـه هـذا فـيـعـود فـيـصـنـع مـثـلـه لـقـت :
ما هـذا ؟ قـالـا انـطـلـق » .

ثم تـعـدـت المـرأتـى ، وـجـاء المـتـأوـيـل قـال ﷺ « قـلـت طـوـفـتـمـانـى الـيـنـه
فـأخـبـرـانـى عـما رآيت قـالـا نـعم ، أـما الـذـى رآيتـه يـشـدقـه كـذـاب يـحـدـث
بـالـكـذـبـة فـتـحـمـل عـنـه حـتـى تـبـلـغ الـآفـاق ، فـيـصـنـع بـه ما رآيت الـى يـوم اـنـقـيـامـة »



وفـى رـوایـة لـلـبـخـارى : « فـاتـينـا عـلى رـجـل مـسـتـنـق لـقـفـاه ، واذـا آخـر
قـائـم عـلـيـه بـكـلـوب مـن حـديـد واذـا هـو یأتى أحد شقى وجهه فيشرشر شدقه
الى قفاه ، ومنخره الى قفاه ، وعينه الى قفاه ثم يتحول الى الجانب
الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول ، لما يفرغ من ذلك الجانب
حتى يصح الجانب كما كان ، ثم يعود عليه فيفعل ما فعل فى المرة الأولى »

وفـى تـأوـيـلـها : وأما الرـجـل الـذـى أـتـيت عـلـيـه بـشـرـشـرة شـدقـه الـى قـفـاه
وـمـنـخـره الـى قـفـاه وعـيـنـه الـى قـفـاه وـمـنـخـره الـى قـفـاه وعـيـنـه الـى قـفـاه ،
فـانـه الرـجـل يـعـدـو مـن بـيـتـه فـيـكـذب الـكـذـبـة تـبـلـغ الـآفـاق .



اللهم انا نسألك أن تطهر ألسنتنا من الكذب ، وأن تعصمها من آفات
اللسان كلها وأن تنطقها حوما بذكرك ، وأن تشغلها أبدا بطاعتك انك على
كل شيء قدير .

ظلموا التماسيح وظلموا المرأة . فلا التماسيح ولا المرأة . جموعها
زائفة . فقد يرى البعض أنها ضعف ولكنها فى أكثر الأحيان قوة وقسوة
على التعبير .

أدعية تستخدم في المرافعة

اللهم انى أسألك ايمانا دائما .. وأسألك قلبا خاشعا .. وأسألك
علما نافعا .. وأسألك يقينا صادقا .. وأسألك ديننا قيما .. وأسألك
العافية من كل بلية وأسألك تمام العافية .. وأسألك دوام العافية ..
وأسألك الشكر على العافية .. وأسألك الغنى عن الناس .



— اللهم لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين .
— اللهم انى أعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ من الهم والحزن
وأعوذ بك من البخل والجبن وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال .
— سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا اله الا الله ولا حول ولا
قوة الا بالله العلى العظيم .
— اللهم انى أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر — اللهم
أدخلنى مدخل صدق — وأخرجنى مع الصديقين .
— اللهم انى أعوذ بك من أن أفتن وأعوذ بك من كيدهن — اللهم
أدخلنا جنتك يا أرحم الراحمين .
— لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت
وهو على كل شىء قدير .

— رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى رب وتقبل دعاء .
— قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء
وتعز من تشاء ، وتنزل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير .
رحمن الدنيا والآخرة تعطيها من تشاء وتمنعها من تشاء . ارحمنى
رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك .



وقلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس دون أن يدعو بهذه الكلمات :

— اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ..
ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا
.. اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا • واجعله الوارث
منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل
مصيبتنا في ديننا .. ولا تجعل الدنيا أكبر همنا .. ولا مبلغ علمنا ..
ولا تسلط علينا من يخافك ولا يرحمنا •

« دعاء آدم عليه الصلاة والسلام »

(اللهم انك تعلم سرى وعلائي فاقبل معذرتي وتعلم حاجتي
فاعطني سؤلى وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى) •

(اللهم انى أسألك ايمانا يياشر قلبى و يقينا صادقا حتى أعلم أنه
لن يصيبنى الا ما كتبته والرضا بما قسمته لى يا ذا الجلال والاكرام) •
اللهم انى أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة
من كل اثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة والنجاة من النار •

اللهم لا تدع لنا ذنبا الا غفرته ، ولا هما الا فرجته ، ولا حاجة من
حوائج الدنيا هى لك رضا ، الا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين •

— سبحانه لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العزيز الحكيم .. أعوذ
بالله أن أكون من الجاهلين •

— سبحانه لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العزيز الحكيم ..
اعوذ بالله أن أكون من الجاهلين •

— ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ..

— ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وأنصرنا على القوم الكافرين
• • • • • غفرانك ربنا واليك المصير •

— ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا
كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا
واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين •

— ربنا لا تفرغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت
الوهاب •

— ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا
على القوم الكافرين •

— ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار • • ربنا إنك
من تدخل أنار فقد أحزيتيه وما للظالمين من أنصار • • ربنا اننا سمعنا
مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا • •

— ربنا فأغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار • •
ربنا وآتتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد •

— ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم نعرض لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين
• • ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين •

— ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين • • ربنا افتح بيننا وبين قومنا
بالحق وأنت خير الفاتحين •

— رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء • • ربنا
آتتنا من لدنك رحمة وهب لنا من أمرنا رشدا •

— رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري • • وأحل عقدة من لساني
يفقهوا قولي • • • • • رب زدني علما •

— لا اله الا أنت سبحانه اني كنت من الظالمين • • رب لا تذرني
فردا وأنت خير الوارثين •

— ربنا آمنا فأغفر لنا وأرحمنا وأنت خير الراحمين •• رب اغفر وأرحم لك أنت الأعز الأكرم •

— ربنا اصرف عنا عذاب جهنم أن عذابها كان غراما • انها ساعات مستقرًا ومقاما •

— ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين وأجعلنا للمتقين اماما •

— رب انى ظلت نفسى فأغفر لى ••• رب نجنى من القوم الظالمين •• رب انصرنى على القوم المفسدين •

— وأفوض أمري الى الله ، ان الله بصير بالعباد • ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون •

— رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه واصلح لى فى ذريتى •

— ربنا أغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا • ربنا انك رؤوف رحيم •

— ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير ربنا لا تجعلنا فتنة الذين كفروا واغفر لنا انك أنت العزيز الحكيم •

— ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شىء قدير •

أسماء الله الحسنى

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم • بسم الله الرحمن الحيه : اللهم انى أتوجه اليك بأسمائك الحسنى •• يا من هو (الله الذى لا اله الا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، انجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكيم ، العدل ، اللطيف ،

الخير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ،
المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ،
أنحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ،
المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي المبدئ ، المعيد المحيي ، المميت ، الحي ،
القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ،
المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعال ، البر ،
التواب ، المنتقم ، العفو الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ،
المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ،
إنهادي ، البديع ، الباقي ، الرشيد ، الصبور) •

(ثناء عقب أسماء الله الحسنی)

(الذي تقدست عن الأشياء ذاته ، وتزهت عن مشابهة الأمثال
صفاته ، واحد لا من قله ، موجود لا من علة بالبر معروف وبالإحسان
موصوف ، معروف بلا غاية ، موصوف بلا نهاية ، أول بلا ابتداء ، وآخر
بلا انتهاء لا ينسب إليه البنون ، ولا يقنيه تداول الأوقات ولا توهنه
السنون ، كل المخلوقات قهر عظمتة وأمره بالكاف والنون ، بذكره أنس
المخلصون وبروبيته تقرر العيون ، وبتوحيده ابتهج الموحدون هدى أهل
الطاعة إلى صراط مستقيم ، وأباح أهل محبته جنات النعيم ، وعلم عدد
أنفاس المخلوقات ، بعلمه القديم ، ويرى حركات أرجل النمل في جنح
الليل البهيم ، يسبحه الطائر في وكره ، ويمجده الوحش في قفره ، محيط
بعمل العبد سره وجهره ، كفيل المؤمنين بتأييده ونصره ، وتطمئن القلوب
الوجلة بذكره وكشف ضره ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره
أحاط بكل شيء علما ، وغفر ذنوب المسلمين كرما وحلما : ليس كمثله شيء
وهو السميع البصير ، اللهم اكفنا سوء بما شئت وكيف شئت انك على
ما تشاء قدير يا نعم المولى ونعم النصير •

غفرانك ربنا واليك المصير ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

منبجارك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك جل وجهك : وعز
جاهك ، تفعل ما تشاء بقدرتك ، وتحكم ما تريد بعزة يا حي يا قيوم
يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام •

المطلب الثالث

ختم المرافعة

ان الخاتمة في الحقيقة هي أكثر النقاط استراتيجية في فن المرافعة
فما يقوله الانسان في النهاية هو ما يبقى يرن في الأذان وعالقا بالذهن •
ولأهميتها فان الخطباء المشهورين يقرأوا أنه من الضروري كتابة وحفظ
الكلمات المناسبة في ذهنهم • وقد تكون الخاتمة طويلة الى حد ما
كما قد تكون بها مقتطفات شعرية • ويجب أن تكون الخاتمة واضحة مثل
طلب براءة المتهم أو الحكم عليه بأقصى العقوبة ومن أهم شروط الخاتمة
ما يلي :

١ — ألا تكون بعيدة عن الموضوع ولا مجددة لأدلة أو آراء
جديدة •

٢ — أن تكون قوية في تعبيرها وأيضاً في القائها •

٣ — أن تكون قصيرة لدى نحو ما وتكون حاسمة ومشوقة •

ومن أمثلة الختام الجيد في المرافعات :

« أنتم قضاة الحق وأيضاً مربو الخلق وكلمة العدل التي بها
تتطون يتجاوب صداها في نفوس ناشئة ونفوس نائرة ونفوس فزعة
حائرة فاجعلوا حكمكم رسالة عدل وبلاغ عبرة ويشري سلام فاذا جنحتم

الى الرحمة فاشملوا بها النشء وقد أوْشك أن يلتوى والبلاد وقد دب
فيها ذلك الداء الوخيم •

أنتم أطباء النفس كما انكم قضاة العدل والطبيب البصير
لا يتردد ولا ينى عند الضرورة الحلكمة والقضاء الحازم يهذب بالزجر
الحكيم •

وازنوا بين روعة الرحمة وقد حلت بالبلاد وبالنشء وبين ضرتها ان
هى لحت بهذا المجرم العتيد ثم اقضوا قضاءكم والله معكم انه نعم
الهادى ونعم النصير •

مستلزمات الرأفة فى ختام المرافعة :

ان ختام المرافعة قد يستلزم الرأفة • الأمر الذى يحسن معه
طلب استعمال منتهى الرأفة واستخدام الرحمة مع المتهم •

الفصل الثالث

أحكام المرافعة

تمهيد وتقسيم :

سنعرض في هذا الفصل للأحكام العامة في المرافعة أمام القضاء الجنائي في ثلاث مطالب على أن نوضح في المطلب الأول للارتجال في المرافعة وفي المطلب الثاني نتناول مقدمات المترافع الناجح ونخصص المطلب الثالث لدستور المرافعة .

المطلب الأول

(ارتجال المرافعة)

لقد جرت العادة على تقسيم المرافعة الى مقدمة أو تمهيد ثم عرض للموضوع يليه المناقشة وهي لب المرافعة وجوهرها .

وخرج البعض على هذه العادة فلم يأبه بالمقدمة ولم يقسم المرافعة الى قسميها التقليديين — العرض والمناقشة — انما كان يسوق الوقائع ويناقشها معا حتى اذا انتهى من السرد سقطت أدلة الخصم من نفسها ، والمحامون يكونوا مستعدين عند قبول الوكالة لأن يلاقوا وهم يؤدون واجبه من العقبات والأخطار ما يلاقيه الجنود في الميدان من طوارئ ومفاجآت .

وقيل أن المرافعة تمثل العدسة التي تكشف القاضي التعاريج والمنحنيات الدقيقة التي يعتمد عليها الخصوم في تكييف المذاعة

وتوجيهها نحو مصلحتهم • والقاضى مهما كان ذكيا فطنا: أو مهما توافر وقته لبحث الخصومة المعروضة عليه فى حاجة لذلك المنظار يساعده على ملاحظة تلك الوقائع ، وقد تكون من أهم النقاط التى توجه تقديره لصلحة أحد المتخاصمين فيقضى له ، ولولا اكتشافها لقضى للخصم الآخر • ويتعين أن يركز المحامى وينتبه حتى لا ينسى أو يقدم نقطة على أخرى ، وأن يكون ثابتا لا يهتز أو يضطرب إذا فوجئ بما ليس فى الحساب ، صبورا موطدا النفس على سعة الصدر مهما تعرض للاعاطفة •

وأخيرا فإن المحامى يستعمل قوة حجته وسلامة منطقته وجزالة عبارته وسحر شخصيته وشحذ كل حواسه للوصول الى عقل ووجدان قاضيه •

الأسلوب واللغة :

ليس ضروريا أن تكون كل المرافعة بالفاظ مقعرة وباللغة العربية الفصحى ولكنه يتعين الجمع بين الاثنين بحيث يستطيع المحامى أن يدفع الملل والرتابة بعيدا عن قاضيه •

وقد كان الهلباوى يتكلم الفصحى فيفوق فقهاء اللغة ولكن الرجل محام بطبيعته وسابقته فهو يعرف أن العربية الصحيحة ماتزال اليوم لغة صعبة ، وأنها ماتزال تجهد المخاطب والمخاطب •

الدفاع كامل حريته :

فالمحامى يقف غالبا ليدفع عن متهم أحاطته النيابة والبوليس بسياح متين من الأدلة والبراهين ، وأحاطه رأى العناب وصحفه بجرائده بحكم قاس سبق به حكم القضاء • وليس للمتهم الأعزل إلا ذلك الرجل الذى وقف علمه وفضله ولسانه على الدفاع عنه ، فإن

نحن ضيقنا عليه الخناق وحاسبناه على كل لفظ يفلت منه أو تعبير يسبق به لسانه لم نمكته من أداء واجبه • فحرية الدفاع ملك للمحامين ، وأعطيت لهم للمصلحة العامة ، لمصلحة المواطنين جميعا ، وليس لأحد أيا كان أن يعتدى عليها •

ولقد وقف محام فرنسى مشهور يترافع فى قضية ، فنسب الى النائب المترافع أنه قد لجأ فى مرافعته الى استغلال الشهوات الضارة وأن هذا ليس بالأمر الحسن ، فمد قوله هذا مخالفة تأديبية وحوكم من أجلها ، وكان دفاعه عن نفسه أن قال : « أما شخص النائب المترافع فمفصل عن مرافعته كل الانفصال ، فشخصه محل اجلالى واحترامى ، ولا أبيع لنفسى أن أهاجمه ، ولكنى أهاجم مرافعته ، فهى ملكى ومن حقى أن أمزقها اربا وأن أطاها بقدمى » وقد أدانته محكمة الاستئناف بباريس وقالت أن من حق المحامى أن يدافع عن موكله ولكن ليس من حقه أن يهاجم • فردت عليها محكمة النقض بأنه لا دفاع بغير هجوم أننا اذا ألزمتنا المحامى أن يقيس ألفاظه ومعانيه ، وأن يخشى ما قد يعطى لها من تفسير لم يقصده وأن يرهب ما قد تؤدى اليه من معان لم تخطر له ببال فأننا نكون قد قضينا على كل مرافعة ارتجالية ، وأطفأنا جذوة البلاغة القضائية ، لأنه لا مرافعة بغير ارتجال •

حرية المرافعة (حرية الدفاع)

ولقد حرص المحامون دائما أن يكونوا أحرارا فى مرافعاتهم مشتغلين فيما يختصونه من خطة ولا يخضعون لتوجيه أيا كان مصدره • فلا هم خاضعون لتوجيه القاضى ولا لتعليمات صاحب القضية بل مؤدون رسالتهم بما يملئ عليهم ضمائرهم لا يرهبون أحدا ماداموا لا يعتدون على أحد الا اذا اعتدى عليهم وما لهم اعتداء الا بالقدر الذى يتطلبه الدفاع •• فإذا أحس بضغط من أى نوع كان تعثرت كلماته وضعفت حجته وفقدت

آراؤه جراتها وانطلاقتها ولولا حرية الدفاع لضاعت الحقيقة بين الناس
اذ لا تجد من يعبر عنها ومتى ضاعت الحقيقة ضاعت العدالة التي هي
أساس الحكم وبغيرها تسود الفوضى ولا يقوم نظام . والمحامون هم
أساس ذلك النظام وهم روح العدالة وإذا كانوا لا يكتبون الأحكام فانهم
يعدون لها ببحوثهم ومرافعاتهم فيقدمون للقضاء المادة الأولية
لصناعته (١) .

وأولى مميزات المرافع الجيد هو التواصل بحيث يشعر القاضى أن
هناك رسالة موجهة من ذهن وقلب المحامى الى ذهنه وقلبه . ويجب أن
يكون الالتقاء بالأسلوب الطبيعى حتى ليخيل للمستمع أنك قد وضعت في
مرافعتك حتى تصبح محاميا محترفا من الطراز المرافق لأن الناس تتجمع
حول المحامى المفعم بالطاقة أو مولد الطاقة البشرى صاحب الابتسامه
الساحرة الذى يجعل الآخرين في حالة استجابة دافئة له دائما عندما
يجعل مرافعته له طبيعىة كالحديث الودى الدافى الجميل الممتلئ حيوية
وصدقا .

وعند بداية المرافعة لمخاطبة القاضى فيحسن ألا تبدأ بالمجل فتلك
سمات المبتدئين بل تنشق نفسا عميقا وتطلع الى قاضيك للحظة واحدة
وان كانت هناك ضجة في ساحة المحكمة فتقرب قليلا حتى تروى ثم ابدا
مرافعتك كما تريد بكل تلقائية وابعث فيها الحياة بكلماتك المضيئة .

فقد تكون المرافعة جيدة الأفكار وحسنة العبارات والأسلوب ،
ثم لا تتفكر بالقاء جيد فتضيع فائدتها أذ لا يفهمها السامعون ولا تجذب
انتباههم ، وقد تكون أقل من ذلك في اعدادها ولكن جودة القائلها تنمى
الى السامعين كل جزئية منها ، فتكون فائدتها أكبر وأكثر .

اللقاء الجيد له قواعد من أهمها ما يلي :

- ١ — جهارة الصوت وقوته •
- ٢ — حسن مخارج الحروف وتميز أجزاء الكلمة •
- ٣ — تلوين الصوت وتكليفه ، فيجهر المحامى مرة ويعاو صوته ويلين مرة أخرى حتى يكون كلامه هامسا كما يسرع في جملة ويمد صوته في أخرى ولا بد أن يميز لهجة الاستفهام من لهجة الخبر وهكذا لا يستحسن لهذا أن تكون المرافعة مكتوبة ولا محفوظة ولكن على المحامى أن يعد عناصر مرافعته والأفكار التى يريد نقلها ثم يعبر عنها بطريقته ، وهذا يتوقف على مقدرة المحامى الكلامية ومحصوله اللغوى ومحفوظاته الأدبية كما يتوقف على حسن تفكيره وقدرته على تحليل موضوعه •
- ٤ — لابد من جودة الالتقاء من الاشارات باليد أو بغير اليد أيضا فان هذه الاشارات مما يوضح المعنى ويثبت أثره في مسامعه ، وفي هذا يقول الجاحظ : « والاشارة واللفظ شريكان • ونعم العون له ونعم الترجمان هي عنه وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وتغنى عن الخطأ » فالمحامى الذى لا يكون متأثرا بكلامه يفقد أهم صفات المحامى المؤثرة •
- أما من ناحية التدريب على الالتقاء فلا بد لمن يعد نفسه لهذه المهمة أن يمارسها مرات عديدة وأن يمرن نفسه عليها في وحدته وبين رفاقه المتدربين حتى يحرز فيها تقدما • هذا كما أنه لابد من التكوين الأدبى بكثرة المحفوظات الأدبية خطبا وشعرا وكتابة مع الدرس التاريخى والتثقيف العام والقراءة المستمرة حتى لا يكون ذهن المحامى راكدا • وهذا ما يفيد المترافع في الحالات التى يتعرض فيها للارتجال •

فليست المرافعة غزارة علم أو زخرف كلام ، انما حياة الدفعا في

طريقة عرضه وحسن اختيار الأدلة ودقة ترتيبها وفي تصوير الدعوى والرد على أوجه دفاع الخصوم وخير المترافعين هو الذى يستطيع أن يستقرئ ميول القاضى ويتابع تفكيره ويسبقه الى ما يقع فى نفسه من الخواطر والالهامات مما يؤدى الى المزاوجة بين طرق الاقتناع والاقتناع التى من شأنها أن يتبعها قبول حسن من القاضى لرسول صاحب الحق .

وتقوم المرافعة على الاسناد القانونى والتدليل المنطقى وقرع الحجة بالحجة وقوة البيان وثبات الجنان والاستعانة — بقدر — بالتأثير العاطفى لاستدرار عطف القاضى أو اثاره غضبه حسبما يترأى للمدافع مع وجهة نظره .

ويتعين أن يكون المترافع يقظا حاد الذهن واسع الصدر والحيطة عند استجواب المتهمين أو مناقشة الشهود لحماية موكله — ومحاصرة المتفقين وشهود الزور حتى تظهر الحقيقة فيكشف البطلان ويتحصل على البراءة .

والارتجال فى المرافعة هو قمة البلاغة القضائية ولا توجد مرافعة بغير ارتجال ويعتمد الارتجال بالدرجة الأولى على حضور البديهة التى هى بطبيعتها هبة من عند الله اذك يلجأ الكثيرون ومنهم بعض الكبار الى كتابة مرافعاتهم قبل الجلسات بلغة المرافعة وهى لغة تختلف فى طبيعتها وأسلوبها عن لغة المذكرات التى تكتب لتقرأ فيضع المترافع لنفسه فى هذه المرافعة التى تبدو طبيعية تصورا للدفاع لا يحيد عنه ثم يقوم بالتخديم عليه أثناء المرافعة بما يناسب الحال من رصيده المختزن من المقدمات أو النهايات المرتجلة .

والخطباء وخصوصا المحامين يحتاجون الى حضور البديهة ، وسرعة الخاطر ، وربما سنحت للمحامى كامة من خصمه لم يكن يتوقعها ولكنه يتصيدا بسرعة ويبنى عليها مرافعته ولا تستغنى البديهة الحادة عن

خفيرة الثقافة والمحصل الأدبي فالارتجال هو موهبة الاختراع في شكله الأكثر بدائية • انه فن التبارى مع المفاجيء والطوارئ ، والافادة من الظروف الغير متوقعة • على الشاب الذى يود النجاح أن يتعلم ممارسة هذا الفن الى درجة يصبح معها رد فعل ، بحيث يكون فكره حاضرًا دائمًا وغير مضعضع البتة عندما يجد نفسه في موقف لم يواجه مثله من قبل ويمثل الارتجال دورا كبيرا في المحاكم • وهو ذو أهمية فائقة في فن تحقيق النجاح في الحياة العملية والتجارة •

طريقة الارتجال

وعلى المحامى أن يكون دارسا تماما لموضوعه وأن يضع في ذهنه أو على ورقة ما النقاط التى يقوم بالتحدث فيها • • وما عدا ذلك يكون خطابه كله مرتجلا وعليه أن يحظى بالدقة ونوع الأسلوب الذى يستعمله لو أراد كتابة مقال مجلة وبهذا الثمن وحده يستطيع أن يشتري ذلك الاحساس التلقائى والاستجابة الطبيعية بالشعور والمساواة بينه وبين سلميعة •

فالغيبوب المزعومة التى تنسب الى الخطباء المرتجل هى في الواقع من صور جاذبيته فالجمل الاعتراضية التى تتضمنها والفواصل والعبارات الغامضة وانتكار كلها ذات تأثير فعال مادامت النقاط موجودة فيه ومادام ذلك المحامى قادرا على أن يواجه حريته أثناء المرافعة الى جبل الوريد •

عدم ارهاق المحكمة

ما من محكمة تستطيع لرجل بانتباه أكثر من ساعة واحدة فلا تكثر من الاستمرار في الكلام اذا كان ذلك يرهق المحكمة فاذا لم يكن قد أثقل على المحكمة فليتحدث بالقدر اللازم لشرح جميع النقاط الأساسية

فى القضية وهنا يجب على المرء أن يحرص على العمود الفقرى فى القضية فلا يجيد عنه الى الضلوع المتفرقة منه وبالتالى يجب على المحامى أن يشعر وأن يجعل المحكمة تشعر لا لأن موكله محظوظ لأنه اختاره كمحام بل أنه هو المحظوظ لوقوع اختيار موكله عليه للدفاع فى قضيته •

عند الإنقاء يجب ملاحظة النقاط الآتية :

١ — شدد على الكلمات المهمة وخفض على غير المهمة •

٢ — غير طبقات صوتك •

٣ — توقف قبل وبعد الأفكار المهمة •

٤ — غير معدل سرعة صوتك •

فالوهبة حضور وشخصية •

فاناس تعجب بالمحامى المطعم بالطاقة حول مولد الطاقة البشرى صاحب الابتسامة الساحرة ولذلك فانه يجب أن تجعل خطابك للمحكمة كالمحديث — طبيعيا — عندما تنهض لمخاطبة المحكمة •

ولن تستطيع أن تجعل القاضى يتفهم موضوعك الا عندما تفهم أنت وكلما اتضح الموضوع فى ذهنك كلما استطعت تقديمه بوضوح فى ذهن القاضى • استخدم أمثلة عامة ووقائع محددة وأحاديث قيسية والقرآن الكريم ويجب استخدام الكلمات التى ترسم الصور مثل كلمة الضوء وحفظ بعض الأقوال المأثورة هو جواز السفر للوصول الى المحكمة •

وتحسين الأسلوب :

فالمحامى يقاس من خلال حديثه ومرافحته ويجب محاولة صقل التعبير والتحدث بأسلوب جيد بعدم خرق قواعد اللغة وازعاج الأذان حيث يوجد محام موهوب منحته الطبيعة هبة تأليف الكلمات ومن هؤلاء تأتي أروع الخطب •

المطلب الثانى

مقومات المرافعة الناجح

لا شك أن الخطابة منصب خطير ومرتبى صعب المنال ، لا يصل إليها طالبها ببسر بل يحتاج مبتغيها الى زاد عظيم وصبر ومعاناة ، واحتمال المشاق ليصل الى تلك الغاية السامية •

والنبي ﷺ هو القدوة لكل ناصح وخطيب ، فمهما اقتدى الخطيب بهدى النبى ﷺ نال من النجاح بقدر موافقته وتوفيق الله عز وجل له •

قال الجاحظ : أوتي ﷺ المهابة ، وغشى الله كلامه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، فلم تسقط له حجة ، ولم تعثر له كلمة ، ولم يغلبه خصم وانما أوتي جوامع الكلم ﷺ • كما قال أحمد شوقي :

فاذا خطبت فللمنابر هزة تعرفو الندى وللقلوب بكاء

وتاريخ المرافعة القضائية يرتبط بلا ريب بتاريخ انشاء القضاء ولكن المرافعة نشأت قبل القضاء لأنها نوع من المحادثة ومخاطبة البشر كما أن نجاح المحامى وفشله يرجع الى أمرين رئيسيين : جودة المعلومات التى يقدمها أو ضحالتها ، وحسن القائه أو ضعفه فالمحامى المطلع الذى

يعد القاضى بمعلومات جديدة غير الذى يكرر معلومات يعرفها السامعون والذى يلقى مرافعته بطريقة فنية ، معبرة موحية ، غير الذى يسرد المعلومات سردا وفن الخطابة هو فن مخاطبة الجماهير بطريقة انقائية تشتمل على الاقتناع والاستمالة . فمن الخطباء من يكون فائرا ادلقاء ضعيف التأثير فتضيع أدلته الكثيرة المقنعة هباء . ومنهم من يأتى بأدلة أقل أو أضعف ولكنه يثير عواطف السامعين ويلهب مشاعرهم فيتحمسون لتنفيذ فكرته ويحاول كل واحد منهم أن يعمل على تحقيق شيء منها بقدر طاقته .

ومن سمات الأسلوب الخطابى وضوح العبارات وظهور معانيها بحيث يكون الغرض الذى يهدف اليه مفهوما للسامعين . وبعض الخطباء يجعل خطبته كلها باللغة العامية وهذا خطأ كبير فاللغة الفصحى لها جمالها وتأثيرها حتى على العامة واستعمال العامية أو الاكثار منها يفقد الخطبة هذا التأثير ثم ان بين المستمعين مثقفين ، ولا يستريحون لهذا الأسلوب بل يؤذى شعورهم .

ولن يستطيع المحامى أن يجعل القاضى يفهم موضوعا ما الا عندما يفهمه هو وكلما اتضح الموضوع فى ذهنه كلما استطاع تقديمه بوضوح فى أذهان الآخرين ويفضل استخدام أمثلة عامة ووقائع محددة فى موضوع المرافعة . بحيث أن يعتمد المترافع على منح الحماس والاثارة وبحيث أن يقوم أيضا بتحسين أسلوبه فهو جواز المرور الذى يحفظه فى عداد المحامين الناجحين لأن الفرد يقاس كل يوم من خلال حديثه بالاستخدام الدقيق والصحيح بحيث يصبح موهبا بفن تآليف الكلمات ليصل الى أروع الخطب عن طريق سمة المحفوظات الأدبية من الشعر والنثر ومأثور كلام العرب من الحكم والأمثال والوصايا هذا فضلا عن حفظ الكثير من القرآن وحفظ الكثير من الأحاديث النبوية . ونجد المحامين فى المحاكم وأعضاء البرلمان يستعينون بالآيات القرآنية والأحاديث فى تأييد وجهة نظرهم وفى رفع أسلوبهم الخطابى . وليس الغرض من هذه

المحفوظات هو الاستشهاد ولكن الغرض منها هو اللغة وسهولة التعبير •
وأیضا من أهم الشروط أنجرأه والشجاعة والثقة بالنفس بما يقول
ومن نصائح الأقدمين : انك لا تتعلم الخطابة حتى تتعلم انقحة والمراد
بالقحة عدم المبالاة بأى شئ يكون معارضا له ويرجع ذلك الى الجرأة
وقوة لجان ومن أمثلة ذلك :

أيها السادة الى هنا صفقتم وضحكتم لأن الرجل خدعكم بكلام
معسول ولكن انظروا ههنا ما يستحق أن تتأملوه • ومع كل هذه الصفات
السابق ذكرها في التدريب العملى والاعداد النفسى لمواجهة الجمهور
لابد له أن يتوقع الفشل مرات كثيرة شأنه في هذا الشأن كل متعلم يسقط
مرة أخرى حتى يتم تكوينه وتربيته ، وانك واجد في تاريخ الخطابه
أشخاصا كانوا يخطبون للمقاعد الخالية وأمواج البحر ولأشخاص وهميين
وقد أجدى عليهم ذلك وأخرجهم خطباء متفوقين وممتازين •

ومن شروطه أن يكون عالما باللغة العربية • وبالأخص علم الانشاء
كى يقتدر على تأليف كلام بايغ وتنسيق درر مضيئة بشرق نور أسرارها
على أفئدة السامعين فيسحرهم ببديع لفظه ويختطف ألبابهم بجواهر
آيات وعظه •

ومن شروطه أن يكون فصيحاً منطلق اللسان ممبراً عما يخطر
بباله من المعانى الكامنة في ضميره ويبرز ما انطوت عليه السريرة من جليل
النصائح وجميل الارشادات •

ومن شروطه أن يكون وجيها تهابه القلوب وتجله العيون وتعظمه
النفوس يهابه الصغير ويوقره الكبير حتى يكون لكلامه تأثير ويجد له
سميما يعى ما يقال ويعمل بما يسمع •

ومن شروطه أن يكون عالما بالقرآن والسنن والفروع واللغة العربية
وأن يكون نبيا وسلاحه أدوات الكلام فلا يكون التسخ ولا ألدغ ومن
مقوماته دراسة أصول الخطابة وسعة الثقافة •

ومن أهم شروط المحامى المترافع أن يقوم بحفظ آيات من القرآن الكريم وحفظ الأحاديث القدسية والأحاديث والنبوية والاهثال العامية والمواظ والحكم والوصايا •

المطلب الثالث

دستور المرافعة

تمهيد وتقسيم :

نعرض لدستور المرافعة في هذا المطلب على أن نوضح أولا الدستور الأساسى للمرافعة الجنائية ثم نوضح بعد ذلك دستور العمل على قهر الخوف الناشئ عن المرافعة بعد ذلك •

أولا : دستور المرافعة^(١)

١ — لا ترتكن على مقدرتك الكلامية ، وبلاغتك في التعبير ، بل أعدد قضيتك كما لو كنت لا تحسن الكلام •

٢ — الوضوح وحسن التعبير أفيد للمترافع من قوة الحجة • فلا قيمة لاحجة إذا لم يحسن المترافع شرحها •

٣ — لا يكفى أن تلقى المرافعة واضحة مستوفية الحجج مرتبة ، بل يجب أن تعرف كيف تعالج قاضيك وتلعب على أوتار قلبه • فاعلم وحده لا يكفى ، وبلاغة التعبير وحدها لا تقنع • بل يجب تغيير طريقتك تبعا لحالة قاضيك النفسية • عليك أن تروض نفسك على الاستفادة

(١) حسن الجداوى — اراء مبتثرة عن مهنة الجبابة — كنوز المحلماة المرجع السابق — ص ٣٤ •

بحوادث الجلسة ، وأن تدلى بحجتك في الوقت المناسب ليزداد أثرها ،
وأن تعرف كيف تهاجم حين يكون الهجوم ضروريا ومفيدا • ومتى
تصمت حين يكون الصمت أوقع ، ومتى تبتسم ومتى تعبس ، ومتى
تلجأ لتأثير العاطفة ، ومتى تتحدث الى عقل انقاضى ، فكلها ما يكون
التمثيل مكملا لصناعة المحاماة •

التحمس والعناد في سبيل كسب الدعوى يجب ألا ينسيا المحامى
أنه انما وكل في الدعوى ليحول دون ترك العنان لشهوات الخصوم
ولحدهم ، ولكيلا يدع مجالا لأصحاب القضايا فيعكروا على العداة
صفوها • فكل لفظ ناب ، وكل اهانة ، وكل تعرض لأشخاص لا شأن
لهم بالدعوى ، أو ذكر لوقائع غير مجدية ، أو سب ، يجب على المحامى
الذى يحترم نفسه أن يتجنبه أداء لواجبه ، وتحقيقا للعدالة •

ان المحامى والقاضى والنائب أقاليم ثلاثة تتكون منها وحدة
العدالة • فاحترام المحامى لقاضيه ولممثل النيابة ، والقرامه
الأدب والنظام والدقة ، انما هو احترام لنفسه • ولا يكون الاحترام
في المظهر الخارجى وحده ، بل هو احترام لرسالة العدالة المقدسة ، ولن
حملوا أمانتهما ، فهو احترام عميق أصيل • وانما نما القضاء وسيطر ،
ومكن له ، وثبتت أحكامه ، على أصوات المحامين ، ويفضل جهودهم
وبحوثهم •

٤ — لا ترفع للجمهور • ان حجتك تفقد الكثير من قوتها اذا
أحس القاضى أنك لا تسعى لاقتناعه بل تريد الظهور •

٥ — لا تهاجم قاضيك ولا تتملقه •

٦ — قد يترافع المحامى ساعتين ويكون مقلا • وقد يترافع غيره
خمس دقائق ويصبح مقلا •

٧ — أقلل من السخرية • وإذا استعنت بها فكن حسيفا ، فإن
القاضى لا يسره أن تسليه على حساب خصومك • ولكنه يتوقع منك أن
تقدم اليه حججا مقنعة ، يستعين بها في تركيز حيثيات حكمه على
أرض صخرية صلبة •

٨ — اجتهد أن تستحوذ على انتباه قاضيك عند أول جلة تقولها ،
ولخص موضوع البحث في ألفاظ قليلة واضحة لتضمن أن يتابعك القاضى
حتى نهاية مرافعتك •

٩ — ليس معنى حرية الدفاع أن تتحدث في مسائل بديهية ، أو
خارجة عن موضوع الدعوى ، أو تتعرض لأشخاص لا علاقة لهم
بالدعوى •

١٠ — لا قيمة لحرية الدفاع اذا استعملها المحامى في نشر
المفتريات وجبن عن فضح المظالم •

١١ — تذكر وأنت تترافع أن الكلام الغامض عن وقائع واضحة
يجعلها غير مفهومة ، في حين أن الحديث الواضح عن وقائع غامضة
يلقى عليه بصيصاً من النور •

* * *

١٢ — ان كانت قضيتك ضعيفة فلن تستفيد شيئاً من اخفاء نقطة
الضعف فيها ومحاولة الدفاع عما لا يحتمل دفاعاً • وخير لك أن تعترف
بما لا سبيل الى انكاره ليسهل عليك اقناع قاضيك بقبول ما تريد
اقناعه به ، فان الاخلاص في عرض الوقائع ومناقشة الأدلة هو
سلاحك البتار •

* * *

١٣ — معرفة الحقيقة شيء والتعبير عنها والاقناع بها شيء آخر •
ان اقناع القاضي يتطلب — فضلاً عن قوة التعبير — طريقته ، وذلك
السر الخفي الذي لا يتمتع به الا القليلون ، وهو ملكة بث الثقة ، بل
فرضها فرضاً على السامعين •

* * *

١٤ — ابتعد عن تعبيرات الملق • لا تطلب شيئاً من (عدالة)
المحكمة ، بل اطلب حَقَّ من المحكمة نفسها • فان عدالة المحكمة ان
كانت موجودة فهي في غنى عن تملكك — وان لم تكن موجودة فلن
يوجد ما تملك •

* * *

١٥ — اولى خطوات الاقناع ان تكسب انتباه من تتحدث اليه •
فان لم تفعل فان بلاغتك وقوة حججك وأسانيديك القانونية تذهب
كلها هباء •

* * *

١٦ — احرص على ادخال حجتك القوية الى الأذن غير منتظرة
الاذن كما يقولون • لا تقدم لها بقرع الطبول ، بل سقها في الوقت
المناسب ، عندما تتبين أن الأذان والقول مهياة لقبولها •

* * *

١٧ — اهتم بالجانب المظلم من قضيتك أكثر من اهتمامك بالجانب
المضيء • فالجانب السهل يتولى نفسه بنفسه •

* * *

١٨ — لا تحاول نفى ما لم يثبتته خصمك فتستكمل بذلك الحلقة
الناقصة من سلسلة أدلته •

* * *

١٩ — السباب ليس حجة أيا كان مصدره • والتوكيد ليس دليلا
أيا كانت قائله • والصوت المرتفع لا يحل اقناعا • انما يأتي الاقتناع
اذا صدر من القلب • فانما تأتي قوة الرصاصة من قوة البندقية
التي تقذفها •

* * *

٢٠ — لا ينحصر فن المحامى في اعداد أفضل الأسلحة ليستعملها
في المعركة ، بل في معرفة كيف يستعملها وخاصة متى يستعملها •

* * *

٢١ — سائر قاضيك في طريقة تفكيره هو ، لا في الطريقة التي
تعتقد أن يجب أن يفكر بها ، فمهمتك أن تجعل القاضى يقتنع بحجتك
ويحكم لك ، لا أن تبين للسامعين أنك مصيب وأن قاضيك مخطيء •

* * *

٢٢ — أبداً مرافعتك دائماً في هدوء وتواضع • واسترسل فيها حتى تمد آذان القضاة لسماع صرخات غضبك أو استهجانك طبعية وموضوعية ، فلا يستكرها أحد ولا يسهجنها • أما الصراخ منذ البداية ، والصوت الغاضب قبل أن يدرك السامعون له سبباً ، فانه ينفّرهم بدلاً من أن يستقرعى اهتمامهم •

* * *

٢٣ — من الخير أن تسأل نفسك من أين تبدأ مرافعتك ، ولكن الأفضل أن تعرف متى وكيف تنتهي منها • فان الاطالة ضارة ، والتكرار أضر ، وإملال القاضى أسوأ وقعا منهما •

* * *

٢٤ — يجب أن يكون الدفاع كاملاً والا كان بلا جدوى • كالحرّف الأبدى لا قيمة له الا بالأحرّف المكتملة للكلمة •

* * *

٢٥ — القاضى ومحامى الخصم وممثل النيابة وشهود الدعوى يخضعون جميعاً للمحامى الملم بقضيته • اذا خسر دعواه — كما لا بد أن يحدث أحياناً — فانما يخسرهما وهو مقتنع بأنه يضعف أمام القاضى ، ولا تغلب عليه محامى الخصم ، وانه انما خسر دعواه لأن العدالة اقتضت ذلك ••• أو اسوء حظ موكله ••• ولكنه يستطيع أن يخرج من الجأسة رافعا رأسه ، راضياً عن نفسه ••• لأنه لم يقصر فى أداء واجبه •

* * *

٢٦ — ابتعد عن الخطأ ، فالوقوع فيه سهل ، والتخلص منه صعب •

* * *

٢٧ — اذا تبادل قضائك الحديث أثناء مرافعتك ، فافترض أنهم

يتبادلون الرأي في قضيتك • فلا تغضب ولا تظهر استياء بل توقف عن المرافعة ودعهم يصلوا الى رأى في الحجة التى كنت تدلى بها ثم أعد عرضها مصقولة في ثوب جديد •



٢٨ — الحجة المتكررة كالطعام الذى يعاد تسخينه كن طبيعيا لا تتواضع كبيرا ولا تتكبر عجرة • لا خضوع ولا استعلاء لا تكثر من الحركات • انك تجعل القاضى ياتفت الى حركاتك ولا يصفى الى حديثك •

ثانيا : كيفية قهر القلق عند المرافعة

ان الحقيقة الواضحة أنه مهما كتبت ومهما قرأ القارئ الكريم عن أسباب القلق في الدعاوى وخاصة الجنائية فان ذلك لن يحل كثيرا من الاشاكل النفسية عند نظر كل دعوى •

ولكن دعونى أوفر لحضراتكم بعض النقاط الأساسية التى يجب أن يكون عليها المحامى حتى يستطيع أن يتغلب على القلق الذى يسببه انشغاله على القضية •

١ — اسأل نفسك عن أسوأ الاحتمالات التى يمكن أن تحدث ثم هبى نفسك ذهنيا لقبول أسوأ الاحتمالات فاذا حدث نسبة أقل فهذا أيسر •

٢ — لا تفكر في بداية القضية كثيرا وتنشغل على نتيجتها بل اعمل فالعمل هو خير سلاح للقلق في هذه الحالة •

٣ — اذا حدثت نتيجة قضية غير متوقعة فافرض بما قسمه الله لك واراض بما ليس منه بد • وما تشاعون الا أن يشاء الله • وقدر الله وما شاء فعل وارادة الله فوق كل ارادة • وبالتالي اجعله في حكم الماضى

ولا تتفكر في الماضي فليست هناك قوة بوسعها إعادة الماضي وانشتر ذهنك
بغواطر الطمأنينة والشجاعة وأن تتجنب القصاص من الخصوم فأنت
مجرد وكيل •

٤ — استرح قبل أن تبدأ تلك القضية وتعلم كيف تسترخي وأنت
تراول عملك •

٥ — لا تجادل إذا كنت مخطئاً واعلم أن خير السبيل لكسب جدال
هي أن تتجنبه وسلم بخطئك إذا كنت مخطئاً •

٦ — بالنسبة للموكلين كن مستمعاً طيباً وشجع غيرك على الكلام عن
نفسه وعن قضيته وأظهر اهتماماً بالناس وابتسم فمن لا يستطيع
الابتسام لا يجوز أن يفتح مكتباً للمحاماة واجعل الموكل يشعر بأهميته
باسباغ التقدير واغت نظره الى أخطائه من طرف خفى •

٧ — قدر للقضية أسوأ احتمال تراه وأخبر به الموكل فاذا حدث أقل
فلن يكون هناك أثر •

وفن الحديث الخاص مع رواد المكتب يكمن في النقاط الآتية :

ابتسم بتقسم لك الدنيا

واجعل مصافحتك حارة

والصداقة رائدك

إذا لم تتفق في الرأي فكن صبوراً وأحب لأخيك ما تحبه لنفسك

فالتذرع بالفشل فرار من المسؤولية

كما يجب النظر الى مراحل القضية المتوالية حتى تضيء للمحامى

النوء الأخضر نحو التعرف على المناطق المظلمة والمضيئة فيها •

فالحقيقة أن شيئاً من القلق مطلوب ولا خوف الا من الفزع والرعب الدائم الذى يفقد الفرد قدرته على الاستمرار فى العمل وذلك يعالج بالاسترخاء بعد انجاز أى عمل والهدوء لكى تعيد شحن البطارية النفسية لذاتك ولكى تجمع شتات نفسك حتى يمكنك مواصلة المشوار بصورة أفضل^(١) .

وارسم برنامجك وفقاً لاتجاه مزاجك .

ويجب أن تنتشد الاسترخاء دائماً كما أن الارتواء الجنىسى المشروع هو الطريق الطبيعى للراحة النفسية .

فلنحاول اذن أن نحدد الصفات الطيبة لكل انسان تلقاه .

انس الملق وامنح تقديرك المخلص المنزه . كن مبذرا فى مديحك مسرفا فى تقديرك يدخر الناس كلماتك سنوات طوال حتى بعد أن تنساها أنت .

خمس طرق لكى تحبب الناس اليك :

١ — اظهر اهتماما بالناس .

٢ — اذكر أن اسم الرجل هو أجمل وأحب الأسماء اليك

٣ — كن محدثاً طيباً وشجع محدثك على الكلام عن نفسه « كن محدثاً بارعاً » .

٤ — تكلم فيما يسر محدثك ويلذ له .

٥ — اسبغ التقدير على الشخص الآخر واجعله يشعر بالأهمية .

(١) كيف تتخلص من عيوبك النفسية . د/يسرى عبد المحسن — أخبار اليوم — العدد ١٢٣ بدون تاريخ — ص ٤٥ .

ولا تفقد روح الفكاهة

ودع الشكوى وكن متفائلا •

كما يجب مواجهة الحقائق بصبر وشجاعة •

ان سر الصفات الناجحة أن تصنى باهتمام لمحدثك فلا شيء آخر يسره أكثر من ذلك • مستمع صبور عطوف باسم الثغر •

وإذا تحدثنا بعد ذلك عن لغة المرافعة لوجدنا أن الأسلوب في المرافعة يختلف في خصائصه عن أسلوب التشريع •

فالمرافعة مخاطبة لمشاعر القضاة ومخاطبة لعقول القضاة في الوقت ذاته •

هي مخاطبة لمشاعر القضاة عندما يتحدث وكيل النيابة المترافع في أدبيات الدعوى وعندما يتحدث عن جسامة الجريمة ، وعندما يتحدث عن خطر الجريمة على أمن المجتمع وعندما يتحدث عن أخذ المتهمين بالعسدة •

وأسلوب وكيل النيابة عندما يتحدث في أدبيات الدعوى وعندما يخاطب مشاعر القضاة يجب أن يختلف عن أسلوبه عندما يعرض أدلة الدعوى وعندما يتحدث عن الجانب القانوني •

فهو عندما يخاطب مشاعر القضاة في أدبيات الدعوى يجب أن يتخير العبارة الرنانة التي تبعث الحماسة والتي تهز المشاعر والتي تؤثر في نفوس السامعين ، وهو عندما يخاطب عقول القضاة حينما يتحدث في سرد الأدلة أو عن الجانب القانوني يجب أن يتخير الأسلوب المنطقي الهادئ المترن الخالي من عبارات الحماسة والذي يؤدي الى الاقتناع العقلي بالدليل وتوجد بعض الأخطاء الشائعة في النطق (٣) •

(٣) فعلى سبيل المثال كثيرا ما نسمع من اخواننا القضائيين من يقول

عظماء المحامين :

لقد وجد الكثير من جبابرة المحامين في مصر وفي العالم ولا يستغ هذا المؤلف الوقت والمكان انكافى لدراسة تفصيلية لهؤلاء العظماء ونكتفى بتناول كلا من الأستاذ ابراهيم الهلباوى وهنرى روبير وغيرهم .

ابراهيم الهلباوى^(٢)

✽ امتاز الهلباوى بقوة الجدل وهو العدة الأولى للمعلل الفقهى ، وبه تميز آباء المحاماة في مصر اذ كانت الدراسة الشرعية مصدر ثقافتهم ، وهى تقوم على التأصل والتفريغ والقياس ، أى على المنطق — وآية ذلك الزعيم سعد زغول خريج الأزهر العظيم ثم المرحوم « الحسينى بك » الذى بدأت على يديه سيطرة الشريعة في عالم المحاماه ، ومكتبته الفقهية تردان بها دار الكتب المصرية .

✽ من أجل ذلك سار من قضية كبرى الى قضية كبرى ، وجود فكره دائما بالجديد والغريب ويخرج عن الممارج المطروقة الى الطررق غير المطروقة ، يسمح القضاء أشياء كأنما يخلقها من لا أشياء كفسلفة التشريع في الموضوع . وقواعد الخلق ، وبطلان الاجراءات وفساد أسلوب القاضي ، وتحيز المحقق ونقص انسانيته ومخالفة دعوى الخصم

الخصم (بكسر الخاء) وصحتها (بفتح الخاء) ومن يقول — بناء عليه (بضم الباء) بدلا من بناء عليه (بكسر الباء) ومن يقول اتجر في المخدرات بدلا من اتجر (بتشديد التاء) ومن يقول اطرح الدليل بدلا من اطرح (بتشديد الطاء) ومن يقول (اصبح قلصرا على) بدلا من (اصبح مقصورا على) ومن يقول : حل جذرى (بفتح الجيم) بدلا من حل جذرى (بكسر الجيم) لانها منسوبة الى الجذر . وكثيرا ما نسمع من يقول وفقا للمادة .. بكسر الواو ، وصحتها وفقا (بفتح الواو) أو من يقول : بدءا من (بكسر الباء) وصحتها بدءا من .. (بفتح الباء) ومن يقول قيم المال أو العمل وصحتها قوم المال أو العمل .. والتقييم وصحتها التقييم . والقصاص تكون بكسر القاف لا بفتح القاف .

(٢) انظر نجوم المحاماة في مصر وأوروبا — المستشار/عبد الحليم الجندي دار المعارف .

للبداهة أو لأصول المنطق ، أو انخداع الهيئة الاجتماعية أو مخالفة انتهمة
للتقدم الاجتماعي بل انه ليوافق يوما بين الله والقضاء وبين النبي موسى
والمتهم •

✽ فتسمع كلاما من سورة الجن ومن سحر السحرة ، ومن الالهام
الملائكى ومن علوم العرب ، وعلوم الغرب بالعربية افصحى والعامية
الدراجة أو كما قال أستاذ من معاصريه :

•• يوحوح ويولول وييكى وقد ييكى بعد ما يضحك ويضحك بعد
ما ييكى •

✽ ويقف ليرافع عن الأستاذ عبد العزيز فهميم فلا يتكلم فيدعوه
الرئيس للكلام فلا يتكلم ثم يقول ان لسانه قد انعقد لأول مرة في حياته ،
لأنه يترافع ضد قاض أمام قضاء ثم يتلو عبارات شكوى القاضى ويقذف
بها الى الثرى لأنها عبارات « عرض حالجى » حتى اذا انتهى قال له
الأستاذ المحامى : ذلك أجد أيام حياتى ولو توج مجهودا بشطب اسمى •

✽ رأيت يخطب الناس عصر يوم قدم فى صباحه من أعلى الصعيد
والهلباوى اذا خطب بكلمة بلسانه وبعقله ، وينخاعه وبعبصه وببيديه
وبرجليه أيضا وله صياح يقذف أصفق الحناجر •

✽ فهو يجد ويهزل ويثب ويحجل ويضحك وييكى ويعلاو ويسف
ويتقل ويخف ، ويكف ويشف وينظم الدرر ثم يرمى بالشرر ، وبينما تراه
فى وداعة العصفور اذا به فى شراسة النمر كذاك يتشكل هذا الشيخ فى
خطبه ويتلون لكل مواقع الكلام •••

✽ كان يعلم أن المرافعة لا تتسع الا لعرض الأصول وحاصل
الدراست ، وتطبيقها على الوقائع ، وان القاضى مع لهفته على حكم مماثل
أو نص فاصل لا يطبق البحوث ولا الاستعراض الطويل للنصوص

وأن الفقه هو الفهم والهمم لأنه كما يقول رجال الشرع « نور يضعه الله في القلب » وأن المحامي الفقيه يعمل عملين تكليف الواقعة وتكليف الحقيقة .

من النـسـوادر

— في ذات يوم سبق المأمور م. ط. ب. ك إلى محكمة الجناح بالحلة الكبرى متهما بتعذيب الأهالي لأسباب سياسية فلم يراعى رئيس الجلسة أراحته وعرض للمتهم في إبان شهادة الشهود مما جعله يبتسم فصاح فيه الرئيس « بتبتسم » وكأنما بهت الذي ابتسم لكن الرئيس بهت أكثر عندما قال له الهلباوى في هدوء « لا يساعد الرئيس ... ده مش بيتقسم ده بيتنفس »

سأله رئيس الجلسة في أثناء إحدى مرافعاته « وهل لك في كوب ماء قال « شكرا ... فالأستاذ ... س ، ن (محامى الخصم) هو الذى نشف ريقه » *

٣ — وفي قضية م. بائشا تتكب رئيس النيابة العامة كل التتكيب وانتفخت أوداجه صلفا وعقوا وجانبه التوفيق في ختام مرافعته وهو يحاول التتكيب أو التبتيت وكثرت الباءات في أشداقه الغلاظ مع اجتماع طرفي التشديد والتكرار فساء نطقا ، وانحط على كرسيه مضطربا . فقتبعه الهلباوى بقوله « يا حلاوة ... يا حلاوة ... زدنا زادك الله » فانفجرت القاعة ضحكا كالقذيفة حتى رئيس الجلسة لم يكتم انشراحه .

✽ وينتقل الهلباوى ذهوبا وجيئة بين الهدوء والزوينة والتساؤل والاستنكار والاستفهام والتعجب والتتكيب والتبتيت يعلو صوته ويهبط ويأمر سمع السامع في الموقف الحقيق ثم يطلقه وقد يتوقف ليستلهم السماء الكأمة المناسبة فتسعه كأنهار الانفجار المنتظر ساهم فيها المحامي

بقوله والسامع بانتظاره كان يقول هذه الـ .. هذه الـ .. هذه المذبحة ؟
أو يقول هذا الـ هذا الخراب الشامل •

✽ مثل ذلك مرافعته عن كـ بكـ ف في تهمة تبديد اذ راح يبين أن الدين كان قد سدد في ٣ أكتوبر وأن المطالبة لم تقع الا في أكتوبر ثم صمت قليلا وقال في يسر وطلاقة .. « ٣ أكتوبر قبل ٦ أكتوبر » •

✽ اننى وأنا أبداً نصيحتي للمترافعين بأن يكونوا واسعى الاطلاع شجعانا في ابداء الرأى والمرافعة لا يسعنى الا أن أذكر ميزان المترافع وأهليته عندى هو مقدرته على أن يدلى بأدلته ووجوه رأيه دون أن يبعد عن جو الرضاء وحسن اصغاء القاضى ومقدرته على تذليل العقبات التى تعترضه في هذا السبيل وألا يخشى أن تنتشر سحابة أمام القاضى فتصرف أذنه عن حسن الاصغاء وفى ذلك من الخطر ما لا يخفى فاذا كان لسان الدفاع في موكله فهو في نفس الوقت وسيطه لدى القضاء فيجب ألا يفوته أن يظهر بمظهر الأستاذية وهو يدلى بالحقائق والمعارف وأن يكون في نفس الوقت طالبا حسن السياسة ومن الواجب عليه أن يجمع بين هذين لا أن يضع بينهما واجبه أو لباقتة •

فأنا أنصح المترافعين بأن يحتفظوا بالاستقلال في الرأى وفى تقديم الدفاع دون أن يفتقدوا برأى يأتيهم من السامعين أمامهم أو من ورائهم وألا يهتموا بالبحث عن عبارات أكثر المصلحة فيها تمليق الجماهير أو تمليق ذوى السلطان أو تمليق السامع ولا يتحقق هذا جميعه الا اذا كان المحامى مستعدا عند قبول الوكالة لأن يلاقى وهو يؤدى واجبه من العقبات والأخطار ما يلاقى الجندى في الميدان من طوارئ ومفاجآت •

ومن أقواله « ليعلم المترافعون .. أن اسمى مراتب المحاماة وأعلى مآنها هو أن يقفوا الى جانب مظلوم تحالفت عليه القوى ، وأن يتحملوا معه شظرا مما يقاسيه ، فهذه هي حقيقة المحاماة » •

✽ ومن أجل ذلك كرمه كثيرون ولكنهم كلهم أجمعوا على الإعجاب به ، وأعلنت مصر مرة بعد مرة حاجتها اليه وصنع ذلك سعيد زغول .

✽ وكأنما أراحت له السماء ألا يبرز الا في ذلك الميدان الذي لم يقهره فيه انسان ، ميدان الحماماء .

✽ هذا المحامي الذي قضى حياته يدفع من صميم نفسه غرامة فرضتها عليه زعامته في صناعته ومرافعته في بعض قضاياها .

✽ هذا الشيخ الذي لا حدود لجرأته ولا لحيويته الذي يوضع اسمه مرات في كشف الباشوات ولا يصير باشا مع أن كثير من تلاميذه صاروا باشاوات ووزراء هذا الرجل الذي تتلاقى عنده مصر القديمة ومصر الحديثة كما اجتمعت لديه القوتان قوة النفس ، وقوة البيان فصان عظمته نصف قرن وقضى حياته في الدفاع عن مصر والسودان والمحاماة وحرية الفكر وحرية الصحافة وحقوق المرأة ، وعن كل ما هو جليل وعظيم الشأن في هذا الوطن .

✽ وتلا الهلباوى سعدا في الحمامة وقيد اسمه أمام المحاكم الوطنية سنة ١٨٨٦ وسيبقى هو الثاني في تاريخ الحماماء بعد سعد زغول وإن كان هو النقيب الأول .

✽ كان بالقاهرة أساطين الصناعة الناشئة « سعد زغول » عن عام ١٨٩٢ و « الحسيني » و « اللقاني » و « نقولا توما » و « خليل إبراهيم » وقليلون آخرون من هذه الطليعة النابضة الباحثة عن المجد والمال عندها من الكفايات أضعاف ما عندها من الأمل . فلم يكدهم ينضج بينهم فتنة حتى تثبت في الأرض فيزد الكثيرون بشجاعته وقوة عبارته وفقهه وحيويته وسرعة خاطره ، وفيض ذكائه ففتحت له آلهة الخطأ أبوابها .

✽ ولو ترك المحامي المحكمة حينئذ من الدهر لكاد ينسى .

✽ في هذه الآونة كان قاسم يكتب وكان على يوسف يكتب وكان محمد عبده يكتب فراح الهلباوى يكتب مقالاته المشهورة في ذلك العهد بعنوان « الى أى طريق نحن مسوقون » وذاع اسمه في كل مكان ، وأصبح من النواذر التى يتناقلها المثقفون قول العلامة اذا تخاصموا « أقتك وأجيب له باوى » .

✽ وعندما مات نعتته الأمة بما كان ينعت به « لاشو » نفسه اذ يقول « أنا الدفعا » .

✽ دخل رجل يوما يشتري « قطعة لسان » فأغلى بائع اللحوم الثمن ، فصاح في وجهه المشتري « هو لسان الهلباوى » .

✽ اذ أثبت كما قال « ان المأمور كان عبد المأمور » وهنأه في الجلسة رئيس النيابة .

✽ ولما انفضت المحكمة سأل بطرس باشا الهلباوى عن رأيه في الحكم فقال « ان مثلى مثل الوالدة التى يصاب ابن عزيز عليها بداء في ساقه ويرى الأطباء ألا سبيل الى علاجها وأنه يجب بترها فلا يسع الوالدة الا أن تقابل ذلك القرار بالصياح والعويل » .

✽ قال رحمه الله في مذكراته « وأمسى الهلباوى معروفا بعنوان لطيف وهبه له الشيخ جاويش وهو جلاد دنشواى « بل أنه ليختم تطبيقه على هذه القضية بقوله « ما أتعس حظ المحامى وما أشقاء يعرض نفسه لعداء كل شخص يدافع ضده لمصلحة موكله فاذا كسب قضية موكله أمسى عدوا لخصمه دون أن ينال صداقة موكله » .

✽ وعرضت عليه في هذه الأثناء ، وظيفة مستشار في محكمة الاستئناف ، وأوشك أن يقبلها لولا أن جاءتة الحكمة من صميم الريف على لسان سيدة مكشوفة البصر ، عرضت عليه قضيتها وحدثته أنهم يقولون في

فناء المحكمة أنه سيلى قضاء الاستئناف ، وذكرته بأن في مصر أربعين مستشارا سيكون واحد منهم ولكن في مصر محاميا واحدا لا مثيل له ، هو الهلباوى فتبسم ضاحكا من قولها وكأنما كانت كلمة القدر فقبل القضية ولم يقبل القضاء ، ورفض ما حملته اليه من الأتعاب قائلا أنني مدين لك بكثير ... ودافع عنها دفاعا أكسبها كرامتها ودعواها .

✽ عندما نظرت القضية سأل الرئيس « المستر جليرواغلو » على برنامج المحامين فقالوا محمود بك أبو النصر سيتراجع في سبق الاصرار ، وأحمد لطفى بك في أن الجريمة شروع أما الهلباوى بك فسيترافع في الظروف المخففة حيث برع في تناول الظروف المخففة فلما تقدم الهلباوى بدفاعه تقدم في جلال المحاماة ليثبت أن في مصر رجالا ليسوا أقل بطولة من « شوفولاجارد » و « برييه » و « مالزرب » و « دى سيز » وهو الهلباوى الذى يقول في مذكراته .

✽ « أنا معتقد أن من واجب المحاماة كثيرا ما يعرض صاحبه الى الخطر وانى كنت ولا زلت أعتقد بأن صناعتى شبيهة ، الى حد ما بالعسكري المجاهد ، وهو فى الخندق يقدم نفسه ضحية لوطنه ويكفى أن يراجع القارىء ما حدث لى من الأخطار .. » .

✽ ولا يليق بالملك أن يجمع الجرحى من المعركة ليخفف بهم الى المشنقة .

✽ تلك صنعة الشجعان ولم يكن الهلباوى الا واحدا من أشجع الشجعان الذين شقوا الطرق الى مجد الصناعة:كانت المحاماة عنده موهبة قبل أن تكون علما أو تجربة يهدر مصلحة محققة لنفسه فى سبيل مصلحة محتملة لمولكه ، ويضحى بذاته وماله فى سبيل رأيه وكرامته وان تعجب فاعجب له اذ يضحى كل شئ فى سبيل أعدائه .

ومن أقواله :

خدمت نحو الخمسة وعشرين عاما محاميا ، ولم يخطر ببالي يوما
... سبب اختيار الرداء الأسود حلة رسمية للمحامى الذى يقتصر
بالدفاع بين يدى القضاء ولا سبب انتخاب اللون الأخضر للوسام الذى
تردان به صدور من عهد إليهم اصدار الأحكام النهائية . أما الآن وقد
أبعدت عن قلبي هذه القضية كل راحة . وجعنتى مرآة لتك القيوب
المنفترقة كأم المتهم المتهم وشقيقته وباقى أهله ... قت ان كان مختار
هذه الألوان أراد باللون الأسود رمزا للحداد والمصائب للمحامى الذى
يمثل القائم بالدفاع عنه ، وبألون الأخضر الذى يتحلى به صدر القاضى
الرمز إلى الطاووس ذى الريش الأخضر وهو مثال ملائحة الرحمة ، فنعم
الاختيار ...

✽ كأننا هنا فى هذه القاعة أمام أولئك القضاة المشبهين بملائكة
الرحمة على سطح هذه الأرض نقوم بأمورية أولئك الأخبار فى هياكلهم
الذين اتخذوا مثلنا ثياب الحداد وهم يتضرعون الى مبدع السموات
والأرض بأن يفيض على الأرواح الذاهبة الى دار اللخود سحب رحمته
وغفرانه ... فتقبلوا دعائنا فى طلب الرحمة للأحياء كما يتقبلها من أقاتكم
فى عبادته والذى علمنا أنه كما أن من صفاته العدل ، فان من صفاته الرحمة ،
وعلمنا فوق هذا أن الرحمة فوق العدل .. ثم يقول :

الآن لى كلمتان أوجهما الى المتهم بين يدى القاضى : « الأولى »
انى اذا كنت قاسيا عليه فى نعتة فلانى خاضع لقانون ليس دائما .. ملتثما
فى أحكامه مع ما توحى به الذمة والضمير لأنه مضطر فى أحوال كثيرة
— رعاية سلامة المجتمع البشرى وصيانتة — أن ينظر نظرا آخر فى تعريف
الحلال والحرام ، ونحن المحامين أحق الناس بالأدب والخضوع
لهذا القانون فاذا قبل الدفاع عذرك أيها المتهم وعرضه أيها المتهم
على قاضيك فعليك أنت أيضا أن تتقبل قبولا حسنا عذر الدفاع فيما

خالنك فيه من عقائدك المسياسية الثانية : انى اذا أنزلتكَ منزلة المجرمين العاديين وطلبت لك الرحمة والغفران ، فلأن ذلك واجب أيضا يقتضيه الدفاع ولكن اذا أثبت نفسك أن تعيش بين السلاسل والأغلال وأن تعيش معادلا معاملة الأثقياء وقطاع الطريق فارفع نفسك عن هذا السبيل ، وأقبل نبال الموت بقلب البواسل ، فالموت لا راد له ان لم يكن اليوم فغدا ..

اذهب الى لقاء الله الذى لا يرتبط الا بعدالته المجردة عن ظروف الزمان والكان اذهب مودعا منا بأقلوب والعبرات •

اذهب فقد يكون فى موتك بقضاء البشر عظة لأمنك أكثر من حياتك •

اذهب فان قلوب العباد اذا ضاقت رحمتها عليك فرحمة الله واسعة •

والفصاحة القضائية كالكتابة على الرمل أو على الماء « عمل يبعثه الهواء ولا تحفظه المضابط ولا المطابع سأل رجال « الأكاديمى » النقيب « بقولو » عن كتاب يتقدم به ليقبل بينهم وفقا للتقاليد فقال « ليس لدى شئ » قالوا « تجمع بعض المرافعات فى مجموعة » قال ولا هذا أيضا .. اننى رجل كلام ، لم يكتب مما قلته شئ فخذونى كما أنا ، أو دعيتى أو كما قال « هنرى روبير » عن « جاميتا » ان أسوأ ما يصيب الخطيب المرتجل أن تنشر خطبه لأنها ستكون جافة خالية من الاشارات التى صحبتها عند الالتقاء ومن موسيقى الصوت الذى آقاها ولا يصدق هذا المقال على أحد فى مصر قدر ما يصدق على الهلباوى •

ولقد كانت دنشواى احدى الفواجم الكبرى التى رزئت بها مصر من عهد الاحتلال البريطانى كانت محكمة بلا قانون بلا نصوص تصدر من تراه مناسبا من العقوبات ولها أن تحكم أقصى الأحكام على من يرتكب أهون اعتداء على جندى بريطانى كان انشاؤها مخافة مخالفة صارخة للعدالة البشرية ، لم يقنع منشئوها بأن يخلقوا محكمة بغير قوانين ولكن جسارتهم دفعتهم الى أن انشاؤها مخالفة يشوهوا

جيدها بإجراءات بشعة غاشمة ... كان الدكريتو يوجب أن تكون قضائتها
من الانجليز .. فكيف يحابى أحد الطرفين ؟

ولماذا يميز المدعون هذا التمييز ؟ أليس ذلك دراية بحقوق الانسان
في عمومها ، وحقوق المصريين على الخصوص •

كره المصريين جميعا هذه المحكمة من أجل هذه الأسباب حتى لو
طبقت أحكامها العدالة وليس غريبا أن يحتقروا من يشارك فيها من بينهم
كفاض وكمدع عمومي ولو كان أكثر الناس وطنية واخلاصا لأنه يعرض
سمعته للشبهات والريب الى أن يتضح للناس من بعد أنه كان يهدف الى
غرض نبيل لا عيب فيه •

ومن ناحية أخرى فإن من يقبل من المصريين أن يشارك فيها يحمل
على عاتقه أكبر المسئولية عن القسوة الفاضحة في أحكامها ••

هذه كلمات الهابواى في دنشواى وهو يدافع عن الرجل الذى حاكم
رئيس محكمة دانشواى ففضى بفكره ضده وقضى بيده عليه •

بل اليك كلماته عن نفسه « لقد كان الحكم في قضية دنشواى
باجماع المصريين حكما قاسيا لا يستحقه المتهمون ، وكان تنفيذ هذه فوق
ذلك أكثر استحقاقا للسطح ... لا فائدة في القول بأن جميع المصريين
الذين شاركوا في هذه المحكمة قد كرمهم مواطنوهم واحتقروهم — ولربما
استطاع أحد المدافعين في القضية الحالية أن يؤكد ذلك أكثر من غيره لكننا
لسنا هنا في مقام الترجع ولا الدفاع عن أنفسنا ... لقد جئنا الى هذه
القاعة للدفاع عن الوردانى ، ومن أجل ذلك وجب علينا أن ننكر ذواتنا
وأن نغفر كل ما وجهه الينا مواطنونا •

اللهم اننا نستغفر مواطنينا عما نكون قد وقعنا فيه من أخطاء •

« ان الذين في هذه المحكمة أو تولوا تمثيل النيابة فيها قد اعتبرهم

مواطنوهم قواد جيش الاستسلام للعدو — يميل الجمهور لاتهمهم بأنهم يخدمون العدو أكثر مما يخدمون مصالح الوطن دون أن يقدروا مواطنوهم الظروف التي تصرفوا فيها تصرفاتهم •

« كان بطرس باشا رئيس هذه المحكمة المشهورة فلم ينل غير قسطه من التهم — ومن العسير تبصير الرأي العام بشأنه » •

ولم يفته أن يتكلم عن اتحاد العنصرين فيقول « ... حلت وزارة بطرس باشا محل وزارة مصطفى فهمي باشا التي أرهقت بجمودها الأمة خمسة عشر عاما ... فقابلت الأمة وزارة بطرس باشا بالفرح العام أليست هذه الحماسة الشاملة لوزارة يرأسها رئيس قبضي حل محل رئيس مسلم ، دليلا قاطعا على أن مصر لا تخطئ المسائل السياسية بالأمور الدينية وأنها تقدر من يخدمها حق قدرهم أيا كانت ديانتهم •

وهذه القضية سنة ١٩١٢ كقضية الورداني سنة ١٩١٠ هما أول قضية وثاني قضية يحضر فيها النائب العام في تاريخ القضاء المصري وسنرى في سنة ١٩٢٥ ، القضية الثالثة التي يحضر فيها نائب عام آخر والهابوي لشهر المحامين فيها ، سعد زغول يثنى عليه من أجلها وإذا أضفنا إلى هاتين القضيتين قضية سعد ضد أباطة باشا في العام ذاته وجدنا الهابوي فارس الحلبة تتلاقى على التسليم بعبقريته الأمة والانجائز وسعد زغول والخديو فلا عجب إذا استمر اسمه على كل لسان •

وقال في قضية الورداني :

✽ عرضت علي حضراتكم أنكم الآن تعالجون مريض أصيبوا بجنون الوطنية — وأريد أن أتكم عن شيوع هذه الجرائم ، وهو أحيانا إلى التشدد في العقوبة • وهو يدعو أحيانا إلى التلطف فيها فالجريمة التي

وقعت التي أخذت بعض الجرائد الانجليزية يندد بها علينا - والتي أنتجت
الإنذار البريطاني الذي يقول اننا لا نستحق من أجلها أن نكون بين الأمم
المتحضرة .

هذه الجريمة من واردات أوروبا لقد أتى مرض القتل السياسى من
الغرب مع مرض الزهري تماما . . . يجب أن تقبل أوروبا هذا أيضا فهي
ملوثة في جميع أرجائها بمثل هذه الجرائم ويأفطع منها » .

✽ هناك سبب أتصرع اليكم أيضا بأن يكون سبب رحمة ، هذه
الجريمة كان يرمى خطرها الى ايداء العلاقة بين مصر وانجلترا فكان
ما لا بد منه ، أن تتدخل السياسة الانجليزية وقد تدخلت واحتملت مصرا
مضطرا أن تكفر عن هذه الجريمة . دفعت تعويضا لا يقل عن نصف مليون
جنيه . . . اتفقت كلمة الائمة على أن دفع الدية ينفي توقيع العقوبة . .
وقد دفعت الدية . . .

✽ فقد الجمهور وفقد المال وفقد الدار وفقد الأسرة وكانت سنة
تعب السبعين الى الثمانين أى تدلف به نحو العالم الثانى .

✽ اذا كنت تستطيع أن تحتفظ باتزانك حينما يفقد الناس من حولك
اتزانهم . . . واذا كنت تثق بنفسك حينما يشك الناس كلهم فيك . . .
واذا كنت تلاقى الانتصار كما تلاقى الانكسار . . . واذا كنت ترى أشياءك
التي وهبتها حياتك قد تحطمت ، فتتحنى تبنيها من جديد بأدوات واهنة .
. . . فان لك الأرض ، وكل ما عليها .

✽ وفي نفس العهد ترفع عن الأستاذ محمود سليمان غنام اذ قدم
للمحاكمة التأديبية لمقال كتبه في لجنة النائب العمومى بموتقصر منشوراته ،
وتخرج وكلائه في فهمها . . . وكم كان في التحقيق من مضحكات فلقد
دعى للتحقيق معه فوجد على مكتب المحقق كتابا ، واذا الكتاب ليس قانونا

ولكنه قام رسالغويا لفلك طلائسم منشورات النائب العمومى فأنبت المتهم فى مدرئ التحقيق هذه الواقعة ضد الحقق وضد رئيس التحقيق •

✽ كان شيخ المحامين، فكان أقدرهم علما بأن توكيلاتهم لا تولد الا فى المحن وكان الموكلين يدفعون الأتعاب — كالجزية — عن يد وهم صاغرون فاذا ظفروا بغاياتهم قطعوا ما يصل الماضى بالحاضر وأغرقوا المحاماة فيما يعرقون عن عمد من ذكريات آلامهم ومن ثمة يصدف بعض البرره عن المحامين بعد الانتهاء من عملهم ، فيستوى البررة فى نكرانهم ، بالكفرة فى كفرانهم وان تنوعت الأسباب •

✽ أترانا نستطيع أن نصوره ان يراه أى من يسمع المحامى العظيم فى الحكمة لا يسمع كلام الناس عنه • وليس راء كمن سمع فهو فى ساعة العمل يعمل ويمثل اشاراته فصيحة كعباراته ، يستعين بجوارحه جميعا ليحدث فى دقائق معدودة ، أثار غير محددة ، ويظفر فى زمان قليل بغرض جليل ، لفرد أو لجماعة أو الأمة ، ترهقه التبعات ويعصف بطمأنينة القلق على من يمثلهم مما ظوى القدر واحساسه أن الحق الذى يجازف به ليس له ، وانما هو وديعة أودعها الناس بين يديه وأن مجده ووجوده ، رهن بالأحكام التى تصرف بها الأقدار مصاير المغامرات الكبرى المسماة بالقضايا ، وهيهات أن يرسم القلم كل أولئك •

✽ وكان استقلاله عن موكله سر قوته عند موكله أو سامعيه كأنما كان يسبق الموكلين الى أهدافهم اذ يتخلص من أثقالهم فيطمئن القضاة الى أنه ليس صدى لأصوات المتقاضون وانما هو سفير العدالة اليهم ، وسفيرهم الى العدالة أو وكيل عن الحق لا عن صاحب الحق •

✽ سألته رئيس الجلسة يوما : كم من الزمن يكفيك ؟ قال لا أستطيع أن أضبط زمام عبارتى ما لم أفرغ من التعبير عن أفكارى ، فلا أعدك الآن بشئ •

✽ جاء بنفسه الى المحكمة ، لأنه يعرف أنه اذا انهزم في كل مكان ، فقد تعود النصف في المحكمة .. وانه اذا لم يبقى له دار .. فانه باقى في دار العدالة التى ساهم فيها أكثر مما ساهم فيها أى انسان لا يلتبس أن يسكن ، ولا يلتبس أن يرحم ، ولكنه يطلب العدل في دار العدل .

يعرض القضية مرة في استهلال الدفاع في دقيقة ... ومرة أخرى في طول ما يتراعى يبدأ في اجواز الفضاء .. لا يقسم للمرافعة قسميها التقايدين العرض والمناقشة بل يسوق الوقائع ويجادل فيها معا حتى اذا انتهى من السرد كانت القضية قد انتهت وسقطت أدلة الخصم من نفسها .

✽ وفي الحالات القليلة التى يرد فيها على الخصم ، تراه في رده كمرافعه يستفتح بصعاب الأمور ويدلى بأقوى الحجج ، ثم يتركها قليلا ليسرد مسألة ثانوية ثم يعود اليها ثم يتركها لمسألة أخرى ليست من الصميم لكنها جديرة بأن تقال ثم يرجع الى الأصل وهكذا دواليك حتى اذا انتهى كانت الأصول والفروع قد عرضت ونوقشت فاذا القضية كل لا يتجزأ واذا هو قد قال كل شئء تساعد حريته في الادلاء بما يشاء وقوته في اسقاط كثير من العرض .

✽ الاختصار ديدنه اذا كتب كتابا فكتوبيعات الخلفاء في ايجازه ، واذا ترفع تحمل المسؤولية فحذف ما يحذف الجناية العادية كالقتل والخطف وأمثاله مقياسها العادى ٦٠ دقيقة وكم في هذه الدقائق القصار من أفكار وأخبار ، يسردها ذلك اللسان السريع كالقطار يطوى في لحظات ما يطويه غيره في ساعات

✽ من نصائح المحامين أن يعلموا أن المارك في الحياة لخدمة الوطن لن تصدق مبادئها أو غايتها الا اذا عاهد القائم بها الشرف والوطن أن حياته له وليعلم المترافعون جميعا وخصوصا المحامين أن أسمى مراتب

المحامية وأعلى معانيها هو أن يقفوا الى جانب مظلوم تحالفت عليه القوى وأن يتحملوا معه شظرا مما يقاسيه فتلك هى المحامية •

✽ ذهب محام ناشئ حكم على موكله بالاعدام يسأل « لاشو »
ماذا تصنع لو كنت مكانى ؟ قال لاشو «أطلب من فورى مقابلة الاميراطور
فالتمس العفو عن موكلى وهو يرفض فى العادة — فانتظر يوم للتنفيذ ••
فأصلى لروح موكلى ••• ثم •• قال المحامى الناشئ « ثم » قال لاشو
وهو يضحك من كل قلبه « ثم يحكم على موكل لى جديد بالاعدام فأسير
معه نفس السيرة » •

✽ كان يسترسل فى انسحابه كالزامر الهندى يستخرج الأقاعى اذ
يخدرها بمزمارة أو قول الرئيس « بارتو » فى كتابه عن الزعيم «ميرابو»
«لقد خلف اسما تحيط به هالة من الأساطير لكن خطه كان أقل من عبقريته»

✽ ومن التضحيات فى المحامية ما يعدل الظفر الجليل بالخطر ، واذا
كان فيها من الجحود مثل ما فى الحياة من جحود فان فيها من الجمال ما لا
يتوافر الا فى أبهج معانيها •

المحامية رسالة لا تجارة السعيد من فهمها على غير أسس المال
والكثير من مرافعات المحامى الكبير غير مأجورة واذا قام المحامى بواجبه
فى سبيل المصلحة العامة تدفق عليه المجد والثراء • وكلما أعرض عن المال
انحدر اليه المال • والنجاح فى المحامية كالنجاح فى الحياة ان صبر وثابر •
فما أسعد الأولى ملأوا نفوسهم بالقناعة وأذهانهم بالعلم وفراغهم
الاجبارى أو الاختيارى بالسعى المطرد نحو الكمال •

✽ كما قال لايور « القضاء لا يكون عظيما الا اذا كانت المحامية
عظيمة ولا تكون المحامية عظيمة الا اذا كان القضاء عظيما » •

✽ بل كما قال « عبد العزيز فهمى » للمستشارين وهو يرأس

المحكمة العليا يوم افتتاح محكمة النقض في ٥ نوفمبر ١٣١ « أن سرورى يا حضرات القضاة واقتخارى بكم ليس يعد له الا اعجابى واقتخارى بحضرات اخوانى المحامين الذى اعتبرتهم محكمة النقض والابرار المدنية كما تعتبرونهم أنتم عماد القضاء وسنده أليس عملهم هو غذاء القضاة الذى يحييه ولئن كان على القضاة مشقة فى البحث للمقارنة والمفاضلة والترجيح ، فان على المحامين مشقة كبرى فى البحث بالابداع والتأسيس »

لا شك أن عناء المحامين فى عملهم عناء بالغ جدا لا يقل البتة عن عناء القضاة فى عملهم .

٢ - شيشرون :

شيشرون هو الخطيب الرومانى المعروف ورجل السياسة والقانون والمحاماة وهو خيز من كتب عن مشاكل الجمهورية الرومانية وعاش فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخها ونجح فى انقاذ روما من مؤامرة قام بها كاتيلينا (الذى كان يتطلع الى أن يكون قيصر) ووقف للحيلولة دون ذلك وطالبه بأن يغادر روما .

ويكىفى فى وصفه كخطيب أو كمحام ما قاله عن نفسه ، لقد كان اهتمامى بالخطابة من القوة بدرجة انى لم أدع يوما يمر دون أن أقوم ببعض التدريب على الخطابة ويضيف الى ذلك بأن دفاعه كان يرتكز على الالام بالأدب والفلسفة والقانون والتاريخ وحض أدلة الخصوم فى ايجاز وبصفة قطعية والتأثير بمهارة على عقول القضاة ، والانتقال من الجدل الى المرح ، والنظر الى الموضوع وجهة نظر عامة ، والخروج قليلا عن الموضوع للاقطاع .

٣ — هنرى روبيرو^(١)

جمع كل المظاهر الخارجية التي تحتاج اليها مهنة المحاماة ، فاه وجه معبر شديد التأثير تضيئه عينان تشعان حيوية وتتفذان بنظراتهما الى النفس ، وكان يخيل الى الكثيرين خطأ أن دور المحامى ينحصر فى الكلام ولكن عند هنرى روبيرو رسالة أخرى هى الاصغاء الى متابعة الشهود أثناء آداء شهاداتهم وعدم اضاءة شئ مما يقولونه ، وتسجيل جملة ما أفلتت من ممثلى الاتهام للاستفادة منها عند الحاجة وتنسيق كل هذا فى ذاكرته لاستخدامه أثناء المرافعة وهذا العمل يستدعى دقة نفاذة وقدرًا كبيرًا من السرعة فى وزن الأمور وقد جعل من ذلك كله فنا نبغ فيه • فن أن يتمكن فى لباقة من ارجاء التصريح — بالنتيجة التى يشوق الى معرفتها بالتلويح لها أكثر من مرة وينتهى بفتنة المستمعين اليه وتلهفهم ، وهم يجلسون أنفاسهم فى انتظار تلك النتيجة فاذا أبرز النتيجة أخيرا فان أولئك المستمعين يحسون براحة الاقتناع •

✽ ان الكفايات هى التى رفعت هنرى الى الذروة تتحصل فى فكرة واحدة هى أنه كان يفهم حقائق قضاياه كلما كان يفهم عقلية القضاة •

✽ كان اذا أوغل فى الصميم ، وحميت الوقده ، واندلج لهيب النار ، وانساقط الحجج متدافعة معجلة ، يضرب يميننا ويضرب شمالا كلاعب السيف ، ضربات منظمة وأحيانا ضربات غير منظمة ، تسحر العيون أو كما شبهوه بالحاوى اذ يهر المحلفين بصيحاته وحركاته وإشارات^(٢) •

(١) انظر الأستاذ/محمود العروسى — كيف تصبح محاميا — ط ١ سنة ١٩٨٦ •

(٢) انظر المستشار/عبد الحليم الجندى — نجوم المحاماة فى مصر واوربا دار المعارف •

✽ أن تترافع باختصار ولباقة وإخلاص فهي تعلم فن البساطة •

✽ والذى لا يفهم لا يستطيع أن يفهم وتبسيط الأشياء أصعب من تعقيدها والغموض في التعبير هو في غالب الأمر أثر الغموض في التفكير •

ففي المحاماة أسلوبان : الأول يسرد الوقائع ثم يناقشها حتى لا يباغت ضمائر القضاة بجدل يجمل تأخيرها وحتى تحتل الحوادث مكانها من الأذهان والثاني : أسلوب الأساتذة في محكمة الجنايات لا يضيعون الوقت في السرد ثم العودة الى ما سبق من سرد وهو في الواقع أسلوب الخطيب الذى لا يريد أن يترك الواقعة الا بعد أن يصبغها بصبغته ، فلا يدع للسامع فقرة ، يعمل فيها فكره ، بل يضطره الى التفكير في الواقعة والرأى في وقت معا •

✽ وفي الحق لقد مهد له ذاك صفاء عقله وقدرته على الارتجال ذلك الارتجال الذى قال عنه أنه نتيجة ترديد الكلام قبل المرافعة حتى ليسمى نفسه « اله كلام » •

يبدأ المعركة بأفكار واضحة وعبارات سهلة لينتهى منها بأسرع ما يستطيع لا يرسم الصور ولا يلقي الحكم ولا يتقبيق بالأنفاظ يلقي الحجج واحدة بعد أخرى كالفيلق في اثار الفيلق وكالانتصار في أعقاب الانتصار ويستغنى عن أربعين دليلا بأدلة أربعة لها قوة أربعمئة ووضوح واحد مع القصد في انتفاصيل والسقاء على الدلائل يعرضها كل عرض ويملى التهمة نارا بعد نار حتى اذا أوفى على التمام قذف بما يشبه المدفعية الثقيلة تمحو كل أثر ان كان قد بقى أثر •

✽ كان يشرح ارتجاله بقوله «أنا لا أفكر في الكلام حين ألقيه » أنا لا أحضر مرافعات مكتوبة ، وانما أترافع بيني وبين نفسى على انفراد وبغير صوت ، لا أتكلم ، وانما تجرى العبارات في مخيلتى اذ أمضى أو حين أكون في عربتى وفي المساء تتوارد لدى خواطر ذات بال •

والارتجال دون درس : مجازفة بحقوق الناس واستخفاف بالقضاة
أما ارتجال الألفاظ فشيء آخر لا يرتجل الكلام العظيم الا من حضر
مرافعته مرات ومرات ، ومن على مواجهة الأحداث ومجابهة الفجأة
فدانت له أعنة البلاغة ... هو لا يرتجل كما يتوهم الواهمون ، وانما
يستخرج ما في مواهبه من كنوز ظاهرة أو غائرة تظهرها الحاجة فهناك
تحضيران : مباشر وغير مباشر •

✽ هو سفير ومعبّر ولا يستطيع أن يسفر أو يعبر الا مرتجلا
فالارتجال هو الذى ينقل الأثر لسامعيه مستجيبا لتأثيرهم فيه ،
والمحامى يخلق فى حركاته ، وسكناته ، خلقا من فكره وفمه ولن يعيش
هذا الخلق الا اذا استمد الحياة من البيئة التى ولد فيها •

✽ وقديما قال « أرسطو » ان غرض الخطيب منذ يشرع فى خطبته
أن يظفر بالقيول فى عقول سامعيه وأن ينسج عروة من التعاطف بين
المتحدث والسامع ، فان السامعين لا تتفتح عقولهم للاستنارة أو للمتابعة
ان لم تجمعهم هذه العروة بالتكلم •

✽ قد يكون المحامى ممثلا لكنه مترجم يجب أن يتوافر فيه
الاخلاص فى الترجمة ، فاذا لم يكن مع المتهم بفكره وقلبه فكيف يستطيع
أن يدافع عنه •

✽ من أقواله : ها ان السماء تدوى وكأنها تكاد تنقض ، انكم
تسمعون عصف العاصفة وهزيم الرعد .. ان السماء ترمجر سخطا على
ما فى الأرض من ظلم ... انها تحتج معى على ظلمكم الاجراءات •

✽ هذه العقوبة التى اذا وقعت على مجرم جعلته يشك فى وجود
الانسانية فاذا وقعت على برئ جعلته يشك فى وجود الله •

✽ المترافع العظيم فى العصر الحديث يستفتح مرافعته بصميم
الموضوع وصميم الحجج حتى اذا انتهى من الصميم انتهت مرافعته ،
أما ما عدا ذلك من الزينة التى تزدان بها المرافعة ، فلا ينبغى أن تكون

زيادة تردد من جرأتها المرافعة ويقدر ما يبدو من جراء المرافعة ، ويقدر ما يبدو من الأصالة في المزيج بين الصميم وبين الزخرف ، ويقدر ما يسلم من التعامل والاصطناع ينبجح المترافع العصري في مرافعته .

✽ كان « هنرى روبير » يوصى المحامين بالتمرس والتدريب بأن يكتبوا دائما ويقرؤوا دائما ليتعلموا حسن الاداء فالمحاماه في جملتها حسن الاداء والتمرين العملى مدرسة المحاماة .

✽ ولئن قيل أن المحامى يشبه الممثل ان تبعات المحامى لأجل فالممثل يحفظ دوره عن ظهر قلب ليتلوه على متفرجين جاءوا ليستمتعوا أما رجل الدفاع فيواجه خصوما وقضاة اشربوا في قلوبهم الشك تساقط عليه المفجاعات من منصفهم لا يراعوا الاصطناع وانما يخضعون للاقتناع .

انتهى عصر القضية التى تنتظر وحدها في دور كامل ... وعودنا عصر اللاسلكى الى عصر تحطيم الذرة وكلما ألم المحامى بموضوعه يكون أنقذ بصيرة وأصح تعبيرا وحكما .

✽ والمحامى الجدير باسمه هو الذى يفهم قضائته أن مرافعته ليست له ولكنها لهم وأنهم لا يخضعون لنظامه وانما هو الخاضع لنظامهم .

فالمرافعة « فعل » و « رد فعل » وتوجيه للأذهان وظروف الزمان والمكان .

✽ ان محكمة النقض نفسها وهى محكمة قانون أولا ، تكاد تقضى بالعدالة دائما .

— اننى أطرح بين أيديكم شرف هذا الرجل وحرية ، وديعة مقدسة أودعكموها وستردونها اليه سالمة انكم تصدرون أحكاما ولا تؤدون خدمات .

٤ — سعد زغلول :

يعد الزعيم سعد زغلول زعيم الخطابة العربية في عصره ، فلقد درس في الأزهر دراسة جادة أعدته ليكون كاتباً نابغاً ومحامياً بارعاً ، وقانونياً قديراً ، وقاضياً من طراز فريد ، فهو أول محام مصري يعين بالقضاء ، فزاد من تقدير المحاماة وجلالها وقال في بعض مرافعاته :

(ان التهمة الموجهة الى السجينة هي الاعلام وهذا وحده كاف ليوحي لكم بالطابع الكتيب للمناسبة التي جاءت بى ويكم للوقوف وجهها لوجه) •

« ان الشموع تضاء وتطفى ، ولكن شمعة الحياة اذا أطفئت هل أحد منا يستطيع إعادة الضوء لها » •

وبذات المعنى يردد سعد زغلول قول الامام التقى على ابن أبى طالب (دولة الظلم ساعة ودولة العدل الى قيام الساعة) •

ونجد سعد زغلول يختتم مرافعته — وكان مدعياً بالحق المدنى « ان ما قدمته وان كان يوجب شفقة المحكمة الى المتهم الذى كالآلة الصماء فى يد من تؤثر أفكارهم وأقوالهم عليه ، الا أننى رأيت من واجب الذمة ايضاح الحقيقة • فليكن فى علم المحكمة أن وكلاء المتهم لا يمكنهم أن يأتوا بما ينفى التهمة مطلقاً وأعجب لهم كيف يتأتى لهم الكلام ولكن مع ذلك ستسمعون منهم أقوالاً مجوفة وشقشقة يحاولون بها التهميه على الأفكار ، وما تجديهم نفعا » •

وزيادة على ذلك يضطر رغماً عنه الى استعمال يديه رافعاً وخافضاً ومطوحاً شمالاً ويمينا ، واستعمال جسده مائلاً ومعوجاً متقدماً ومتأخراً • لأن ما فى أعماقه يود أن ينطق •

وبجانب ذلك كله يجب على المحامى أن يضع فى ذهنه دائماً مستوى

السلوك الاجتماعي لمقترب الجريمة أو المتهم فيها خصوصا وأن المشرع قد أعطى للقاضي السلطة التقديرية لوزن وملاءمة كل هذه الأمور •

ففي فروض كثيرة يمكن للقاضي وقف تنفيذ العقوبة وأيضا إصدار العفو القضائي بالنسبة للأحداث وغير ذلك من القرارات التي تتوقف على ملاءمة القاضي لظروف الواقعة وظروف مرتكبها كما هو الشأن في تخفيف العقوبة واستبعاد التشديد للعود وعموما سلطته في اعمال الظروف أو عدم الاعتداد بها •

• - لاشو :

وقف يتراجع يوما عن فتى قتل أباه وكان رئيس الجلسة صديقا له وكان الرئيس قد قال له : هذا متهم سيشتق على رغمك ؟ قال لاشو لست « متأكدا » - وتراهننا) •

ترافع لاشو ساعات وساعات دون أن يلمح على وجوه المحلفين الا الصدود ، لكنه سمع فجأة أجراس الكنائس تدعو لصلاة منتصف الليل في ليلة الميلاد فأملئ قليلا ، وقد تملكه الانفعال ، فواتته العبقرية بكلمات الساعة ، وراح يقول : في هذه الليلة السعيدة ، في هذه اللحظة المقدسة ، ولد هنا اله المغفرة اله السلام اله الرحمة ، انه عيسى في المهد يصبح بكم أن ترحموا ... اذكروا أن الرحمة العالية ليست بذات حدود ، ولا تكونوا أشد قسوة من الله نفسه •

• - الشيخ / محمد عبده :

كان الوقار والجلال والهيبة تفيض جميعا في أفقه كان يقول ان عمل القضاء فيما بينهم ه مشترك مستور لا تجوز اذاعة فضل لأحد دون غيره ، كان من أوائل القضاة جدا وذكاء ونزاهة واستقلالاً وكان علما من أعلام الدولة كان قاضيا كريم النفس واللسان •

ومن أقواله :

ان الرجل البار يحتمل في سبيل وطنه وآداء واجبه الكثير سواء في الأعمال الحرة أو في الأعمال الوظيفية بين مصاعب وأحداث لا تقل جسامه عما يحتمله الجندي في حومة الوعي هذا يتعرض للقتائف والنيران وهذا يتعرض لألوان لا عداد لها ولا وصف لها من الدس ومن النفاق ومن الطغيان •

وقال مخاطبا القضاة : أنتم المثل لما يجب أن يكون عليه العالم علما ودراية وسموا واجلالا ان القضاء في كل أمة هو أعز مقدساتها وهو الحصن الحصين الذي يحمى كل مواطن فيها حاكما أو محكوما من كل حيف يراد به في يومه وغده ومستقبله •

ومن ثم فأنتم مأمّن الخائفين وملأذ المظلومين وسياج الحريات وحصن الحريات •

الفصل الرابع

بعض مرافعات

النصف قرن الأولى من القضاء

جميعها حضرة صاحب العزة مصطفى حنفى بك^(١)

قضية مقتل المرحوم بطرس غالى باشا

أمام محكمة الجنايات المشكلة تحت رئاسة جناب المستر دلبروغلى
ويحضور حضرات أمين بك على وعبد الحميد بك رضا مستشارين
دور شهر إبريل سنة ١٩١٠

قطع من مرافعة حضرة صاحب السعادة عبد الخالق ثروت باشا
النائب العمومى

ان الجناية المطروحة عليكم اليوم ليست من الجنايات العادية ،
بل هى بدعة ارتج لها القطر بأكمله ، ابتدعها الوردانى وكان الى
اليوم طاهرا منها •

لم يكن من قصدى أن أطيل الكلام فى الجريمة من حيث ثبوت
ارتكابها ، فان المتهم سجل على نفسه باقراره سواء فى التحقيق أو
أمام قاضى الاحالة أنه قتل المرحوم بطرس باشا عمداً بعد سبق الاصرار

(١) عن الكتاب الذهبى — ص ١٩١ وما بعدها — المرجع السابق .

على القتل والترصد له ، ولكن الدفاع أسمعنا في الجاسسة الماضية ٣٣ شاعدا • سمعت شهادتهم وفكرت فيها فألقيتها تحوم من بعيد حول نقطة يريد الدفاع أن يدرك بها عن المتهم مسئولية القتل من جهة خاصة ، ويخفف بها مسئوليته عن الجناية من جهة عامة •

فكان لابد لنا من الكلام عن هاتين المسألتين وان كنا لا نرى هذه الطريقة التي يسلكها الدفاع الا بعيدة جدا في التأدية الى هذه الغاية •

وبعد أن تكلم سعادة النائب العمومي عن هاتين المسألتين بأسباب قال سعادته :

« الورداني بجنايته قد عمد الى خرق حرية القوانين السماوية والبشرية • عمد الى قتل النفس التي حرم الله قتلها • عمد الى ازهاق روح بريئة من غير ذنب • عمد الى حرمان انسان من أقدس حق له في هذه الدنيا • عمد الى حرمان عيلة من معيلها وأمة من رجاها وحكومة من رئيسها • عمد ، وأطاع هواه ، وأطلق رصاصته ، فماذا جرى ؟

فانظروا يا حضرات القضاة كم أساء الورداني بجنايته الى هذا البلد الأمين الأسيف ! فماذا جنت عليه مصر ؟ ولماذا هو يضرها كل هذا الضرر ؟ لعله يدعى بخدمة الوطن •

ان الوطنية التي يدعى المتهم الدفاع عنها بهذا السلاح المسموم لبريئة من مثل هذا المنكر •

ان الوطنية الصحيحة لا تحل في قلب ملأته مبادئ تستحل اغتيال النفس • ان مثل هذه المبادئ مقوضة لكل اجتماع •

فماذا يكن حال أمة اذا كانت حياة أولى الأمر فيها رهينة حكم متعوس يبيت أيلة فيضطرب نومه وتكثر هواجسه ، فيصبح صباحه ، ويحمل سلاحه ، يغشاهم في دار أعمالهم فيسقيهم كأس المنون •

ثم استطرد سعادة النائب العام في الكلام الى أن قال :

ماذا يريد الورداني ؟ أيريد ألا يكون حكم ولا حاكم ؟ أيريد أن تكون الفوضى بعد النظام ؟ أيريد ضرا ودمارا عاجلين ؟

هذه ، يا حضرات القضاة ، الغاية التي استحل الورداني من أجلها قتل النفوس ليصل بوطنه اليها خدمة له ومحبة فيه .

هذه هي الغاية التي ظنها شفيعا له لديكم ، وسببا لعطفكم عليه وشفتكم به .

ان جناية الورداني لأشد ضرا ألف مرة من جناية كل مجرم قاتل أو سارق أو قاطع طريق ، فان هؤلاء جنائتهم فردية وجنائية الورداني على أمته ووطنه . وهؤلاء يمكن الاحتراس منهم وهو يأخذ الناس في مأمهم غيلة وعلى غرة منهم وما لهم منه واق .

ان كان الورداني أراد بفعلته أن يخدم بلاده فلقد ساء طريقه الى هذه الخدمة . ان كان أراد أن يحييها من الجناية فلقد صدع كيانه صدعا ، وأضر بها ضرا بالغاً بتأطيفه صحيفتها بالدماء وقد كان أمامه لخدمتها طريق من طرق مشروعة .

كان في وسعه أن يحارب خصمه بغير ذلك السلاح القاتل ، فان كان على حق خرج من هذا النضال بطلا شريفا سائرا به وبنفسه الى خدمة الوطن ، لا أن يلقي اليه تلك الرصاصات ليذهب به الى عدم يسير اليه قاتلا أثيما . بثست المبادئ مبادئه ، ولعنة الله عليها باسم الانسانية التي انتهك حرمتها ، والحرية التي خرق سياجها ، والوطن الذي جنى عليه .

يا حضرات القضاة : الآن ببيدكم الأمر . ان هي الا كلمة تخرج

من أفواهكم لا تسألون عنها الا أمام ضمائرکم وأمام الله سبحانه
وتعالى ، وبها تبددون ظلمات أحاطت بالبلاد ، وبها تستأصلون جرثومة
خبیثة يخشى منها على عقول النشء • وأنا على يقين من أنکم ستجیبون
صوت الحق والعدل •

فالإنسانية تستصرخکم لما أصابها من جراء هذه الجناية الفظیعة
فتحكمون بالاعدام على هذا الجانى •

دفاع

حضرة الأستاذ محمود بك أبو النصر

لما دعینا للدفاع فى هذه القضية تمثل لنا ذلك الحادث الجلل
بناتجته وأسبابه ، فشرعنا بعظم المسئولية التى احتملناها أمام ضمائرنا
وأمام الله والناس • نعم أن المسئولية كبرى ما كنا لننقدم الى
احتمالها لولا ثقتنا بعدل القضاء واستقلاله •

حدث ذاك الحادث الأليم فعمت الدهشة البلاد ، واستحكم الذهول
فى بعض العقول ، فتسرع من تسرع الى اتخاذها مثارا لأحقاد وضغائن
يشهد الله أن لا وجود لها الا فى بیداء الخيال والوهم •

نعم سمعنا ، والأسف ملء قلوبنا ، سمعنا صیحة كانت أشبه
بأصوات الانتقام منها بتكیيف الحالة الواقعة • أو شك الجو بهذه
الصیحة أن یزداد ظلما فتشابه الأمر ، واتسعت دائرة المسئولية الجنائية
عن مركزها الحقیقى • أخذ البرىء بغير البرىء ثم سيقوا جميعا الى
المحاكم فلم یلاقوا من عدل القضاء واستقلاله سوى ما تعلمون • وكان
من نتائج هذا التحويل فى هذا الحادث والخروج به عن حد المعقول
وحقیقته الثابتة أن قام بیننا بالأمس ذاك الضیف الکریم يدعو بما
لا يعرف • لیته وقف بتهجمه عند حد البحث — خطأ أو صوابا — فى كنه

ذلك المصاب العظيم ، ولكنه أجلس نفسه ظلما على منصة القضاء وأصدر حكمه في قضيتنا كما يشاء (يقصد بذلك خطبة المستر روزفلت التي تهتم فيها الأمة بالتعصب الديني) •

أجل يا حضرات المستشارين • لا مثل هذه الصيحة المنكرة ، ولا ما هو أشد وقعا منها ، واجد سبيلا الى نفوسكم الكبيرة وعقولكم الرزينة في تقدير مسئولية الورداني • ذلك الذي اختارته الأقدار ليكون حكمكم في حادثته مظهرا جديدا من مظاهر الاستقلال القضائي في محاكمنا الجنائية • اختارته ليكون حكمكم في قضيته برهانا ساطعا على وجود تلك الضمانة الكبرى في قضائكم المتعالي عن الشبهات • اختارته ليكون حكمكم في هذه الظروف اثباتا شافيا للناس عن معنى ذلك الثبات الكامل ، والسكينة المطلقة ، والتجرد عن كل شيء الا عن النظر الحر في تلك الحادثة مع رعاية الظروف والأسباب فلا تهزمكم صيحة ، ولا يؤثر في رأيكم ضوضاء •

ثم أخذ الأستاذ أبو النصر يتكلم عن سبق الاصرار والسبب الذي دفع المتهم الى ارتكاب جريمته • وبعد أن انتهى من كل ذلك تقدم الى المحكمة بطلب الرحمة • ومما قاله في ذلك :

لا أريد بالرحمة أن تتجاوزوا للمتهم عن شيء مما يستحقه عدلا ، لأنني لا أقول ان الرحمة فوق العدل ، بل أقول ان الرحمة هي أقصى وأسمى مرتبة من مراتب العدل • فاذا طلبتها فانما أطلب العدل في أرقى معانيه •

أطلب العدل المجرد من كل مؤثر • ذلك العدل الذي يقضى بقصاصين ، مختلفين اختلافا كبيرا ، على شخصين ارتكبا جريمة واحدة في ظروف متشابهة لما يتبين فيهما من اختلاف الطبائع ، وتغاير المقاصد وتباين الأسباب •

أنى على ثقة تامة من أنكم ستقدرون لهذا المتهم من زمان العقوبة ما يصلح تقديره مثله . وبديهي لديكم أن قليل العقوبة عنده يعادل كثيرها عند غيره من المجرمين العاديين .

رب ساعة واحدة في السجن تعادل شهرا أو أياما . العقوبات مقدرة ، وأرقامها في سلم العدل ما روعيت فيه أحوال الإرادة صحة واعتلالا وقوة وضعفا ، وهو ما لا سبيل إليه الا باعتبار الشخصيات الذاتية لكل منهم ، والظروف الخصوصية لكل تهمة . فإذا اقتضى العدل أن تعاقبوا فلتكن العقوبة على هذا المبدأ القويم .

فاحكموا وسيحفظ التاريخ حكمكم في هذه القضية ليكون آية من آيات العدل . فلا تنسوا للمتهم ما قدمته من الاعتبارات ، وعلى الخصوص تحرر عمله من سبق الاصرار ، وتطلب الأسباب على إرادته وتأثيرها في مزاجه العصبى الى الحد الذى عرفناه .

دفاع

حضرة الأستاذ أحمد لطفى بك المحامى

ترافع الأستاذ أحمد بك لطفى عن المتهم وطلب من المحكمة اعتبار الواقعة مجرد شروع في قتل لأن الوفاة لم تنشأ عن الاصابات التى أحدثها به المتهم . وكذلك طلب أن يوكل الى طبيب اختصاصى فحص المتهم لتقدير مسؤوليته عن الجريمة التى ثبتت عليه . ويعد الانتهاء من دفاعه خاطب المتهم بما يأتى :

أما أنت أيها المتهم

فقد همت بحب بلادك حتى أنساك ذلك الهيام كل شئ حورك ،

أبيك واجبا مقدسا هو الرأفة بأختك الصغيرة وأمك الحزينة فتركتهما
يكيان هذا الشاب الغض ، تركتهما يتقلبان على الجمر • وتركتهما
يقلبان الطرف حولهما فلا يجدان غير منزل مقفر غاب عنه عائلته • تركتهما
على ألا تعود إليهما وأنت تعلم أنهما لا يطيقان صبرا على فراقك لحظة
واجدة فأنت أملهما ورجاؤهما •

دفعك حب بلادك الى نسيان هذا الواجب ، حجب عنك كل شيء
غير وطنك وأمك ، فلم تعد تفكر في تلك الوالدة البائسة وهذه الزهرة
اليانعة ، ولا فيما سينزل بهما من الحزن والشقاء بسبب ما أقدمت عليه •

ونسيت كل أمك في هذه الحياة ، وقلت أن السعادة في حب الوطن
وخدمة البلاد ، واعتقدت أن الوسيلة الوحيدة للقيام بهذه الخدمة هي
تضحية حياتك ، أى أعز شيء لديك وادى أختك ووالدتك ، فأقدمت على
ما أقدمت راضيا بالموت لا مكرها ، ولا حبا في الظهور • أقدمت وأنت عالم
أن أقل ما يصيبك هو فقدان حريتك ، ففى سبيل حرية أمك بعثت حريتك
بثمن غال •

فاعلم اذا أيها الشاب أنه اذا تشدد معك قضائك — ولا أخالهم
الاراحميك — فلذلك لأنهم خدمة القانون وهذا هو السلاح المسلول في يد
العدالة والحرية،واذا لم ينصفوك — ولاظنهم الا منصفيك — فقد أنصفك
ذلك العالم الذى يرى أنك لم ترتكب ما ارتكبته بغية الاجرام ولكن
باعتماد أنك تخدم بلادك ، وسواء وافق اعتقادك الحقيقة أو خالفها فتلك
مسألة سيحكم التاريخ فيها • وان هناك حقيقة عرفها قضائك وشهد بها
الناس وهى أنك لست مجرما سفاكا للدماء ، ولا فوضويا من مبادئه افنتك
ببنى جنسه ، ولا متعصبا دينيا خلته كراهية من يدين بغير دينه • انما
أنت مغرم ببلدك ، هائم بوطنك ، فليكن مصيرك أعماق السجن أو جدران
المستشفى فان صورتك فى البعد والقرب مرسومة على قلوب أهك
وأصدقائك • وتقبل حكم قضائك باطمئنان واذهب الى مقرك بأمان •

مرافعة

حضرة الأستاذ ابراهيم الهلباوى بك

بعد أن تراءف الأستاذ الهلباوى فى القضية وبين الظروف التى ارتكب فيها الحادث وحالة المتهم العصبية ختم مرافعته بالكلمة الآتية :

خدمت نحو الخمسة والعشرين عاماً محامياً ، ولم يخطر ببالى يوماً أن أسأل أو أقرأ سبب اختيار الرداء الأسود حلة رسمية للمحامى الذى يتشرف بالدفاع بين يدى القضاة ، ولا سبب انتخاب اللون الأخضر لأوسام الذى تزان به صدور من عهد اليهم اصدار الأحكام النهائية •

أما الآن وقد أبعدت عن قلبى هذه القضية كل راحة ، وجعلتلى مرآة لتلك القلوب المتفطرة كام المتهم وشقيقته وباقى أهله ، قلت أن كان مختار هذه الألوان أراد باللون الأسود رمز الحداد والمصائب للمحامى الذى يمثل القاتم هو الدفاع عنه ، وبالألوان الأخضر الذى يتحلى به صدر القاضى ، الرمز الى الطاووس ذى الريش الأخضر وهو مثال ملائكة الرحمة نعم الاختيار •

كأننا نحن ، هنا فى هذه القاعة ، أمام أولئك القضاة المشبهين بملائكة الرحمة على سطح هذه الأرض ، نقوم — على نوع ما — بمأمورية شبيهة بمأمورية تلك الأحبار فى هياكلهم الذين اتخذوا مثلنا ثياب الحداد وهم يتضرعون الى مبدع السموات والأرض بأن يفيض على الأرواح الذاهبة الى دار الخلود سحب رحمته وغفرانه • ونحن هنا نقول لكم انكم تذكرون أنه ليس دائماً بمقدور لهذا الانسان الضعيف أن يحمى نفسه من الخطر والزلا ، وأن يعيش معيشة الملائكة ، فنتقبلوا دعائنا فى طلب الرحمة للأحياء كما يتقبلها

من أقالكم حكما في عبادته ، والذي علمنا أنه كما أن من صفاته العدل فإن من صفاته الرحمة ، وعلمنا فوق هذا أن الرحمة فوق العدل .

الآن لي كلمتان أوجههما الى المتهم بين يدي القاضى : الأولى أنى اذا كنت قاسيا عليه في نعمته فلأنى خاضع لقانون ليس دائما — من سوء البخت — ملتئما في أحكامه مع ما توصى به الذمة والضمير ، لأنه مضطر في أحوال كثيرة — رعاية لسلامة المجتمع البشرى وصيانتة — أن ينظر نظرا آخر في تعريف الطرد والحرام ، ونحن المحامين أحق الناس بالأدب والخضوع لهذا القانون . فاذا قبل الدفاع عذرك أيها المتهم وعرضه على قاضيك فعليك أنت أيضا أن تتقبل قبولا حسنا عذر الدفاع فيما خالفك فيه من عقائدك السياسية . الثانية أنى اذا أنزلتك منزلة المجرمين العاديين وطلبت لك الرحمة والغفران ، فلأن ذلك واجب أيضا يقتضيه الدفاع . ولكن اذا أثبت نفسك أن تعيش بين السلاسل والأغلال ، وأن تعيش معاملا معاملة الإشتقاء وقطاع الطريق فارفع نفسك عن هذا السبيل ، واقبل نبال الموت بقلب البوasl ، فالموت آت لا راد له ان لم يكن اليوم فعدا . اذهب الى لقاء الله الذى لا يرتبط إلا بعدالته المجردة عن الظروف والزمان والمكان ، اذهب مودعا منا بالقلوب والعبرات . اذهب فقد يكون في موتك بقضاء البشر عظة لأمتك أكثر من حياتك . اذهب فإن قلوب العباد اذا ضاقت رحمتها عليك فرحمة الله واسعة .

اذا كانت قلوب العباد قد ضاقت رحمتها من المتهم فانه يرجو من قضاته أن تتسع رحمتهم له . . واذا لم يسعفه لا هذا ولا ذلك فإن رحمة الله واسعة وسعت كل شيء .

مرافعة

حضرة صاحب السعادة عبد الخالق ثروت باشا

النائب العمومي

لدى المحاكم الأهلية

في قضية المؤامرة نمرة ٩١ جنابات سائرة الأربكية سنة ١٩١٢
المتهم فيها أمام واكد محمود طاهر العربي ومحمد عبد السلام
في دور أغسطس سنة ١٩١٢

ان أول كلمة أففتح بها مرافعتي اليوم هي حمد الله على وقاية
البلاد من نكبة لم يشهد التاريخ مثلها •

امتدت منذ عامين يد أئيمة أودت بحياة كبير الوزارة المصرية اذ ذاك
فأصابته بموته كبد الأمة المصرية فتتلازمت عناصرها ، وتنافرت قلوبها ،
وتمثلت في الأقطار — بعد أن كانت مثال الهدوء والطمانينة — أمة هائجة
ماتجة ليس لأحد بينها اطمئنان على نفس ولا مال •

بلاء عظيم وخطب كبير ! ما كانت البلاد لتخلص من نتائج
المشؤومة ، وعواقبه السيئة ، ولا ما أتاح الله لها من أمير رحيم برعاياه ،
محب لشعبه ، أخذ بحكمته وعلى مقدرته يعمل بمعونة رجاله ومشيريه على
تقويم ما كاد ينقض من دعائم سعادة البلاد ، وتجديد ما غشى سمعتها من
السوء ، ومداواة ما أصابها •

بينما كان سيد البلاد يحفظه الله يعمل على مداواة هذه الأدواء ليل
نهار لا يعتريه في ذلك ملل ، ولا تثنيه عنه مشقة ولا تعب ، حتى أخذت
الأمة بفضل تلك الأجهاد الشريفة تتنسم نسيم الاتفاق بعد الانشقاق ،

والانتماء بعد الانقسام ، أخذت بشائر الأعمال تبعث في النفوس الآمال
بتحسين الحال ، وأضحت الأمة تلمح بريق اليسر بعد العسر ، والفرج بعد
الشدة كانت أبان ذلك تختمر من وراء ستار عزائم شر وخبت ، من ورائها
كبير البلايا والمصائب •

نعم كانت هناك فئة من الأغرار المفتونين طاشت أحلامهم ، وعميت
بصائرهم وقلوبهم ، وخبت نفوسهم فلم يروا من النور الا ظلاما ، ومن
اليسر الا عسرا ، ومن الخير الا شرا ، ومن النظام الا ظلما ، ومن وجوب
المحافظة على اقلنون الا استعبادا ورقا •

فئة عطلت عن التربية الصحيحة ، وتسمنت عقوamهم بشر المبادئ
فلم يروا للبلاد — وهى فى طمأنيتها سائرة فى طريق سعادتها — خيرا من
اراقة الدماء فيها أنهارا ، والايذاء بنفوس عالية غاية تدأب أبدا لخير
أمتهم البريئة مما كانوا يفعلون •

ألم يروا خيرا من قتل كبار البلاد المخلصين لها ، خيانة وجبنا ،
واغتيال الأرواح الطاهرة المطمئنة ، خلسة وخسة ، هؤلاء هم أولئك
المتهمون المائلون أمامكم اليوم ليلقوا جزاء شرورهم وسوء ما كانوا
يدبرون ، وان فى تاريخهم لبرة •

ثم أخذ سعادة النائب العام يتكلم عن تاريخ حياة المتهمين وأخلاقهم
وشعورهم نحو حكومة ذلك الوقت ، مستشهدا على ذلك بما كان يكتبه
المتهمون • ثم أخذ فى سرد وقائع الدعوى وتكلم عن التطبيق القانونى ثم
ختم مرافعته بما يأتى :

الآن يا حضرات المستشارين ، وقد قمت بواجبى فى هذه القضية
من شرح أدوارها وتفصيل وقائعها وبيان أدلتها ، لم يبق الا كلمة أوجهها
اليكم خصيصا أنادى بها فيكم الحكمة والنظر البعيد •

أنادى الحكمة والنظر البعيد ولا أنسى أن فيكم معهما الرحمة
ر العادل •

كان لنجاة البلاد من كبرى الكوارث هزة وضجة حمدا لله
على دفعها •

ولكن عثم هذا الشعور ما أدركه الحكماء منا أن الداء الذى كنا نأمل
أن أولى جراثيمه قد أتى عليها القضاء العادل من عامين ، قد ولد جراثيم
أخرى هى فى :خطر مع الأولى سواء •

أدرك الحكماء منا ذلك • وأدركه بعدهم الناس عامة فملئوا ذعرا
ورعبا ، وحق لهم أن يذعروا من أن تصبح الأرواح الغالية تحت رحمة
أغرار لا عقل ولا تربية •

ان أشد ما ينتاب بلادا من الفوضى والاضطراب أن يصاب حكامها
وساستها فى طمأنينتهم على أرواحهم من جراء قيامهم بالواجب المفروض
عليهم •

انى أخشى أن أزيد رعب الناس ان قلت ان الداء الذى نخشاه هو
ذلك الخطر الجلل ، ولكن خير لنا أن نعلم من أنفسنا الآن ما قد نأسف
على معرفته يوما لا ينفع الندم •

نعم خير لنا أن نعرف مقدار هذا الخطر الداهم ، فما أشد الحالة
التي يصبح فيها الانسان رهين حكم متهموس قد يرى فى كلمة أو عمل ،
هما خير ما تقتضيه الظروف وتمليه الحكمة الصحيحة والعقل الراجح ،
مثارا للقتل ومسوغا للاعدام •

اننا أمام تيار جارف ان لم نقف فى سبيله نزل بعقول سفهاء شبابنا
الى منزلق فيه بلاء البلاد •

لقد بدأ هؤلاء الشبان يفكرون في استباحة القتل واراقة الدماء
تخلصا مما صور حمقهم من الشقاء قبل أن يفكروا في الخلاص من جهالتهم
التي هم فيها يعمهون •

ان هذه الأفكار الطائشة الخطرة كالسلاح في يد المجنون الهائج ،
ان لم يعجل بنزعه منه قوة واقدارا كانت العاقبة وبالا •

وعلى من هذا الواجب الخطير الشريف ؟

أنه عليكم الآن يا حضرات المستشارين •

امحوا هذه الأفكار الخطرة ، وانزعوا هذا السلاح القاتل •

انزعوه من أيدي هؤلاء المفتونين قبل أن يصيب البلاد شره
المستطير •

انزعوه بحكم ترضاء الحكمة وأصالة الرأي •

انكم بذلك لا تكشفون الرحمة والعدل ، بل تزيدونهما رواء وجمالا •

أليس من الرحمة والعدل أن تحموا أرواح الأبرياء ؟

أليس من الرحمة والعدل أن تبعثوا الطمأنينة في القلوب الواجفة ؟

أليس من الرحمة والعدل أن ترحموا صغارا كالغصون الرطبة

أوشكت أن تلتوى على الشر تقليدا أعمى للمتهمين وأمثالهم ؟

قد أجهدت نفسي في هذه القضية حتى أطمأن ضميري واقتنع بأن
من وضع القانون يده عليهم هم الجناة العاتون ، فقدمتهم للقضاء العادل
لينالوا جزاء شرورهم وسوء ما كانوا يدبرون •

قدمتهم وأنا راج أن ما اقتنعت به بحق في اجرامهم سيقنع ضمائرهم
بعد الروية والنظر الصحيح •

قدمتهم وأنا مؤمل أنكم ستقفون حيال شرور كثيرة وتردون عن
البلاد بؤسا وشقاء كان المتهمون مجلبة له •

أنتم يا حضرات المستشارين من خيرة أبناء البلاد وأعرف الناس
بأحوالنا وأدوائنا ، فزنوا نتائج ما كان المتهمون مقدمين عليه •

زنوا نتائج ذلك ونتائج حكم حكيم يمحو هذا السوء ، ويقينا ثبر
ماكاد يدهمنا ، وما نحن منه موجسون •

زنوا ذلك وعلّموا صغار الأحلام والطائشين أن اللعب بالنار فيه
أذى وآلام وحرق وسقام •

ان هي الكلمة تنطقون بها ترجو الأمة أن يكون من ورائها عبرة
كبرى لأمثال هؤلاء المتهمين فلا تقوم لهم من بعدها قائمة •

قد كان شديدا علينا يوم أن جر على البلاد ما فعله السفهاء من
ضرورة سن قانون الاتفاقات الجنائية • ذلك القانون الاستثنائي الذى
فى وجوده مسببة على أمن الديار ، وحجة قائمة على أننا دائما تحت
خطر الاضطراب والهياج •

كان ذلك علينا يوما عصيا ، لن يهون شقاءه ويخفف منه
الا الأمل فى ألا يشهد المستقبل ذلك اليوم الذى تمس فيه الحاجة الى
العمل به •

كم كنا نأمل ألا يأتى ذلك اليوم الكريه ، ولكنه أتى على أشنع
ما نكره وأشنع ما كنا نخاف •

أتى ذلك اليوم العصيب ، وتوافق هؤلاء الأشرار على قتل رؤوس
البلاد وحماتها ، وهل بعد ذلك من مصيبة ؟

• توافقوا على ارتكاب هذه الجريمة الهائلة التي لا يمكن أن ينطق هذا القانون على جريمة أغظع منها •

أن كان شديدا علينا أن يوجد بين قوانيننا مثل هذا القانون فاننا — بعد أن قدر علينا أن تقع هذه الجريمة في ديارنا — لا مناص لنا من الاعتراف الآن بأنه السلاح الوحيد الذى نستأصل به اليوم هذه الجريمة الفاسدة •

نعم هو سلاحنا الوحيد فى ذلك قد وضعناه فى أيديكم نسألكم أن تصرعوا به هذا الشر الذى بدت نواجهه وكثر عن أنيابه •

أصرعوه بأشد ما فى القانون الذى بيدكم •

ليس فى ذلك من قسوة ولا تحيف فما أشد ما نحن فيه من الظروف !

قضية اغتيال المأسوف عليه السير لى ستاك باشا سردار الجيش
المصرى والتهمة فيها عبد الفتاح عنایت وآخرون أمام محكمة
جنايات مصر المشكلة برياسة حضرة صاحب السعادة أحمد عرفان
باشا وعضوية كل من المستر كرشو ومحمد مظهر بك
فى دور شهر مايو سنة ١٩٢٥

مرافعة

حضرة صاحب السعادة محمد طاهر نور باشا

النائب العمومى

قبل أن أشرح لحضراتكم وقائع هذه الحادثة المؤلمة التى لم يشهد
تاريخ الحوادث الجنائية فى مصر مثلاً ، أكرر أسف الأمة على مصابها
فى قائد جيشها الذى قتل من أيد أئيمة وهو قائم بخدمة مصر التى لا تنسى
له خدمته كما لا تنسى جميل كل من أحسن عملاً فيها .

نعم قد جزعت الأمة لمصابها فى قائد جيشها ، لجنسية ارتكبها فئة
من الأغرار المفتونين الذين طاشت أحلامهم ، وعميت بصائرهم فخرجوا
على إرادة أمتهم ، وانتحلوا لأنفسهم سلطة القضاء فى مهام لم يناطوا
بها . جزعت لهذه الحادثة جزعا بآدى الأثر ، فقد أظهرت مصر من
أقصائها الى أقصائها اشمئزازاً ونفوراً أوجت بهما عاطفة حميمة كاملة
فى نفوس هذا الشعب الذى يأبى أن يحقق آماله الشريفة الا بالوسائل
المشروعة .

استفطعت الأمة هذا الجرم واستنكرته ، واشتدرك فى هذا

الاستتكار والاستفطاع الصغير والكبير ، وعلى رأس الجميع مولانا
المعظم جلالة الملك حفظه الله •

ان مصر أم الحضارة والمدنية قديما ، والتي لا تتكر منزلتها في عالم
العلم والحضارة حديثا •

مصر انقى يضرب بحسن ضيافتها الأمثال وشعارها (أحرار
في بلادنا كرماء لضيوفنا) •

مصر ، مثال الهدوء والطمأنينة ، قد تمثلت في البلاد الأخرى
بسبب هذه الكارثة والحوادث السابقة عليها أمة هائجة ليس لأحد فيها
اطمئنان على نفس أو مال ، حيث قالت عنها بعض الصحف الأجنبية :
« ان من الصعب الاعتقاد بأن أى أسف أو اعتذار أو تعويض يعوض عن
اعتداء من شأنه أن ينزل مقام مصر الدولي الى منزلة أمة نصف متمدنة ،
فانه ليس من المحتمل أن تنتظر الأمم الأخرى ذات المصالح في مصر نظرة
التساهل الى هذا الاعتداء » • وألقت صحف أخرى تبعة هذه الجناية على
الشعب المصرى الذى تأصلت في نفسه العقيدة الدينية وهى تحرم قتل
النفس وتتهى عنه ، والذى يعرف حق المعرفة أن وسائل العنف والاجرام
أكبر جناية على الوطن •

ما خلت بلاد من المغتالين ومن حوادث الاغتيال • وقد وقع الاجرام
على المصريين ذاتهم قبل أن يقع على سواهم ، وكنا نأمل أن أولى جرائمه
قد يأتى عليها القضاء العادل ، ولكنها مع الأسف الشديد قد ولدت جرائم
أخرى أشد خطرا وأعظم هولا جرت على البلاد شرورا كثيرة ، أضرت
بسمعتها ، وأورثتها من المشكلات والخسائر ما يقتضى اضناء العقول
واجهاد القوى زمانا طويلا لتلافيه ودرء عواقبه •

هذه الجرائم الخطرة التى تولدت عن الجرثومة الأولى كان سببها

افلات بعض الجناة من يد العدالة ، فكانوا حربا على البلاد هم ومن كانوا على شاكلتهم من المتهوسين ضعيفى النفوس أمثالهم ، فاختاروا طريقا لا يجدون فى مصر من يوافقهم عليه أو يجاريهم فيه •

انحدرت هذه النفوس الضعيفة فى مأوى الجريمة والاثم بسبب تلبد الجو السياسى ، ورأوا أن وسائل العنف والاجرام با'خيانة والجبن تخدم البلاد وتنبليها أمنيتها ، وفاتهم أن العنف على مختلف صورته وأشكاله لا يمكن أن يجر على مصر وقضيتها الا الضرر والفساد ، ولم نسمع فى تاريخ أى أمة — حالها كحالنا — أن هذه الوسائل الاجرامية أنالتهما أمنيتها •

فاتهم أن أشد ما ينتاب البلاد من الفوضى والاضطراب أن يصبح الأمر فيها بيد فئة من المفتونين اختلسوا الحق فى اقامة أنفسهم مقام الحكم والمنفذ ، فى أمور لا يكون الحكم فيها الا للامة بأسرها •

فاتهم أن بلادا يصبح فيها الانسان رهين حكم المتهوسين لا تقوم ولن تقوم لها قائمة حتى يترك ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله •

فات هؤلاء الأغرار أن الاستقلال لا يكفى لصوننا ورفع مقامنا ، بل يجب أن نعرف كيف نصون استقلالنا • فبنشر التعليم واعلاء شأن الأخلاق والفضائل ، وتوثيق عرى الاتحاد بين أبناء الأمة ، نتمكن من صيانة استقلالنا ونقبوا المكان اللائق بنا بين الأمم المتمدينة •

وبعد أن شرح النائب العمومى وقائع الدعوى ، وأتى على تاريخ حياة المتهمين ، وكيف توصل المحققون الى معرفتهم ، والأدلة التى قامت عليهم قال فى ختام مرافعته :

قد شرحت لحضراتكم أدوار هذه القضية ، وفصلت وقائعها ، وقد

أجهدت نفسى فيها حرصا على العدل وعلى سمعة البلاد كما قدمت •

وقد وضعت العدالة يدها على من عاثوا فى الأرض فسادا • عبثوا
بالقانون لعواطف شريرة غلت فى صدورهم فأصمتهم عن صوت العقل ،
وأعصتهم عن نور الحق •

لقد اطمأن ضميرى واقتنع بأن من قدمتهم للقضاء العادل لينالوا جزاء
شرورهم هم الجناة السفاكون ، وأرجو أن ما اقتنعت به ، بحق ، سيقنع
ضمائركم فتمحون هذه الأخطار الخطرة ، وتردون عن البلاد بؤسا وشقاء
كان المتهمون مجلبة له •

نحن الآن ، يا حضرات المستشارين ، أمام خطر داهم ان لم نقف
فى سبيله سرنا الى الهاوية •

فعلى حضراتكم أولا ، ثم على كل مصرى خبر الحياة وعالى
الأخص قادة الأفكار فيها ، واجب خطير شريف ، ان الامة المصرية تمقت
بطبيعتها الاعتداء وقتل النفس التى حرم الله قتلها ، حانقة أشد الحنق
على هذه الفئة الضالة التى اتخذت سفك الدماء صناعة ووسيلة ، ونرجو
أن يكون من وراء حكمكم العادل عبرة وذكرى لأمثال هؤلاء المتهمين حتى
لا يعود صغار الأحلام والطائشون الى اللعب بالنار • ولكن هذا العلاج
وحده لا يكفى لاستئصال المرض من أساسه •

نعم ان قصاص القضاء العادل سيعيد الى البلاد حظا وافرا من
السكينة يمكنها من أن تسير فى طريق التقدم والارتقاء — ذلك الطريق
الطويل الكثير العثرات ، فاذا ما سرنا بحكمة وأصالة رأى قطعنا الطريق
فى وقت قصير قضى سوانا فى اجتيازه وقطعه قرونا • والحكمة تقضى
بالقضاء على هذا المرض الذى وان كان محصورا الآن فى فئة من الأغرار
ضعيفي العقل الا أنه يخشى أن تسرى عدواه الى شبابنا الفاهض الذى

تفخر به البلاد ، ولها فيه رجاء عظيم ، يخشى أن تسرى اليه هذه العدوى فتلتوى هذه الغصون الرطبة على الشر . وهالك الطامة الكبرى .

وها هي نصيحة جلالة الملك المحبوب الساهر على سعادة بلاده والعامل على اعلاء شأنها مسطورة في خطاب العرش يجب أن تكون منقوشة في صدر كل مصر لما فيها من العلاج الشافي .

الآن ، يا حضرات المستشارين ، قد قمت بواجبي في هذه القضية فأطالب منكم أن تستأصلوا اليوم هذه الجرثومة الفاسدة بأشد ما في القانون ، فليس في ذلك من قسوة إذ نحن في ظروف شديدة توجب ذلك .

— ٧ —

دفاع

الأستاذ الهلباوى بك عن شفيق منصور

قبلنا هذه المأمورية :لقاسية ، مأمورية أن نكون لسان حال هؤلاء التعماء ، ونحن نعتقد أننا أمام محكمة تصمم آذانها عن كل ما هو خارج عن موضوع الدعوى . تقدر ظروف الاتهام وظروف الحادث والأدلة كما تقدرها في القضايا الأخرى . هذا رجاء زاد تحققا عندما أعلن سعادة الرئيس في جلسة أول أمس أن هذه المحكمة لا تعنى بشئ من السياسة وأنها تقصر نظرها على المسائل العادية كما تنظر الى بقية القضايا . زدنا ايمانا بأنها تحقق العدل فتعاقب بقدر الجرم ، وتبريء من تعتقد فيهم البراءة .

نعتقد هذا . ولكن ، يا حضرات المستشارين ، الظروف التي أثرت في هذه القضية ، والنتائج التعمية التي لحقت بالبلاد ، من المستحيل — ونحن نؤدى هذه المأمورية — ألا نتأثر بها . ولكن هذا التأثير يجب

أن يقف عند حد ، هو ما يعنى القاضى عندما يقدر أسباب الجريمة ،
وعندما يقدر النتائج التى ترتبت على الجريمة ، وعندما يقدر حالة المتهم
وتربيته . تلك هى الأركان الأربعة التى نعتقد أنها ستكون بحسب القانون
أساس بحثنا فنقف عندها .

سعادة النائب العام بدأ مرافعته بأن وصف شفيق منصور بأنه
زعيم العصاة التى ارتكبت هذه الجريمة . ونحن مع اعترافنا بحسن
تقديره ، وبالنتائج الباهرة التى وفق إليها فى تحقيق هذه القضية
نستسمحه فى أننا نخالفه فى هذا .

ثم أخذ حضرته يشرح موقف شفيق منصور من التهمة كشرىك فى
الجناية ويتكلم عن التطبيق القانونى بالنسبة له . ثم قال :

عرضت على حضراتكم أنكم الآن تعالجون مرضى أصيبوا بجنون
الوطنية . وأريد أن أنكم عن شيوع هذه الجرائم ، وهو يدعو أحيانا الى
التشدد فى العقوبة ، وهو يدعو أحيانا الى التلطف فيها .

فالجريمة التى وقعت والتى أخذت بعض الجرائد الانجليزية تتدد
بها علينا ، والتى أنتجت الانذار البريطانى الذى يقول اننا لا نستحق من
أجلها أن نكون بين الأمم المتحضرة ، هذه الجريمة من واردات أوروبا .

ان أوروبا التى تمن علينا فى كثير من الأحيان بأن ما نحن فيه من
حضارة هو من ناحيتها ، يجب أن تقبل أيضا ، الى حد ما ، أن الجرم
السياسى هو من ناحيتها أيضا . فام يكن الجرم السياسى موطنه هذه
البلاد أبدا ، بل لقد أتى مرض القتل السياسى من الغرب مع مرض
الزهرى تماما . يجب أن تقبل أوروبا هذا أيضا ، فهى ملوثة فى جميع
أرجائها بمثل هذه الجرائم ، وبأنغظ منها .

أكبر صيحة نرفعها في وجه معلمتنا أوروبا أن ٩٠ في المائة ممن
جروا في هذا السبيل هم الذين طرحت بهم المقادير وتعلموا في ربوعها .
لك جناية خلقية ، لا غربية ولا شرقية .

نريد استئصال هذه الجرائم . القاضى مهما كان لديه من الوسائل
لا يستطيع القضاء على الجرائم . أحسن علاج أن تعيش الأمم خاضعة
للنظام . اعدام غلامين أو خمسة أو ستة مثل هؤلاء السفهاء لن يعمل
فيينا على اصلاح الداء . انما يرجع الداء الى أن الأمم ينبغي أن تعيش
فيما بينها محترمة لقواعد النظام .

فمعظم العلماء يميلون الآن ، أيضا في أوروبا التى نتعلم عنها ،
الى نبذ عقوبة الاعدام . فايكم ، ولو أنى أمام محكمة فى أمة صغيرة غير
معروف للعرب أنها تعطى حكما وأمثلة للعدل — ولكن ليس للعدل وطن ولا
للحكمة دار — اذا استطعت أن أقدم بين يديكم أن هذه العقوبة علاج
خطير تنفس منه النفس الا فى الأوقات الخطرة فانى أستطيع أن أقول
صونوا الهيئة الاجتماعية من خطر هؤلاء السفهاء . انتفعوا من قوة هؤلاء
الشبان فقد ينفعون اذا تابوا ، وقد تصلح المقادير من أمرهم . وخصوصا
وأن عقوبة الجرائم السياسية مبنية دائما على خطأ فى التقدير . هؤلاء
البغاة يذكرون أنهم ارتكبوا الجريمة بحسن نية . هم كالجنون الذى
يتوهم خوفه من البرىء فيقتله . فى عرفهم هو قصد الخير . أنا لا أطلب
منكم أن تحترموا هذا ، وانما وأنتم ترنون قدر العقوبة عليكم أن تترنوها
بقدر فكر الجانى . أعفى القانون القاصر من عقوبة الاعدام لأنه عرف أنه
لا يقدر تمام التقدير الظروف كما .

هم مرضى . عرضوا على طبيب ينظر فى أمرهم دون غل ولا حقد .
أنتم تعالجون مرضى الأرواح كما يعالج الطبيب مرضى الأجسام .

ومن أجل هذا أستطيع أن أقول أن هؤلاء المجرمين يستحقون
عدلكم .

هذه الدار تمثل رحمة الله في الأرض فأطلبها منكم هؤلاء الأغرار .

هناك سبب أتضرع اليكم أيضا بأن يكون سبب رحمة . هذه الجريمة
كان يرمى خطرها الى ايذاء العلاقة بين مصر وانجلترا فكان ما لا بد منه ،
أن تتدخل السياسة الانجليزية . وقد تدخّلت ، واحتملت ممسر أن
تكفر عن هذه الجريمة . دفعت تعويضا لا يقل عن نصف مليون جنيه .
فهؤلاء الأغرار الأشرار حملونا كل هذا المصائب . لهم الحق أن يقولوا لكم
ان سعادة النائب العام قال (ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب) .

اتفقت كامة الأكمة على أن دفع الدية ينفي توقيع العقوبة . وقد
دفعت مصر الدية فأرجو أن تدخّلو ذلك في اعتباركم .

فأرجو أن يعرف الانجليز أننا أمة تعرف الجميل وتعرف الرحمة
فنرجوا ألا يؤاخذونا بما فعل السفهاء منا .

قليل لكم أمس أن هذه هي القضية الأولى من نوعها التي تعرض
على القضاء المصري ، وأنا أعتقد أن عودة القضاء فيها الى نظامه
العادي قد جعلتها بين أيدي قضاة ممن تتشرف بهم الأمم فيما يتعلق
بصيانة المصالح ، فأؤكد اكم أن الطمأنينة قد عادت الى كثير من البلاد .

لا أقول ان الانجليز غير عادلين ففخر الأمة الانجليزية عدالتها .
لكن اذا اعتر المصري بعودة قضاته الى النظر في أموره كلها فانما هذا
تريضية لشعوره واحساسه بالعبء الذي يلقي على عاتقه .

**يا حضرات المستشارين : اهل الاتهام جميعا يتقدمون لكم طالبين
الرحمة مع اعتراؤهم بما حدث .**

يا حضرات استشارين :

فرض القانون — فيما فرض ضمانا احسن سياسة القضاء واقامة العدل بين الناس — أن لا يتقدم متهم أمام هيكل قضائكم الجنائي دون أن يرافقه في هذه الرحلة الأليمة محام يتولى الدفاع عنه — محام يشترك معكم في شرف خدمة القانون ويرتفع عن أوساط المتهمين الى الوسط الذى يفهم فيه معنى العدالة كما تفهمونه أنتم ، ويقدر أغراض الشارع التى وكل اليكم تحقيقها كما تقدرونها ، فيعرض عليكم المتهم كما يجب أن يعرض — بريئا أو مذنبا — ويصور لكم العواطف التى اجتاحت نفسه وعصفت بوجدانه فأفقده أسى ما يتحلى به الانسان في انسانيته ، وأرقى ما يطمح في السمو ليه من فضيلة الرق والضحية والتسامح التى لو سادت لما اجتزم مجرم جرمه ، ولما قامت الحاجة لنظام القضاء •

أوجب القانون هذا ، مع افتراض أن يكون بين هؤلاء المتهمين معترف أو متلبس بجريمته دون أن يحرم هذا الفريق من هذه المساعدة ، أو يقال من أهميتها بالنسبة له ، فكان قضاؤكم باطلا اذا لم يسترشد بدفاع المحامين الذين أصبحوا ركنا أساسيا في القضاء الجنائي تسعى الى تحقيق قيامه نفس السلطة التى تقيم الدعوى اذا قصر المتهم في حق نفسه فلم يسع اليه أو حتى اذا رفضه هو رفضا باتا •

فلم يكن هذا الواجب عبئا ، يا حضرات المستشارين ، لأن المهمة التى شرفنا الشارع بتقليدنا اياها — مهمة الدفاع عن المتهمين أمامكم — لا تقوى النفوس البشرية أن تجمع بينها وبين مهمة القضاء • فنفس

القاضى وهو يجاس للقضاء عرضة لتنازع العوامل المختلفة ، والأهواء المتباينة • بحكم مركزه يتبين مصاب المجنى عليه ، فيتصور حال من أصابهم الجانى يجنايته ليقدر مبلغ أثرها فيهم ليسترشد بذلك فى حكمه • وعليه أيضا أن يتبين نفسية المتهم ، وما تفاعل فى نفسه من الأغراض والشهوات ، ومبالغ أثرها فى حسن تقديره لما أقدم عليه • على القاضى أن يحيط بهذا وذلك وهو بغير شك عرضة للخطأ فى التقدير بين مختلف هذه الأهواء والشهوات • ومن هنا وجدت الحاجة الى من يقيم الدعوى ومن يدافع فيها ، ليتفرغ القاضى الى وزن ما يعرض عليه دون اجهاد فى البحث عما يجب أن يعرض •

لهذا كان شرف المحاماة عظيما بهذا المكان الأسمى الذى حلت فيه تحت هذا النظام ، ولهذا جئنا ندافع أمامكم عن هؤلاء المتهمين تقديرا منا لهذا الشرف رغم ما أرجف به الكثيرون من تشويه جمال هذا الموقف الذى نقفه كمحاميين نرتدى هذا الرداء ونخلع فيه عن أنفسنا كل رداء آخر قد يعطل من جهودنا فيما لو أعرناه الثقافتنا وجاريننا هؤلاء المرجفين فى اعارته اعتبارنا •

يظن العامة ، يا حضرات المستشارين ، أن اعتراف انتهم باجترام الجرم يخفف عبء القضاء على القاضى ويهون له سبيل الحكم فى الدعوى •

لقد ضل العامة فى زعمهم • وأمامكم الفرصة سانحة لخدمة العدالة بالقضاء على هذه الضلالة •

إذا أنكر المتهم وأقيمت عليه البينة كان عمل القاضى هينا فهو لا يتقيد الا بالعمل المادى ، وهذا قد أقيم عليه أدليل فلا ينبغي الا توقيع العقاب فيوقعه القاضى وهو قرير العين ، طيب النفس للخدمة التى أداها للمجتمع •

أما المتهم المعترف بجريته فيقدم لقاضيه وسريته على كفيه
ببسطها أمامه مطالبا إياه بأن يحل نفسه محله ، ويتصورها محوطة
بظروفه ، وأن ينزل الى دركه في الفهم وفي مبلغ أثر الحوادث فيه —
يطالبه بكل هذا لأن القضاء لا يقوم الا بتفهم هذا جميعه • ومن أجل ذلك
ترك لكم ذلك المدى الواسع بين أقصى العقبة وأدناها • والمفروض في
جميع الأحوال أن الفعل المادى واحد ، ولا يجيء الفرق في الحكم
الا لاختلاف ما يفهمه القاضى من جميع تلك العناصر المختلفة والأهراء
المتباينة •

لهذا كانت مأموريتمكم ، يا حضرات المستشارين ، حال المتهم المعترف
أشق وأدق منها في أى ظرف آخر • حتى في حالة الجريمة التى يعتذر
المتهم عنها باحدى شهوات النفس الأولية كالانتقام والغيرة والسرقة
للفاقة والغضب لعدم ضبط العواطف •

فإذا كان هذا هو حالكم في تبين تلك الشهوات الأولية فكم يكون
واجبكم أشق اذا كانت مقدمات الجريمة تشبك فيها العواطف وتأخذ
فيها الشهوات بعضها بأعناق بعض ، وتتناقض فيها الحالة النفسية للمتهم
الواحد تناقضا لا يتفق مع النتيجة على ظاهر الحال ، ولا يمكن فهمه الا
بالجهد والعنت •

لهذا كان اشفائى عظيمًا على نفسى ، وعلى حضرات زملائى ائذين
كلفوا بالدفاع في هذه الدعوى عن المعترفين من المتهمين ، وكان اشفاقا
أعظم على حضراتكم ، وفي أعناقكم مسئولية الحكم وعليكم وحدكم
تبئته ، وضمائركم بين ضلوعكم تستحثكم لتلمس قبس النور في هذا
الظلام الحالك فلا تكادون تتبعونه حتى يفتقى • وبدون هذا القبس
لا تملكون الحكم ولا تذوقون طعم الراحة اذا أنتم حكمتم •

حضرات المستشارين : ستخلون الى أنفسكم اذا ما فرغنا نحن من

القيام بواجبنا ، وستعرضون أمام خيالكم الجريمة بما أحاط بها من ظروف مفعجة ، وما ترتب عليها من نتائج بعيدة المدى قد يكون من أثرها تعطيل تقدم البلد أحقابا أو أجيالا • ستعرضون أمام خيالكم المجنى عليه عائدا من بلاده بعد أن قضى فيها شهور راحته ، وتاركا وراءه اخوانا وخلانا على أمل لقائهم قريبا — عائدا ونفسه مملوءة بالآمال في المستقبل وقلبه مغمم بالمشروعات التي ينوى أن يخدم بها وطنه •

وسياتى حتما في هذه الصورة خيال زوج ذلك الشهيد وفخرها واعتزازها بهذا الذي يمثل لها الرجولة الحققة ، وأملها في أن يخلد لها من الذكر الطيب ما يشتريه الناس بأرواحهم كاسبين • ستمثلون هذا جميعه وغيره مما يعرض للمفكر عميق التفكير ، وتتصورون أن تلك الحياة النابضة وذلك الجسم القوى وتلك المواهب والآمال تنهدم في لحظة واحدة ، فاذا بقائد الجيش لا يقوى على الكلام ، واذا بالموت يتسلل اليه برغم من أحاط به من أصدقاء وأحباب ، واذا بالبرق تتجاوب أسلاكه بخبر الفاجعة ، واذا بالرجل المملوء حياة ونشاطا طالما ملا بهما ميادين القتال رهين حفرة تضيق به ويضيق بها •

يا حضرات المستشارين : اذا ما تعاقبت هذه الصورة المفزعة أمامكم فثارت نفوسكم للحق ، وهمت بتوقيع العقاب على المجرم ، فتذكروا أنكم ورثتم أولياء الدم في نظام القضاء الحديث ، ولكن الارث انتقل اليكم بعد أن تجرد من عاطفة الغضب والانتقام — انتقل اليكم القصاص العادل ، القصاص الذى فيه الحياة • فتذكروا هذا ولا تنسوا أن للمسألة وجهها آخر يجب استعراض صورته كذلك استعراضا دقيقا قبل أن تقولوا كلمتكم الأخيرة ، وبها تتعلق أرواح هؤلاء الأغرار •

ثم أخذ حضرة المحامى يترافع في موضوع الدعوى ويشرح

للمحكمة المؤثرات التي دفعت هؤلاء المتهمين على ارتكاب جريمتهم الى أن قال في ختام مرافعته :

تذكروا يا حضرات المستشارين اذا ما وضعتم القلم على القرطاس وقبل أن يجرى به قضاؤكم أن هؤلاء الشبان قضا أعواما انغمسوا فيها في الجريمة دون أن يكون لهم في ذلك مصلحة .

تذكروا أن لهم عائلات يلبسها حكمكم السواد ، وامهات واخوات تخفض قلوبهن حنوا وعطفا ، وتجزع نفوسهن هلما واشفاعة وان لهم عليكم ديناً لا تملكون سداذه اذا حكم القضاء . خاطروا بأنفسهم وتعرضوا للموت قتلاً أو حكماً في سبيل مصر بحسب معتقدهم ، والأعمال بالنيات ، وهذا دين يشغل ذمة كل مصرى ، عليكم فيه نصيبكم ، فلعلكم موفون في حكمكم باقالتهم من عثرتهم ، وانكم باذن الله لفاعلون .

مرافعة النيابة العمومية

في قضية الجنائية رقم ١٠٤ لسنة ١٩٢٦ الخاصة

بالاغتيالات السياسية

في دور شهر ابريل سنة ١٩٢٦

محكمة جنائيات مصر

المشكلة بزياسة المستر كرشو وعضوية حضرات كامل ابراهيم بك

وعلى عزب بك

- ٩ -

مرافعة

حضرة صاحب العزة مصطفى حنفى بك

رئيس نيابة الاستئناف

في هذه القاعة ، ومن خمس عشرة سنة مضت ، وقف حضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا النائب العمومي لذلك العهد وأحد المجنى عليهم في قضية اليوم ليترافع في أول اعتداء سياسى حدث في هذه البلاد يوم أن أطلق الوردانى رصاصاته على صدر بطرس غالى باشا • فقال يصف الاجرام السياسى •

(وهنا ذكر حضرة رئيس النيابة العمومية بعض فقرات من مرافعة المرحوم عبد الخالق ثروت باشا في قضية مقتل المرحوم بطرس غالى باشا) •

بمثل هذه الكلمات البليغة ، والنصائح الغالية التى صدرت عن رجل خبر الدهر ، وعرك الأيام ، خاطب النائب العام قضاته وهى كلمات

ان حقت في أول اعتداء سياسى ففى أحق اليوم بعد أن قضت مصر
خمس عشرة سنة تثن من هذا الداء الوبيل ، وبعد أن تعدد ذلك النوع
من الاعتداء حتى أقلق الذين يهتمهم أمر هذه البلاد •

ومع أن المحكمة أجابت نداء النائب العام فقضت باعدام المتهم
الا أن هذا العلاج لم يستأصل الداء تماما • فان كان الوردانى قد
أعدم فقد بقى شفيق منصور ومن على شاكلته أحرارا طليقين يقتفون
أثره ، ويعملون عمله ، وينشرون مبادئه الى أن انتهى بحادثة السردار
تلك الحادثة الأليمة التى فجعت لها الأمة والتي اصطدمت بآمال مصر ،
بل لست مبالغا ان قلت لكم ان تلك الرصاصات الطائشة التى أطلقها
المتهمون على السردار انما هى رصاصات صوبت الى صدر مصر •

وبعد أن أخذ رئيس النيابة العمومية في سرد وقائع الدعوى ذكر
تاريخ الاجرام السياسى في مصر قال :

حضرات المستشارين :

الآن انتهى واجب مهنتى ، وبقي واجب وطنى • وان كانت هذه
المهنة قد منعتنى في الماضى أن أدلى برأىي في هذه المسألة التى أقلق
البال أعواما طويلا ، فان هذه المهنة نفسها هى التى أوقفتنى اليوم
هذا الموقف فأناحت لى فرصة قلما تسنت مرة أخرى ، فمن الواجب ألا
أتركها تمر دون أن أقول كلمة في سبيل بلادى ، لا أكون في هذه الكلمة
الا معبرا عن رأىي الخاص دون أن أمثل أحدا •

لقد ظل الاجرام السياسى في مصر عهدا طويلا بدأ بمقتل المرحوم
بطرس غالى باشا وانتهى بمقتل المأسوف عليه السردار وبين الفقيدين
ضحايا أخرى سقطوا في ميدان الشهوات السياسية •

لقد بدأ التحقيق دولة عبد الخالق ثروت باشا وانتهى به سعادة

طاهر نور باشا وبين النائبين العموميين نواب عموميون آخرون من ذوى العقول الراجحة ، والأفكار الثاقبة • وقد وضعوا نصب أعينهم مصلحة بلادهم فعملوا على إبرائها من هذا الداء الوييل فبحثوا ودققوا وبذلوا جهودا كبيرة فى هذا السبيل • فان كانت المجهودات التى ظلت زمنا طويلا لم تنتج الا اتهام عشرات من الأشخاص فمن العدل أن نقرر هنا أن هؤلاء المتهمين أقلية بل أقلية تافهة لا تعبر الا عن رأيها فعليهم وحدهم أن يحملوا مسئولية أعمالهم ، وعليهم وحدهم أن يحملوا تبعاتها •

واذا كانت هذه التحقيقات أيضا لم تثبت وجود أية صلة بين هذه الفئة القليلة ، وبين أية هيئة سياسية فمن الانصاف أن نقرر هنا أن مجموع الأمة برىء من هذا الاجرام •

حضرات المستشارين : قد يكون من حسن حظنا جميعا أن يعرض الأمر برمته على هذه المحكمة وهى أكبر هيئة قضائية مختصة فى هذه البلاد لتقول كلمتها • وقد تكون الكلمة التى تصدر منها هى أقرب الكلمات الى صدور الأمم المتعدنية •

لقد رأيتم بأعينكم وسمعتم بأذانكم كيف كانت الأمة تتفجع عند وقوع كل حادث ، وكيف كان ينبىرى الزعماء الى تقبيح هذه الأعمال ، وبين ما ياحق البلاد من جرائمها ، فصم المتهمون آذانهم عن سماع أنين مصر ونصائح الزعماء • فكلمة منكم يا حضرات المستشارين قد تخفف آلاما تحماتها الأمة بصبر ، وتقضى على أراجيف أذيعت عن هذه البلاد بغير حق •

ستحكمون بإدانة المتهمين أو ببرائتهم حسبما تستريح اليه ضمائركم الطاهرة ، ولكتم ستقضون حتما أن مصر بريئة من الاجرام والمجرمين وستظل سائرة فى طريقها المشروع نحو غايتها المنشودة رافعة راية السلم حتى تنبؤا بين الأمم مركزا يليق بتاريخها الخالد المجيد •

نفاع الاستاذ مكرم عبيد

لقد أثارت هذه القضية بين الناس تباين نزعاتهم وأهوائهم شديد اهتمامهم وكامن عواطفهم ، وهذا طبيعي لأن القضية سياسية • والسياسة كانت ولا تزال عاطفة ، وسوقا لكل شهوة ، وميزانا لكل ضعف وكل قوة • ولقد نتج عن هذا الخلط بين السياسة والقانون أن اختلطت في القضية أسباب الحق بالباطل ، والعدل بالظلم ، والصدق بالكذب حتى أصبحت مجمعا لكل تناقض ومضريا لكل مثل •

غير أن القضية قد أثارت أيضا هواجس الناس ومخاوفهم ، وهذا غير طبيعي ، لأن القضايا يقصد منها أولا وقبل كل شيء الوصول الى العدل ، والعدل تطمئن له النفوس ولا تجزع •

ولكن الناس خافوا — وحق لهم أن يخافوا — لأنهم خشوا في هذه القضية ذات الأهمية الاستثنائية أن يختل لها التوازن القانوني قبل أن تصل الى حرمة القضاة ، فتجر الى اجراءات استثنائية في الاتهام والتحقيق ، ومن طبيعة الاستثناء أنه لا يعرف حدا ، لأنه لا يعرف قاعدة ، بل هو ضد كل قاعدة ، ولا يعبأ بعدل أو مساواة لأنه لا مساواة مع استثناء ، ولا يخضع لضمان لأنه لا يرى ضمانا الا في هدم الضمانات ، ثم ان الاستثناء هو الفكك من كل قيد • ومن سوء حظ البشرية أن هناك نفوسا اذا لم تكبح تجمع ، واذا لم ترعو لا تستحي ، وهناك نفوس تجزع ، ونفوس تطمع • هكذا فالاستثناء ، مهما تلطفنا في تسميته ، هو الظلم بعينه لأنه يفتح الباب لكل شهوة •

ثم أخذ حضرة المحامي يتحدث عن تصرفات البوليس في هذه القضية وعن وجود جمعية سياسية للقتل السياسي ثم انتهى من مرافعته بالكلمة الآتية :

يا حضرات المستشارين : لقد انتهى واجبى كمحام • ولا ريب أن واجب المهنة يتطلب كثيرا من الصنعة ، وأنه فيما بين الأورق والدوسيهات وشهادة الشهود والالتزام والدفاع يخلق جو خاص هو جو المحاكم ، وكثيرا ما تضيق على المتهم شخصيته في وسط هذا الزحام العلمى ••• فيصبح المتهم ويمسى فاذا به قد تحول الى نظرية قانونية أو دليل يتراشقه الخصمان ، النيابة والمحاماة ، فهو في نظر النيابة مندمج في الاتهام وفي نظر المحاماة هو عبارة عن الدفاع ••• أما شخصية ، أما حريته ، أما عولطفه فهي في نظر الاتهام مسألة ثانوية طالما أن القضية (مخدومة) •

وانى أؤكد لحضراتكم أنه ليس أقسى على المتهم من هذا التجرد عن شخصية ، هذا التكر من أهله وجنسه ، فاذا دخل فالى سجن ، وإذا خرج فالى قفص •

يجب ألا ننسى أن المتهم الذى هو في السجن نمرة هو في بيته حياة ومحبة • يجب أن لا ننسى أن المتهم الذى هو في نظر النيابة اتهام هو في الوقت نفسه أب وزوج وولد وأخ وصديق •

فلا تعجبوا إذن ، يا حضرات المستشارين ، اذا كلمتكم عن هؤلاء المتهمين كأشخاص وبشر ، فأنتم والله الحمد لستم قضاة أوراق ، كما وصف حضرة قاضى الاحالة نفسه • أنتم — وانى لأرتجف من هول ما أنتم — أنتم قضاة نفوس بشرية أودع الله مصيرها في كلمة تخرج من أفواهكم ، فأنتم لسان الله وصوت القدر • فاقضوا إذن بيننا وبين شقيق منصور ، ذلك الجرم الذى قضى الله عايه مرات عديدة قبل أن يقضى عليه بشر ، اقضوا بين ضعفنا وقوة من اذا قال قدر ، فأنتم أقوى وأنتم أقدر •

مرافعة

حضرة صاحب العزة مصطفى حنفى بك

رئيس النيابة

فى قضية الجنائية رقم ٣٦٦ بندر الجيزة سنة ١٩٢٧ الخاصة
بالاعتداء على المسيو سلامون شكوريل ، وقتله المتهم داريو جاكويل
وأخرين أجنب •

حضرات المستشارين :

اسمحوا لى أن أؤدى واجبى ، فأعيد الى ذكراكم حادثا أليما ،
ذاك الجرم الشنيع الذى ارتجت له أركان البلاد وتفزعت منه نفوس
الناس : قتل تاجر من أكبر التجار وأطيبهم نفسا وهو وادع فى
بيته ، آمن فى سره ، وترملت سيدة كريمة لم تستوف بعد سن الشباب ،
وتيتيم أطفال صغار مازالوا بحاجة كبيرة الى جناح الأب الرؤوف •
أقصد بهذا مقتل المأسوف عليه المسيو سلامون شيكوريل بشارع
الجيزة • ذلك الرجل الذى لم أكن أعرفه من قبل ولكنى عرفته من خلال
التحقيق : رب عائلة على أحسن ما يكون ، وزوج من أبر الأزواج ، ووالد
من أطيب الآباء ورئيس شفيق بمرؤسيه • فقد تبينت كل هذه الصفات فى
العيون الباكية ، وتلك الوجوه العابسة التى كانت تتم عما فى نفوسهم من
حزن وأسى • حتى لقد كان كل منهم يرى المصاب مصابه والفقيد فقیده
فأبو أن يذهب هذا الرجل الى داره الأخيرة الا محمولا على أعناقهم •

حضرات المستشارين :

أنتم من شيوخ القضاة ، خبرتم الدنيا فنقتم حلوها ومرها • وفى

هذه الساحة المقدسة ساحة القضاء كعادل سمعتم شكوى المظلومين وسمعتم أنين الحزونين ، ورأيتم كيف تفقد الزوجة زوجها والأم ابنها والابن أباه في ظروف وحشية قاسية ، وأرسلتم كثيرين الى منصة الانعدام بحكم القانون وأنتم هانئون مطمئنون . ولكن قلنا ان تكونوا في خبرتكم الماضية رأيتم شيئا فظيعا كالذى أعرضه عليكم اليوم ، رجل آمن في بيته بين زوجته وأهله ، يؤخذ قهرا ليذبح كما تذبح الأغنام ، على مرأى من زوجة التي كادت تموت أسى وفزعا . اثنا عشرة طعنة في صدر القاتل وظهره ، فارق بعدها الحياة وهو يتوسل اليهم بكلمات تذيب الحجر الصلب « خذوا كل شيء واتركوا لى الحياة » .

والذى يزيد الأمر فظاعة أن اثنين من المتهمين أكلا خبز القاتل وملحه ، بل لايزال ما في بطن أحدهما من نعمة هذا السيد . فما استطاعت هذه التوسلات أن تدخل الرأفة على تلك القلوب القاسية .

قبل أن آتى على تفاصيل هذا الحادث أريد أن أدلى بكلمة شكر لحضرات المحققين الأجانب وأذكر منهم القاضى الايطالى جناب الكافاليرى امبالومينى والقنصل الشيخ باباداكيس وقاضى القنصاية اليونانية على المساعدة الكريمة التى أسدوها لينا في تحقيق هذه القضية والتي كانت من الأسباب التى أدت الى النجاح .

ولقد ظهر بأجلى وضوح أن التضامن بين رجال التحقيق خير انوسائل للوصول الى الحقائق . وقد تكون هذه القضية من المرات القليلة التى تلاقى فيها القضاء الأجنبى بالقضاء الأهلى ، وعندى أن مثل هذا التلاقى سيكون له أثر بعيد المدى للوصول الى الغاية التى ننشدها ، وسيعود بنا بخطوات سريعة نحو ذلك اليوم الذى تصبح فيه هذه التحقيقات بين أيد مصرية هى أشد ما يكون حرصا على اقامة العدل . لقد قام البوليس المصرى بواجبه فأضاف صحيفة جديدة الى صفحه المجيدة ، وقام المحققون من الأجانب والوطنيين بواجبهم وسيقوم القضاء

الأهلى بواجبه • وانا لمنتظرون بنفوس هادئة وبقلوب مطمئنة أن يقوم القضاء الايطالى واليونانى بواجبهما أيضا بما عرف عن هاتين الأمتين من حب العدل والانصاف •

ثم أخذ حضرة رئيس النيابة فى سرد وقائع الدعوى والتطبيق القانونى وأتم مرافعته بالعبارة الآتية :

يحق لى الآن ، يا حضرات المستشارين ، بعد أن تقدمت اليكم بهذه البيانات الكافية ، وتلك الأدلة القاطعة أن أطلب الى حضراتكم أن تقضوا عدلا باعدام المتهم •

نعم ان عقوبة الاعدام ان تعيد الى الضحايا ارواحهم ، ولا الى الأيامى أزواجهن ، ولا الى اليتامى آباءهم ، ولكنها مع ذلك أقمى ما تصل اليه العدالة البشرية • أما عدالة الله فستكون شديدة ، جزاء وفاقا لما جنت أيديهم •

وامت فى حاجة لأن أعيد على مسامعكم تلك الحكم التى دعت المجتمع الانسانى فى كل العصور أن يلجأ الى هذا العقاب الصارم فهو ليس انتقاما بل عبرة ، وفيه مع ذلك عزاء للقلوب الحزينة ، وتهدة للخواطر المضطربة ، وتطمين للنفوس المتزعجة •

ولن تعيروا ، يا حضرات المستشارين ، أى وزن لرأى الذين يقولون أن بعض المتهمين لا يقضى عليه بهذه العقوبة ، وأن من العدل أن يسوى بينهم جميعا • نعم أن القانون الايطالى ألغى عقوبة الاعدام واستبدل بها عقوبة أخرى ، ولكن رب حياة شر من الموت ، ورب موت خير من الحياة •

لقد قضى القانون الايطالى على هذه العقوبة منذ نحو أربعين عاما ، ولكن القوم من ذلك الحين يشعرون بحاجتهم الى هذا الجزاء الرادع ، بل

لقد أعيد فعلا في جرائم خاصة • وعندى أنه لن يمضى زمن طويل حتى تعود هذه العقوبة الى ما كانت عليه •

ولقد استبدلت بعقوبة الاعدام في ايطاليا عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة التي تعرف عندهم بالأرجسولا • وشتان بين هذه العقوبة ، وبين عقوة الأشغال الشاقة المعروفة عندنا •

وقد قال المستر بوستن بروس في مقال منشور في مجلة "Law Quarterly Review" وصفا لهذه العقوبة ما يأتى :

« فما الأرجستولا الا اعادة لذكرى تلك الأحوال التى قاساها عبيد الرومان فى تلك السجون المظلمة » وهى السجون التى وصفتها بحق اللادى هاملتون كنج بقولها :

« ان هو الا اسم من الشر ، وشئ من الشر ، وجهنم على الأرض لا تمر بخاطر من كان فيه وساوس الأمل » •

ومع أن هذه السجون قد أدخل عليها من التحسينات ما استدعاه تقدم المدنية والاعتناء بالوسائل الصحية فهى لا تزال مقر الأشقياء ومقبرة الأحياء •

قضت المادة ٣٦٦ من القانون الايطالى بأن حكم على من يقترب جريمة القتل المقتربة بجريمة أخرى بالأرجستولا •

والأرجستولا هى ، كما تقول المادة ١٢ من القانون المذكور ، عقوبة مؤبدة تنفذ فى محل خاص يوضع فيه المحكوم عليه بالسجن الانفرادى

لمدة السبع سنين الأولى بالاستمرار مع ملزوميته بالشغل ، وبإبقى المدة
يصرح له فيها بالأشتغال مع غيره من المحكوم عليهم مع التزامه الصمت .

وبحسب المادة ٦٧ من هذا القانون يزداد على مدة الحبس الانفرادى
المستمر مدة سنة الى خمس سنوات اذا اقترف الجانى عدة جرائم معاقب
عليها بعقوبات مقيدة للحرية وكانت احدى هذه العقوبات هى الأرجستولا .

وقال المسيو ادموند توريل المحامى بايطاليا فى مقدمة عن قانون
العقوبات الايطالى :

« ان الأرجستولا هى أكبر عقوبة فى القانون ، وهى مؤبدة يترتب
عليها حتما نظام الحبس الانفرادى فى أقصى أشكاله » .

وقد يفزع الذين يحكم عليهم بهذه العقوبة ، ويستولى عليهم اليأس
حتى يبحثوا عبثا عن الموت ، بل ثبت أن كثيرين لا يحتملون هذا العذاب
المستمر فيموتون مبكرين ، وكثيرا ما يفقدون عقولهم .

وبودى لو كان لديكم من الوقت ما يسمح أن أتلو على حضراتكم
ما قاله النواب الايطاليون عندما طلبوا اعادة عقوبة الاعدام لبعض
الجرائم الى القانون الايطالى فقد نعتوه أنه أشد هولاً من حكم لاعدام
اذى استبدل به .

والحق أصارحكم ، يا حضرات المستشارين ، لو أن هذه العقوبة
كانت فى قانوننا المصرى لرصيتها لمتهمى قانعا بأن المجرم قد نال
ما يستحق من عقاب .

ومع ذلك ما لى أنا لهذا البحث الذى استهوانى فأبعدنى عن موضوع

مرافعتي • فنحن في مصر ، وانقلبوا والمقتول مصريان ، فانظروا حضراتكم الى قضيتنا بعين مصرية ، والشرائع الوضعية كما تعاون تتغير بتغير الزمان ، وتختلف باختلاف المكان ، فما يصاح لمصر قد لا يصاح لغيرها ، والعكس بالعكس •

ان ظروف هذه القضية قاسية تدعوكم الى استعمال القسوة ، فلا تجمعوا للرافة منفذا الى قلوبكم • وان لنا من عمل المتهمين انفسهم مثلا ، فقد ابوا ان يرحموا القاتيل فلا حق لهم في الرحمة ، وابوا ان يراقوا بنويه فليس لهم ان يطلبوا الرافة •

قد توسل اليهم ان يتركوا الحياة ويأخذوا ما عداها فابوا الا ان يكونوا قتلة مجرمين ، وسقوه كاه الموتى ، فعلى المتهم ان يجزع بالكأس التي سقاها فريسته • قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى » •

فان كان سلامون شيكوريل قد مات بفعل الغدر والخيانة ، فليمت دارو جوكويه باسم القانون وكلمة الله ، والجزاء من جنس العمل •

لم يكن داريو جاكويل فقيرا ولا معدما دفعته الحاجة الى السرقة والقتل ، بل هو شاب نشأ في بجموحة من العيش ، ولو شاء لعاش شريفا ومات شريفا ، ولكنها نفس شريرة تصبو الى الجريمة بغير حاجة ولا سبب • ومع انه لا يزال في ريعان الشباب وزهرة العبا فد سار في طريق الاجرام شوطا بعيدا ، بل بلغ في قصر من الزمن اقصى مدها فدل بهذا على أنه عضو فاسد يجب ان يبتز وجرثومة خبيثة يجب ان تستأصل •

لست أخاطبكم بلسان النائب فحسب ، بل أخاطبكم بلسان زوجة تزلت وهي في زهرة شبابها ، وأبناء تيتيموا وهم في حاجة الى مساعد

أبيهم ، أخاطبكم باسم هذه المدينة التي ما تجرعت من قبل هذا النوع من الاجرام •

وأنشدكم أن تاحظوا ما نحن فيه من ظروف ، فقبل هذه الجنائية حدث حادث آخر ذهب بحياة رجل وولده من يد مجرم أثيم حقت فيه كلمة القضاء •

أخاطبكم كزوج واب أشعر بمرارة الجرم وفظاعة ، وأرجو ، يا حضرات القضاء ، ان أنتم خاوتم الى خلوتكم المقدسة لتتلقوا بكلمة العدل أن تذكروا أنتم أيضا أنكم آباء وأزواج وأن تذكروا قوله تعالى وهو أصدق القائلين : « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب » •

— ١٢ —

مرافعة

حضرة الأستاذ صادق العجيزى وكيل النيابة

في قضية الجنائية رقم ٢٧ وايلي سنة ١٩٢٧

المتهم فيها أمين همام حماد أفندى عضو مجلس النواب

وآخرون بقتل الصحفى (شرف)

هذه هى عقلية حضرة النائب • وشخص يمثل هذه العقلية وتلك الأخلاق لا يمكن أن يكون الحكم عليه حكما على الأمة • وليس هذا بالدفاع الذى يقال فى صدد تهمة فردية لا علاقة للسياسة والأحزاب بها • وما كانت النيابة يوما ما بمانعة القصاص • ففى أول الحرب حوكم كايو الشيخ والوزير الفرنسى ، وفى آخرها حكم على بوتوملى من أظهر نواة انجلترا وأحد كتابها ، وفى مايو سنة ١٩٢٦ حكم على النائب

الانجليزى سكلاتفالا • وفى كل يوم يسقط نواب وشيوخ ووزراء تحت سيف الجلاذ ، ومع ذلك لا تتأثر الشعوب ولا البرلمان ولا الأحزاب التى ينتمون اليها • فاقضوا قضاءكم العادل وأنتم مطمئنون الى أن الحكم بادانة النائب لن يصيب معة مصر بسوء • انطقوا بحكمكم الفصل وأنتم على ثقة من أن الأمة والبرلمان سيرفعون رؤوسهم مفاخرين بعدل قضاتهم • وطهروا البرلمان ممن لا يستحقون شرف النيابة عن الأمة ، وأفهموا المنتخبين أن يحسنوا الاختيار ممثليهم ، وأفهموا أمين همام أن النائب وان كان يملك التشريع فانه لا يملك القضاء ولا التنفيذ • أفهموه أنه قد جاوز اختصاصه عندما نصب نفسه قاضيا على (شرف) وقضى عليه بالموت وأقام خادمه جلادا له • كونوا قساة فى حكمكم بقدر ما فى هذه الجريمة من الفظاعة والخروج على القانون •

مرافعة

الأستاذ عبد اللطيف دهمود رئيس النيابة

فى قضية الجنحة رقم ١٤ دايرة عابدين سنة ١٩٣١ الخاصة

بنشر مقال « حفلات الطرب ألى يكن الفقراء أولى بها ؟ »

بجريدة السياسة

يا حضرات المستشارين :

لا نقرر نظرية جديدة اذا قلنا أن الصحافة هى مدرسة الأخلاق ، وهى مهذبة النفس ، القائمة على الشعوب لتعليمها وترقية مداركها بما يجب أن تقدم لها كل يوم من بحوث شاملة لجميع نواحي الحياة فى أكرم لفظ وأقوم تعبير •

فالرجل الذى ينال شرف الانتساب اليها ، والاستغـل بها يجب أن يكون له من نتاج قـامه ، خير مثل يقدمه ان يقرؤه ، وأن يكون له من خـقه أحسن قدوة لمن يطلعه •

ولقد كان بالود أن يكون حال الصحافة فى مصر كحال الصحافة فى البلاد الأخرى • لا تعرف فى لغتها الا الترفع فى القول والأدب فى التعبير والاحترام لحرية الأفراد والجماعات ، والتباعد عن المطاعن ، والضـن بكرامتها عن الاختلاق ، وبهذا يمكنها أن تصل الى غرضها الذى وجدت له ، فتؤدى مهمتها السامية بدون عبث أو خروج •

غير أنه مما يؤلم أن تجتاز مصر زمنا طاشت فيه الأقلام ، فخرجت عن اعتدالها ، وجاوزت مهمتها ، وهذا راجع الى تطرق عناصر ، أنزلت من قدرها ، وحطت من شرفها •

ولقد زادت المبادئ التى قررتها بعض الأحكام ، اللابسات خاصة على ما أعتقد ، استرسالا فى غيرها ، واستهتارا بما تقضى به مهمتها ، وتجاوزوا لكل حد فى تعبيراتها ، فأصبح الأمر فوضى ، حتى لقد ظن أن الشذوذ هو القاعدة ، وأن الطعن مهما يكن جارحا فهو جائز ، وأنه يصح للكاتب أن ينال من شرف الناس ، ومن سمعتهم ، تحت ستار أنه نقد مبـاح •

على أن هذه الأحكام على ندرتها قد وضعت شرائط للنقد لم يرد بعض الكتاب أن يفهمها على حقيقتها توصلا الى اساءة الاستشهاد بها •

ولئن كان من أهم أسباب نزول الصحافة عن مستواها الذى يجب أن تكون فيه دخول هذه العناصر التى لا تقدر الأدب قدره ، أو تعرف للصحافة حقيقة مهمتها ، فلطالما علنا النفس بأمل أن يقوم المثقفون من رجالها ، بتقويم اعوجاجها ، واصلاح ما فسد من شأنها ، والنهوض بها من كبوتها •

ولكنهم لم يكونوا عند حسن الظن بهم ، اذ سرت اليهم عدوى
الأولين فاذا هم والأولون سواء •

وقضية اليوم ، تتعلق بكاتب معروف ، له من تربيته ، وثقافته ،
ما يمنعه من استباحة قلمه ، يرسله من غير حق في مواقف ما كان أغناه
عنها ، ويشعره ظلما في صدور أشخاص لا ذنب لهم ، الا أنهم يقومون
بواجبهم • ذلك الكاتب هو الدكتور هيكل بك الصحفي ، القانوني ،
الأديب •

ثم أخذ رئيس النيابة العمومية في شرح وقائع الدعوى والتطبيق
القانوني ثم أتم مرافعته بالعبرة الآتية :

يا حضرات المستشارين :

اذا ما خلوتكم لتقولوا كلمتكم ، فأشيروا الى أن حرية الصحافة ،
أو بعبارة أخرى أن حرية النقد ، ليست هي حرية أخذ الناس في شرفهم
وفي كرامتهم بل يجب أن تكون حدود القانون ، مشبعة بروح العدالة ،
لا لغرض الامتهان •

ان جرائم الصحافة أثرها بالغ ، وغورها بعيد ، أثرها ليس قاصرا
على المتهم ومن جنى عليه وانما يتعدى الى الكثيرين •

ولن يستوى في نظركم من يعرف القانون بتفصيله ، ومن له من
علمه وتربيته ما يرشده الى حقائق الأشياء — لن يستوى هذا مع من هو
جاهل بها •

فاذا ما أخذتم الصحفي على قدر علمه ، ووضوح غرضه ، فانكم
تقومون بالاصلاح الذي نرتجيه ، فلا يولد بعد ذلك ضحايا ولا يوجد
متهمون •

ان المطمئنين من الناس ، والقائمين بينهم ، يفزعون الى عدلكم ، وهم يرجون بعدها أن تأخذ الصحافة مكانها الصحيح ، مكان المذهب والمرشد الأمين ، عف اللسان ، لا سلاحا للتشهير .

عندئذ تصبح الصحافة في مصر للخير ، وللخير وحده^(١) .

— ١٤ —

مرافعة

الأستاذ عمر عارف

وكيل النيابة في قضية أجنبية

رقم ١٥٧٠ طهطا سنة ١٩٢٢

يا حضرات المستشارين :

في اليوم السادس من شهر مايو سنة ١٩٣٢ روعت مصر — ريفها والصعيد — بزلزال كاد يطفئ على قرية آمنة ، وينكب الناس في قوم أسلموا أنفسهم لراحة النوم في قطر تمر سراجا لتبلغ بأصحابها مدنا قاصية من الصيد الأعلى • ولولا ما عرف عن مصلحة سكة الحديد من يقظة الحفظة الحارسين ونظامها الدقيق المكين ما نقلوا الى هذه المدن قدما ، ولآثروا الدعة في عقر دورهم على التعرض للمخاطر في رحلة تحف بها الجرائم وبطيف الآثمون •

زلزلت الأرض في طما زلزالها • ومصر جنة الله في أرضه • برأها نقية طاهرة على خير ما يشتهي الطامعون في جنة الخلد ، ليس فيها من زهرير الشمال ، ولا زلزال جزر الاقيانوس ولا فيما يلي بحر الروم من جبال النار •

(١) ملحوظة : قضى في هذه الدعوى بتفريم محمد حسين هيكلك عشرة جنيتها •

نعم روعت مصر بهذا الزلزال ، وما كان للطبيعة يد فيه ولكنها يد
الانسان • ويا ويل العالم أجمع من شر الانسان اذا ركب انشيطان
كتفيه ، وناصب الآمنين العدا !

هذا اليوم تعده من التاريخ الجنائى فى مصر • نذكره فنذكر عنه
هذه المأساة المروعة ، ونتبين فيه دما طاهرا لشهيد كان نكرة يدق أمره
على الناس ، فلا يؤبه له فى طفولة ولا شباب ، فلما مات مجاهدا فى سبيل
القيام بالواجب والدفاع عما أؤتمن عليه ، كان — بالقياس الى الآثمين —
الشمس وضوحا ، والندى صفاء والطفولة براءة وطهارة ••• هذا الشهيد
هو الحارس أبو زيد محمود •

يا حضرات القضاة :

أنى أجلكم الاجلال الذى يرفعكم عن العبث برنين ألفاظ غير مطابقة
فى معانيها لمتقضى الحال • وما كتبت لأضع لكم وقتا فى العبث بالالفاظ
أسوقها فى حفل يشهده منكم قضاة هم فى النزوة من مجد القضاء انتهت
اليهم مقاليد الأمور فى الأموال والأرواح ، ليس لهم الا قول الحق
وعندهم فصل الخطاب •

فاذا بكيت بين أيديكم شهيدا وقلت لكم خذوا له بحقه ، وجعلته من
نقاء الصحيفة فيما وصفته به ، وأكبرته بعد أن كان نكرة ، فانما لأن عبر
هذه القضية عدت ما ألفيناه كل يوم فى غيرها من القضايا •

رأيتهم ورأينا فى حياتنا القضائية عدوان القتلة على الناس فكنا
نشهد قتلا راح يسرق فأخرج فقتل ، أو جانيا أخذ منه الحسد أو طوحت
به الغيرة أو حفزه الثأر الدفين فنال من صاحبه واشتفى •

ولكن الأمر فى هذه القضية خرج عن مألوف هذه البواعث • انما
نحن من هذه القضية فى بدعة • هى ضلالة جيل من الناس ظنوا أنهم فى

الحياة أحرارا من قيود النظام ، فخرجوا وحسبوا أنفسهم أنهم بالغون في المتعة بلذاذات العيش الحظ الأوفى على ألا يقاسموا الناس تكاليف العيش من كد وجهد وكفاح •

لهذا رأيت وجوبا على أن أنظر الى القضية نظرة تحليل ودراسة ، وأخذت نفسي بأن أعرض لها في تقص يرتب لنا مقدمات نخرج منها بتقدير ما أحيط بالمتهمين من دوافع في جو حياتنا القومية لنرى أكان المتهمان على حق فيما ذهبا اليه ... وإذا لم يكونا على حق ولم يأسرها سحر العقيدة مما تشعه المثل العليا ، وتستعبد به بعض النفوس ، وتستهوى من عشاقها القلوب فما هما ؟ وما شأنهما في الحياة ؟ وما الغرض الذي يرميان اليه ؟ أفیه خير شابه شر ؟ أفیه عمل صالح خالطه عمل غير صالح ؟

وفيما نحن بسبيله نسأل : أفي مصر من يرى رأى هذين المتهمين في حياة الخمول والرضا بالدون من العيش والجراة على الله في الذنوب والآثام ؟

نحن من نهضتنا القومية في عصر انشائي لم نحن ثمرتها ونتقيأ ظللها ، بل نحن نغرس لنجنى أو يجى أبائنا من بعدنا ، ونؤسس لبننى • لهذا نحرص الحرص كله على أن نحوط آمالنا وأعمالنا بسياج من الجد والحزم يمنعنا من الاباحية في السياسة والأخلاق • هذا السياج هو النظام الذى يمليه علينا العقل السليم الناضج والرغبة الصادقة في خير الأمة •

نعم ونحن بننى ونؤسس ونغرس ، نريد لمصر القوة فيما له بالصحة والأخلاق من صلة • نريد لمصر أطفالا سلمت آباؤهم من الآفات فأنبتوهم نباتا طيبا أزاهر يانعة • نريد شبابا لهم الصبر على المكار • والثبات على العمل والطموح الى المجد • نريد كهولا عركتهم التجارب فلا تبطرهم

النعمة في النجاح أو تهد منهم أعاصير المغالبة والمكافحة • نعم نريد القوة
فلا ضعف ولا تواكل ولا جبن ولا استخذاء •

ثم أخذ حضرة وكيل النيابة في سرد وقائع الدعوى والتطبيق
القانوني ثم ختم مرافعته بما يأتي :

يا حضرات القضاة :

أنا أظننا ونعتذر اليكم فيما فصلناه من أمر هذه المأساة وأفضينا فيه
من بيان ، فما هي قضية رجاين قتل رجلين وشرعا في قتل رجل وكفى ،
وما هي قضية تدمير واتلاف وحسب • ولكنهما قضية لجنة خرجوا على
نظام الدولة وأرادوا أن يقتلوا من الأمة هيئة الحكومة كائنة ما كانت
وبئس ما يفعلون •

انما نحن في موقفنا هذا لا ندافع عن الناس أفرادا وجماعات الا
بقدر ما يمس هؤلاء من الأذى وما كنا لندافع عن المساء اليهم لسلطان كان
لهم ، فاما انحاز عنهم سلطان هذا الجاه ففرت منا الهمم وصغر من أمرهم
ما كان عظيما عندنا ، لا ! ولكننا ندافع عن مبادئ سامية لا تتغير بتغير
رجال الحكم ولهذا نرفع الصوت عاليا لنقول أيها القضاة : « ان هيئة
الحكومة لولا عدلكم الحازم في خطر فصونوا هيئة الحكومة » •

اذا كنتم عرفتكم بالرافة والرحمة فما هي الأمة تتادىكم بان ارحموني
أنا ، وارفأوا بي ، فان الأشرار سلطوا نقمتهم في مرافق حياتي وهيئة
حكومتى فأى الناس يأمن الطريق والموت يكمن فيه باروع ما يكون ؟ أى
تاجر يتخطى هذا الجانب من مصر ؟ أى سائح الى مصر يسعى ؟ وأى
غريب يظن في مصر نظاما تصونه هيئة الدولة وأمثال هؤلاء الجناة ، بعد
الاعتناع بتلوثهم بالجريمة ، يعيشون ؟ وأية حياة لهم ترجى وهم يسعون
لاهدار دمهم بأيديهم وبأفعالهم الأثمة ؟

انظروا الى عمر بن الخطاب وقد رأى بواخر الفتنة من انحياز على الى داره يوم بيعة أبي بكر اذ ذهب عمر يشتمل جبارة نافذة ونادى صاحبه من وراء حجاب أن تعال بايع ولا تسع الى الفرقة والا حرقته دارك عليك ، فقال على وان كانت فيها فاطمة فقال وان •

انظروا الى بطرس الأكبر وقد أراد أن يخرج بوطنه من الظلمات الى النور ، فوجد الرجعيون من خصومه في ولده الداعر المستهتر أداة هدم لبطرس ، فجعلوه محور المؤامرات ، فبصر بهم أبوه وهم يهيمون برد بلاده الى الوحشية والاخلال بما رتبته من نظام ، وكان عليه أن يختار بين أن يكون أباً فيحنوا على ولده وبين أن يكون منفذا لأمرته ، فاختار الخير الأعم على الرأفة المترخسة المترهلة في ولده • وقدم هذا العاق لقصاته فلم يجدوا له الا الموت فكان هو الموت وفيه لوطنه حياة •

يا حضرات القضاة :

إذا أقنعتم بأن المتهمين قتلا عمدا ، ورأيتم سبق الاصرار متوافرا ، ورأيتم الجرائم ثابتة لا نزاع فيها فاشيروا بحكمكم على مصر الأمن والسلام • اخدموا بلادكم بالنظرة البعيدة الثاقبة • لا تسمعوا لدموع الاتهمين الكاذبة تطلب منكم الرأفة ، فانتم موضع الرأفة وأهل لها ، ولكن مكانها من عنلكم اليوم هو في ناحية الأمة • وكيف يقتلان ويهدمان ثم يرجعان منكم بالرأفة ! وأى شيء من رأفتكم اذا في كفة الأمة الجروحة في عزتها وهيبة حكومتها كائنة ما كانت • لا عليكم من أن يؤخذوا بالحرز الصارم في هذا الموقف ، فخير لأمتكم أن توصفوا به ، فهو سيف العدل ، والعدل محتاج لقلمه وسيفه مادام عقله البصير بين هذين الميزانين •

ان القاضي الذى يشتد في الزجر لخير أمة من طريق العدل في مثل هذه القضية لهو الذى يثبت أركان النظام في الدولة في توجيه قوى الشعب الى العمل الشريف المثمر وسلام الجميع •

أن الذين في موضع الشدة لا ينفع الا رجلين أساء الى نفسيهما وإلى أمتهم معا . وأما الصرامة في الحكم — وهذا يومها — فهي تنفع الناس جميعا . فتخبروا لعذلكم بين أن يخرج المتهمان بعد الحكم ضاحكين فرحين بالحياة ، ولو مؤبدة في الحديد ، وبين أن تخرج الأمة باكية مروعة في مرافقها مهددة في هيئة الدولة . وأين نحن من الدعة ، والأمة تخلف الآثمين !!

ان الذين يصفون القضاة في مثل هذه القضية بالقسوة لا يحسنون وضع الأنفاظ في حدود معانيها ، فانما القضاة أطباء الهيئة الاجتماعية ببترون العضو الميت من الجسم الحى .

إذا كان من الأفضل أن تحب الحكومة وألا تبغض ، فاننا إذا جدد الجدد لا يعنيها أن تحب الحكومة أو تبغض بقدر ما يعنيها أن تهاب . الحب يذهب ويروح بذهاب أسبابه ، والبغض يتبدل بتبدل ما يدعو اليه ، وأما هيئة الدولة فلئن زالت فانما هي الثورة وقيام الأشرار وهدم النظام . وليس بعد النظام الا الفوضى ، ولا ينقذ مصر من الفوضى الا القضاء ، وعندنا والحمد لله في مصر قضاة .

قد يحبني من يحبني ، وقد ينحاز عني إذا لم أكن له على ما عودته أو إذا كنت على نفعه غير مطيق ، وقد لا يبغضني من الناس من أعف عما بين يديه من عوض ومال ولكن الهيئة — ذلكم السلطان — الذي يبنى على خوف العقاب ورهبة الزجر فانه الأساس لخير البلاد . والناس قد يعيشون بغير أن يبغضوا دولتهم وبغير أن ينصرفوا الى حبها ولكنهم لا يعيشون فيها بغير أعناقهم التي على الإبدان . فخوف العقاب هو مهم الأول ، وما دامت الحكومة لا تأخذهم بظلم ، وأنتم منهم في هيكل عذلكم المقدس ، فلا يعتدى على هيئة الدولة وأنتم محكمون . علموا الناس أن يخافوا العقاب فيرجعوا عن بغض الجريمة الى العمل الشريف المنظم . لالين عند بواذر الفوضى . لا رحمة بالجناة يحشون القنابل بالموت يثوثنها

في الطرق الآمنة التي تحرسها في الأمة هيبة الحكومة • أيها القضاة الذين ليس لنا في مصر غيرهم بعد الله ! انا من مرافعتنا بعد القيام بواجبنا أمامكم نثبت كأمة الختام :

صونوا دماء الأمة من عبث الأشرار المجرمين ، وردوا على الحكومة — كائنة ما كانت — سلطانها من الهيبة • قد تم للنبيبة ما عليها من واجب فلم يبق الا الواجب الأعلى — واجب القضاء الذي يجلس منا مجلس الحكم لانصاف الأمة المظلومة من الأشرار الظالمين فلا تأخذكم بالأشرار الجناة رافة ، وان في موت اثنين من الثائرين على هيبة الدولة بألوان من التقتيل والتخريب لحياة لأمة مجيدة شريفة تنام في حراسة القضاء وعينه البصيرة وعقله الساهر على راحة الناس • لقد لجأت الحكومة بسلطانها القوي الى عدلكم الأقوى لتصونوا لها هيبتها وانا من عدلكم الحازم ننظر في الآمين حكم القضاة وان لكم في القصاص حياة •

— ١٥ —

الأستاذ عبد اللطيف محمود رئيس النيابة
في قضية الجناية رقم ٢٤٢ بولاق سنة ١٩٣٢
المروفة بقضية القنابل

يا حضرات المستشارين :

أمام حضراتكم قضية قد يخليل الى المتهمين أن الاتهام فيها لم يبين الا على أساس اعترافهم فحسب، وأنهم ما داموا قد عدلوا عن اعترافاتهم وعللوا هذا العدول بما أرادوا أن يدعوه أمامكم من أنه أو عز اليهم به فقد وجب على الاتهام — في رأيهم — أن يقنع بتصويرهم ، وأن يسلم لهم بصدقهم في عدولهم ، وحق على القضاء كذلك أن يأخذ بوجهة نظرهم دون ما مناقشة •

واقع الحال أنها ظاهرة غريبة ، لأنه من غير المنطقي ، ان لم يكن من المحال ، أن تتقدم اليكم النيابة بمتهمين عديدين ، منهم من يعترف على نفسه ومنهم من يعترف على نفسه وغيره ، وجلهم امعات لا قيمة لهم ، وتكون هذه الاعترافات بما أحاث بها من دليل ، وما لابسها من تفصيه — تكون هذه الاعترافات وليدة الجناية على الذمة والحقيقة وتكون قد أخذت بالطريقة التي قللوا بها •

والواقع أن هذه القضية غامر فيها بعضهم أمل الكسب العاجل ، أو تحت تأثير العاطفة الجهولة ، وتبعه البعض ظنا منه أن ما فعل انما هو نوع من أنواع الرجولة •

يا حضرات المستشارين :

يحاول المتهمون اليوم ، وقد أثقلهم جرمهم ، أن يخرجوا القضية

من حدودها الطبيعية الى ما يمكن أن يفهم منه البسطاء أن القضية ، وهى غنية بأداتها ، لم تخرج عن كونها رواية دبّرت وقائعها ، وأنهم كانوا من الداخّين فى تمثيلها رهبة أو مرضاة • ويمنا لو قدروا لادعوا أن القنابل لم تصنع ولم تثلّق فى المنازل والمصالح •

ولكن النيابة ، وقد أحاطت التحقيق بكل الضمانات التى تكفل للمتهم حرية الادلاء بما يريد ، ستريكم أنه لا فائدة ترجى للمتهمين من عدولهم هذا ، وأن الاعترافات التى سجلت عليهم سليمة من كل شائبة ، مؤيدة بالدليل المقنع • وستخرجون من القضية — كما خرجت منها — وأنتم على يقين من أن المتهمين السادس عشر والسابع عشر هما العقل المدبر ، واليد المحركة ، وأن كل هذه الجرائم التى وقعت فى غسق الليل حتى كادت تذهب بأراح بريئة لا ذنب لها انما هى من شيطانها وباملائهما ، وقد موناها بما لهما أو بما أعطى لهما باسم اعانة العمال العاطلين •

سأقيم البرهان على أن هذه الاعترافات لها دليلها المادى الذى يسقط من قيمة الإنكار ، وسأدلّكم على ما يثبت سابقة اعتراف المتهمين بفعلتهم لأشخاص هم أبعد الناس عن رجال البوليس ، وقبل أن يتصل البوليس بالمتهمين أو يعرفهم • وأخيرا سأقيم الدليل على أن حركة العمال التى بدأت بحوادث العنابر والترسّانة ومدرسة الفنون والصنائع تمخضت عن حركة كان يعمل فيها البعض على أنها حركة فدائية واستدرجوا اليها البعض الآخر ، ثم أنتجت الحوادث التى يحاكم المتهمون من أجلها •

لست من غواة تزويق الكلام والاكتثار فيه ، بل سأحاول القصد ما استطعت متجها الى الصميم غير تارك ما قد يظن فيه مصلحة للمتهم ما استطعت الى الصميم غير تارك ما قد يظن فيه مصلحة للمتهم دون أن أتقدم اليكم به وبما ينفيه •

ثم أخذ حضرة رئيس النيابة العمومية فى شرح وقائع الدعوى والتطبيق القانونى ثم أتم مرافعته بالمباراة الآتية :

يا حضرات المستشارين :

الآن وقد فرغت من واجبي فأطلعكم على القضية بما وسعته من دليل أجد المبرر في نفسي لأن أقول لحضراتكم كلمة هي فصل الخطاب .

ان الفردية التي تقدم بها المتهمون ، بل أستغفر الله وأقول ان الفحش في القول والامعان في الكذب الذي تقدم بهما المتهمون يتطلبان منكم صرامة في الحكم وشدّة في الاستتكار .

انهم لم يتقدموا لكم بدفاع عادى كثيرهم من المتهمين ، على تعدد ما عرض عليكم وعلى غيركم من قضايا . ولكنهم لجأوا الى أسوأ ما يمكن أن تنجأ اليه طائفة من المجرمين — لجأوا الى الطعن في كل هيئة وليت التحقيق أو كان لها اتصال بالتحقيق .

كان البوليس هدفا لمطاعنهم فام يتركوا فرعا من فروعه الا تحدثوا عنه بمثالب .

فارادة الأمن العام ليس فيها أمن ، وهي التي تسيطر على الهيئة التنفيذية في البلاد لمجرد أن كان لها ضلع في معرفة المجرمين .

والقسم السياسى جعلوه ملفقا ، لا لصحة في دعواهم ولكن لأنه سعى وراء الحقيقة حتى وصل اليهم فأراد أن يظهر من أمثالهم البلاد .

حتى ضباط البوليس الذين قاربوا المتهمين ولو من بعيد جعلوا منهم أيضا أعضاء في مؤامرة واسعة النطق لا تتناول الا أمثال العزب وعبد الرسول .

بعد أن شفوا حقدهم تخطوا تلك الهيئة المحترمة في كل الممالك الى ما هو شاق على النفس التحدث فيه .

جرؤءا فصبوا سهاما ظنوا أنهم يصيبون بها معقلا من أهم المعامل
فى كرامة البلاد •

ولن أطيل عايكم التحدث عنها فهى هيئة لى شرف الانتماء اليها وفخر
الانتساب الى أسرتها •

هيئة أرفعها ويرفعها الكل الى الهامات ، ففتحنى أمام شرفها
الرؤوس وتطاطىء أمام عظمتها الجباه •

هيئة تمثل الهيئة الاجتماعية ، وهى فى الوقت نفسه جزء من قدس
القضاء •

ان الهيئة التى لا تعرف ضغنا ، كهيئة النيابة ، لا تعرف أشخاصا ،
ولكنها تعرف الكرامة ، وتعرف الواجب والقانون • فمن شاء أن يحتكم
الى القانون فنحن سواسية • نتقدم اليه على أن يكون ندا يعرف
القانون •

وعندها يكون لانيابة فخر الاحتكام وفخر الحكم ، وعندها يقول
القدس الذى تخضع له اذا كانت النيابة تجنت على المتهمين أو أنها كانت
وستكون دائما الركن الحصين •

يا حضرات المستشارين :

يظهر أن البغاث بأرضنا يستشر • فمادام المتهمون قدروا على
التقول فى النيابة فلم لا يقولون أيضا على القضاء •

الى هذا الحد وصل الاستهتار بكل ما هو مصون ...

راشوا أيضا سهامهم يظنون أنها تصيب فرموا رئيس المحكمة قاضى
المعارضة ، ورموا قاضى الاحالة وهم يعمهون • أنا لا أجرؤ أن أتكلم
عن القضاء • لقد كنتم قضاة ، وأنتم الآن قضاة وهم يتهمون القضاء •

وليس لى أن أدفع عن كرامة هيئة عدلها من عدل السماء ، انما لى أن
أطرح الأمر عليكم لتقولوا رأيكم فى رجال القضاء^(١) .

— ١٦ —

مرافعة

حضرة صاحب العزة محمد لبيب عطية بك النائب
العوامى أمام محكمة جنائيات مصر فى قضية اتهام محمد
على الفلال بالشروع فى قتل دولة اسماعيل صدقى
باشا رئيس مجلس الوزراء دور شهر يولية سنة ١٩٣٣
بجلسة الجنائيات المنعقدة تحت رئاسة حضرة محمد نور
به وعضوية حضرتى ابراهيم ثروت بك ومحمد نجيب
سالم بك

حملت أمانة الدعوى العامة وهى أمانة خطيرة تنوء بها الجبال
الرواسى ، ولكن خطرها تحوطه روعة ، ويحفه جلال يتأسى به من يعرف
الواجب ويصبو الى حسن القيام به .

بالأمس كنت جالسا بينكم أشاطركم ما تعانون من مشقة فى استظهار
الحقيقة واستخلاص غوامضها ، وكنت ألتمس عون بارى الكائنات الذى
يعلم السر وأخفى ، وأستلهم كما تستلهمون صواب الرأى وطمأنينة
اليقين .

(١) ملحوظة : حكم فى هذه القضية ببراءة شعبان احمد شعبان
وعبد الرحمن عليوه وشوقى سلمان ومحمد جاد وحسن والدكتور نجيب
اسكندر ومعاقبة ابراهيم محمد عبده الشهر بالفلاح وبقى المتهمين بعقوبات
تتراوح بين الحبس مع الشغل لمدة ستة شهور وبين الأشغال الشاقة لمدة
خمس عشرة سنة .

فلا عجب ، وهذه حالى ، وتلك دخيلة نفسى ، ان شعرت اليوم فى موقفى أمامكم بعبء مضاعف الأثقال ، عبء الأمانة على دعوى الهيئة الاجتماعية ذات الخطر العظيم ، وعبء الزميل الذى عليه لزمائته ، وقد لابس ما يعانون ، واجب الجهد لهم حتى يطمئنوا الى ما به يقضون •

نادانى هذا الواجب من أول لحظة توليت فيها تحقيق هذه القضية فلبيت نداه ، وسرت فى سبيلى على نحو أرجو أن يكون رائدى فيه لم يغب ، وبغيتى منه لم تفت ، والرضا عنه لم يضر به •

جعلت رائدى أن يكون تحقيق النيابة — التى حلت عملا فى نظامنا القضائى محل قاضى التحقيق — محوطا بكل ما يلبسه ثوب تحقيق ذلك القاضى ، ويكسبه مميزاته ويزينه بضماناته • فأفسحت للمتهم ما وسعنى الافساح له ، وسارعت الى اجابته فى كل ما طلب ، وأرحت هواجسه مما خشى ، وأوصلت رجاءه لعنوانه فى الصغيرة وفى الكبيرة ، وهيات له فى أولى خطوات التحقيق الاستتجاد بمن يدافع عنه ، فأبلغت رسالته لنقابة المحامين لتتدب له من يستودعه سره ويرعى مصلحته • • ولما أهدرت تلك الرسالة ، وإم يجب داعيها ، طمأنت لوعته ، وهدأت ثورته ، ذكرنا له أن أو ان ذلك لم يفت وأن لكل سائل قرارا •

كان هذا رائدى • أما بغيتى فقد عملت على أن أسعف خلجات نفوسكم ، وخطرات قلوبكم ، وتشدد ضمائرکم ، بكل مدد من الوقائع بغير تمييز بين ما راح منها فى جانب الاتهام وما يمكن أن يتعلق به الدفاع •

أما رضاكم فأمل أن يكون مظهره كامة الحق التى لا بد أنكم قائلوها اليوم أو غد ، أليس الصبح بقريب ؟

حسبى بما قدمت فاتحة ارافعة الاتهام • أستغفر الله بل فاتحة لقصة الحادث الذى وقع فى صدر يوم ١٦ مايو الماضى ، وما تستتبعه

وقائعه بجملتها وتفصيلها من تحليل وتمحيص ، سواء أكان ذلك من ناحية القانون أو من ناحية البواعث النفسية وأثرها في الاجتماع ، ثم استظهار ما انكشف لعيني من أدوائها ، وطرحه جليا أمام حكمتكم البصيرة ، اتصفوا الدواء ، تعالجوا الداء •

سأعرض على أسماعكم هذه القصة مستهديا في سردها بنور اليقين ، وطمأنينة الاقتناع ، وسأنبذ كل ما قد يحيطني — ولو في مظاهر الأشياء — بشبهة من قال « لكل حال لبوسها » فليس يهين على — وقد أوفيت على تلك السنين — أن أتحلل بين عشية وضحاها من تفكير القاضى وميزان تقديره وروح تمييزه ، لاسيما وأننى لا أزال على نسبى القديم •

سأنبذ ثوب التهافت على الاتهام ، كما نبذت في التحقيق التريحب به والهشاشة له • وآية ذلك ما أرجو أن تشهد به ثنياه من السير وراء كل جليل وكل دقيق من الوقائع التى قد تنفع ذلك المتهم المائل أمامكم • ولم تكن لى آية مفخرة فى ذلك ، فان الواجب العريق قد تضاعف فى نظرى عشية رأيت المتهم وقد استتجد فإم ينجد ، والتمس المواثاة من حظيرة رجال الدفاع فلم يؤت • ولعل تلك الهيئة الموقرة لم ترد بتغاضبها الا معنى الاستنكار لما وقع • ولعلها ، ولتعدرنى اذا انتزعت معنى آخر فيه الترضية لنفسى ، وثقت بأن الرجل — وأمره اذ ذاك فى يدى — ليس فى حاجة الى معونة • واننى لأشكر لها هذه التحية المغطاة ان كان حقاً ما همس به الظن الكريم •

قلت انى سأنبذ ثوب التهافت على الاتهام ، وها أنا أطيع منطق هذا الوعد ، وأكف فى هذه المرحلة من حديثى عن تقديم المتهم بصفاته التى كشف عنها التحقيق ، خشية الظن الفظين بأنى استجاب ضوءاً قاتماً من حوله تتعكس أشعته على ما سأسرده من أعماله ، فينجسم صغيرها ويعظم ضئيلها • سأكف عن ذلك الآن برغم ما جرث به العادة

من تقديم المتهم لقضائه بالصفات التي انكشفت عنه قبل الاسترسال في بيان ما أتاه •

وسألف أيضا في الآونة الحاضرة عن ذكر من وقعت عليه الجناية فان التنويه به في هذه المناسبة قد يؤول أنى أستثير غضبتكم على الجانى قبل أن أقنع ضمائركم بجنايته ، ولو أنه تأويل واهى الأساس ، فانكم أكبر من أن تطمنوا ، وأنا في هذا معكم على عهد مسئول •

ثم تكلم سعادة النائب عن وقائع الدعوى والتطبيق القانوني وتحقق ظرف سبق الاصرار والترصد وانتهى من مرافحته بالخاتمة الآتية :

لقد أبنت مبلغ ندالة الجريمة ومدى شرها اذا هي وقعت على كابر جليل المقام • أبنت ذلك بقدر ما فسخ لى موقف النائب العمومى وأجازته الأمانة في عنقه • ولو أن المجال حر لقائل لسمعتكم كل ما يتطلبه حزمكم وترضاه عدالتكم ، ولكنى كما أسلفت مؤمن بفطنتكم ولى فيها كل الغناء •

على أن هناك أمرا أجل شأننا وأعظم خطرا لا أستطيع حمل ضميرى على كتمانته ولا عد لسانى عن بيانه • هذا الأمر الخطير هو ما أشرت اليه في صدر مرافعتى وألمحت به عند حديثى على الباعث الذى دفع المتهم الى جنايته •

ذلك هو ولع التبطل ، وغواية الاستعظام ، وما أجملت في جاسة الاحالة بأنه داء اجتماعى وببيل يهدد الحكومات في كيانها ، ويشل النظام من أساسه ، وأنه ان لم يؤخذ بيد عسراء استقفل ضرره وعز انتقاء شره •

نعم استقفل ضرره وعز انتقاء شره •

ارسموا لأنفسكم ، بواسع خبرتكم ونافذ بصيرتكم ، حال البلاد

وقد أصبح كل عظيم فيها هدفا لنار أى شقة تربعته فى نفسه الشريرة
هذه الأفكار الخطرة •

تلك حال أستعيز بالله منها •

هى مضية لاطمأنينة ومقتلة للنبوغ ومفسدة لنفس العاملين •
بل هى حفرة يتردى فيها اخلاص المخلصين ونشاط المجدين وايمان
المصلحين •

أنتم قضاة الحق ولكم أيضا مربو الخلق •

وكلمة العدل التى بها تنطقون يتجاوب صداها فى نفوس ناشئة ،
ونفوس ناثرة ، ونفوس فزعة خائفة •

فاجعلوا حكمكم رسالة عدل وبلاغ عبرة وبشرى سلام •

فان جنتهم الى الرحمة فاشموا بها النشء وقد أوشك ان
يلتوى ، والبلاد وقد دب فيها ذاك الداء الوخيم •

أنتم أطباء النفس كما أنتم قضاة العدل • والطبيب البصير
لا يتردد ولا ينى عند الضرورة الحاكمة ، والقاضى لحازم يهذب بأزجر
الحكيم ، وهو فى زجره من الراحمين •

وازنوا بين روعة الرحمة وقد حلت بالبلاد وبالنشء وبين ضالتها ان
هى حلت بهذا الجرم العتيد ، ثم اقضوا قضاءكم والله معكم انه نعم
الهادى ونعم النصير •

ومن الخطب الهامة التى يجب معرفتها خطب الامام على رضى الله
عنه وخطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولا شك أن الرسول ﷺ كان
قمة البلاغة والخطابة وقد صدق أمير الشعراء عندما قال فى أمير الأنبياء :

مما عرف البلاغة ذو بيان

إذا لم يتخذك له كتابا

كان إذا خطب يناطح السحاب ويتطاول الى الجوزاء ويزاحم
الشمس في الجلاء ، كان والله غزير العبارة ، طويل الفكرة ، بعيد
المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من
جوانبه وتنتلق الحكمة من نواحيه •

ومهما قال اللسان وأملى الجنان وفاض البيان وسال البيان
فلن أصل إلى شاطئ البحر الذي عبره فارس المنابر على بن أبي
طالب رضى الله عنه •

وفي إحدى المرافعات وقف المحامي العام وقال في ختام مرافعته نحن الآن
في أشد الحاجة للاصغاء والانتباه لأننا نريد أن نجتمع على كلمة سواء • •
كلمة حق • • وفرق بين كلمة حق وكلمة حق أخرى فكلمة الحق التى نبغيها
هى تلك التى يجتمع عليها أبناء الدين الواحد ومصدرها كتاب الله الكريم
وسنة نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام • • لا بنعى كلمة الحق التى
تخرج عن الأمراء والمشايخ الذين فقدوا البصيرة • • فقد صدق القول
« ان اعرفوا الرجال بالحق ولا تعرفوا الحق بالرجال » •

فنحن • • نريد كلمة حق فيمن أفتى وحكم وفقد حكمه بحدود
ما أنزل الله بها من سلطان وعاقبوا من يشاهد مسرحا بالاعدام بالفرقعات
وألغوا الكور الحارقة على رواد موالد أولياء الله الصالحين ، حتى ولو
كانوا من الصبية والأطفال ، ويحرقون المساكين والمتاجر ويطلقون النار
على أى مسئول بالدولة وكل من يرافقه أو يتواجد صدفة في صحبته
ويقولون بعد ذلك فليبعث على نيته •

نريد كلمة حق فيمن استحلوا أرواح وأعراض وأموال أهل الكتاب

من غير المسامين وهو ما لم يفعله رسول الله وأصحابه .. ويقولون هو
من عند الله ..

ان ما اقتصت به بحق سيقنع ضمائركم .. سنصل الى كلمة الحق
انتي تبغيها كلمة الحق التي ستمنعون بها هذه الأخطار وتردون عن البلاد
بؤسا وشقاء كان المتهمون مجلبة له .

لا تصدقوا أننا امام شباب مسلم .. كما يحاو للبعض أن ينافق
ويصفهم .. ولكننا أمام فئة استعذبت الجريمة واتخذت من سفك الدماء
صناعة ومن الارهاب حرفة .. ونحن أمام خطر داهم ان لم نقف في
سبيله . سقطنا الى الهاوية .. لقد أصبح الناس .. لا يأمنون على
أنفسهم في غدهم ورواحهم فأعيدوا .. الطمأنينة للنفوس بحكم يقضى
على هذا الداء ولست أخاطبكم بلسان النائب .. انما أخاطبكم بلسان
الأبناء الذين تيتّموا والآباء والأمهات الذين تجرعوا الحزن على أبنائهم
والزوجات اللاتي ترملن ..

من مرافعات قضايا الارهاب :

فالمتهمون هم عناصر ارهابية .. تحمل أفكارا متطرفة ومن خلال ذلك
.. كان استئجار الأوكار وكان الاختفاء واعداد المفرقعات والأسلحة
والذخائر والتدريب والاستعانة بمن لديه خبرة في ذلك .. وتدبير
الدرجات البخارية والتزوير في الأوراق الرسمية .. وراقبوا المسؤولين
وارصدوا تحركاتهم .. وكان القتل واراقة الدماء والجثث المسجاة في
الطريق العام .. والترويع والخوف والرعب في وسط العاصمة .

واذا كان الارهاب في الوقت المعاصر .. ظاهرة عالمية .. الا أن خطر
الارهابيين في مصر يكمن في أنهم يعاقون ارهابهم بالاسلام دين السماحة
والحق والعدل .. دين المثل والقيم .. فأخذوا يستغلون الدين بفجر
وغش وكذب .. وجهل .. استباحوا أرواح وأموال وأعراض الناس ..

ولقد عذب المسلمون من قبل بأمثال هؤلاء فلا يغيب ما فعله الخوارج في عهد على كرم الله وجهه وها هم خوارج ذلك العصر •

مستمدين في تحريف الكلمة عن موضعه يتخبرون من التفسير ما كان مرجوحا ويشحون عما هو راجح •• يرفضون أى منطق غير منطقهم ولا يجادلون بالحسنى بل يرفعون عصا التهديد وسلاح الاغتيال •

اننا أمام صورة صارخة من صور الخروج على القانون •• ولابد من تطبيق القانون بكل قوة وحسم في اطار من الضمانات القانونية والقضائية •

— ١٧ —

ومن المرافعات الجيدة :

يا حضرات المستشارين :

القضية وان كانت سياسة فالقضاة فوق السياسة وسنبين ذلك لحضراتكم جليا في قضيتنا الحالية ولكن الذى يهمنا ابرازه أن هذه القضية هى واحدة من مئات القضايا السياسية التى امتاز بها هذا العهد وان لذلك معنى ما يستفيد منه المتهم ويرجو من المحكمة تقديره فى حكمها ولتبيان هذا المعنى يجب أن نتساءل •• أولا ما معنى تكاثر القضايا السياسية فى عهد دون سواء ولماذا نرى مثلا مئات القضايا السياسية فى عهد وزارة النحاس باشا الا قضيتين أو ثلاثا من قضايا القذف أو الطعن فى الاعراض لماذا نرى هذا الفارق العظيم بين عهد وآخر بينما الشعب المصرى هو وأخلاقه هى وقانون العقوبات فى مجموعه هو والنيابة هى هى أن الرد ظاهر واضح نعم لقد تغيرت السياسة وتغيرت الحكومة التى تدبر دفة السياسيين وكان طبيعيا أن ينتج تغيير مماثل فى القضايا السياسية فى نوعها وعددها ولا غرابة فى ذلك ولا عجب فى سياسة تضع الحكومة فى صف والأمة فى صف آخر ولذلك يؤسست الحكومة من اجتذاب الأمة إليها مهدت الطريق الى القضايا السياسية لتحاول

الايقاع بخصومها وستر فشاها واو أن النيابة وضعت الأمور في نصابها وحذلت البيوت من أبوابها لأدركت أن النزاع الذي بينها وبين الأستاذ حسن النحاس هو بعينه النزاع القائم بين صدقي باشا والنحاس باشا وبين دستور الحكومة ودستور الأمة وأظنكم توافقوني على أن مثل هذا النزاع لا يصح بل ولا يجب أن يتخذ من دور المحاكم مقرا أو من منصة القضاء منبرا بل هو نزاع من شأن رجال السياسة أن يصفوا حسابهم فيما بينهم على صفحات الجرائد وعلى منابر الخطباء .

ان ما قاله حسن النحاس لا يعاقب عليه أى قانون والدليل على ذلك أنه لم يقل فى منشوره غير ما قاله المؤتمر الوطنى فى قراراته الخطيرة والتي وقها أمرء لدولة وزعماء الأمة وممثلوا هيئاتها وكبار أصحاب الرأى فيها . . اننا اذا قارنا ما جاء فى منشور المتهم بما ورد فى عبارات المتهم لوجدنا التشابه بينهما تاما فى المعانى بل ويكاد فى الألفاظ بل ان أمرا خطيرا تغاضت عنه النيابة فحاشا لعدالتكم أن تتجاهله ذلك ان الأمر ليس مقصورا على قرارات المؤتمر بل ان الجرائد والكتاب والخطباء يكتبون ويقولون يوميا مثل ما قاله الأستاذ النحاس فى منشوره فلماذا رفعت النيابة الدعوى على المتهم ولم ترفعها على هؤلاء مجرد سؤال فاذا صرفنا النظر عن تناقض النيابة تصرفاتها فهل تدرك خطورة ما تطلبه من المحكمة أنها تطلب من حضراتكم باسم القانون أن تضعوا كمامة على أفواه الناس وأن تضيفوا أغلالا لقانونية الى الأغلال الادارية والسياسية التى ترسف فيها أمتنا المكبله المعذبة هى تطلب اليكم أن تحطموا أقلام الكتاب وتكسروا أعزاد المنابر بل هى تطلب اليكم أن تسجلوا بحكمكم على حسن النحاس الاجرام على أمرء الدولة وزعمائها وكتابها وخطبائها وأصحاب الرأى فيها فتحكموا بالاجرام أمير جليل مثل الأمير عمر طوسون .

ومن المرافعات فى جريمة السرقة :

ان جريمة السرقة جريمة بشعة لا يقبلها لا العقل ولا المنطق وتجرمها كافة الشرائع السماوية والقوانين الوضعية .

ولكن الأبرع منها أن يقوم السيد الضابط بتلفيق وخلق تلك الجريمة
واسنادها الى اناس بسطاء لا صلة لهم بالواقعة من أساسها •

— نحن نفهم أن يقوم السيد الضابط بالقبض على المتهم متلبسا
بالجريمة •

— نحن نفهم أن يقوم الضابط بضبط أشياء الجريمة في منزل
المتهم •

— نحن نفهم أن يقوم المجنى عليهم بمشاهدة المتهمين حال الجريمة •
— نحن نفهم أن يقوم المجنى عليهم بالتعرف على السارق •

لكن لا نفهم كيف يمكن تلفيق مثل هذا المحضر •

— نحن لا نفهم كيف يسند اتهام الى أشخاص لا دليل في أوراق
ضدهم •

— نحن لا نفهم كيف يجبس الأبرياء على ذمة التحقيق كل هذه
الفترة •

— نحن لا نفهم كيف يتم تحرير المحضر بعد سنة سابقة على
الواقعة ثم يقوم باجراء التحريات ثم القبض عليهم بعد ذلك •
ظلما وزورا وبهتانا •

— نحن لا نفهم كيف يحكم على شخص ما دون أن يقدم دفاعا على
الاطلاق — لا أوراق — لا مستندات — لا شهود — لا شيء •

لقد جئنا الى هنا لنجيب على سؤال بلغ مبلغا كبيرا من الأهمية
ألا وهو : هل هذا المتهم مدان أم برى •

هل هذا المتهم ارتكب تلك الجريمة أم لم يرتكبها •
واذا كان ارتكبها : فكيف •

واذا لم يكن ارتكبها : فكيف زج به في الاتهام •

ولا شك أن استعمال الرأفة والرحمة يحتاج اليهما المحامى أمام المحكمة لذلك كانت الرحمة هى الصفة السائدة فى أخلاقيات النبى محمد ﷺ حيث وصفه بذلك رب العالمين فقال :

« لقد جاعكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » •

وقد أدرك ذلك كل من عاشوا معه ، وعاشروه ، أو كانوا منه بسبب قريب أو بعيد ، فما كان قاسيا على خادم ، ولا عنيفا على صاحب ، ولا باغيا على عدو ولا ظالما لزوجة ، شمل بره الجميع الأولياء منهم والأعداء •

يقول أنس بن مالك : خدمت النبى ﷺ عشر سنين فما نهرنى قط ، ولا قال لشى مما فعلته لم فعلته ؟ ولا لشى تركته لم تركته ؟ ولا عجب فهو الذى يوصى بالخدم قائلا « أخوانكم خولكم أطعموهم مما تطعمون ، وأسقوهم مما تسقون ولا تكلفوهم ما لا يطيقون وان كلفتموهم فأعينوهم » •

تذرف عيناه بالدموع وهو يحمل بين يديه ابنه ابراهيم يلفظ أنفاسه ويعاتبه بعض أصحابه ما هذا يا رسول الله ؟ فيقول انها رحمة وانما يرحم الله من عباده الرحماء ويجد بين يديه أسرى ، وفيهم من كان طاغيا ومعاندا ومعزبا للمسلمين من مكة فيكون مبدأ العفو هو الغالب على خاطره ، المؤثر فى اختياره ، كما يلجأ اليه يوم الفتح ، اذ قال لقومه قريش : اذهبوا فأنتم الطلقاء (١) •



والمنافق الذى آمن فى أذى المسلمين حتى أن أذاه وصل الى بيت

(١) مقال : الرحمة صفة ومنهج وهدف كريم — للدكتور/سيد الطويل
جريدة الاخبار •

النبوة في طهره وتساميه يتقدم اليه ابن هذا المنافق ليقتل أباه ابتغاء مرضاة الله ، فيرفض هذا الحل تماما •

ويرى في احدى غزواته امرأة مقتولة ، فيغضب لذلك ، ويقول : « من قتلها ؟ ما كانت هذه لتقاتل » فكانت حروبه حروب رحمة يوجه أصحابه المقاتلين بقوله : لا تقتلوا شيئا ولا امرأة ولا صبيا ولا تخلصوا شجرا ولا تهدموا بناء ، وستجدون رجالا في الصوامع معترلين فلا تمسوهم بسوء •

وفي كل موقف يحث أصحابه على الرحمة ويحذرهم من العنف والقسوة ، ومن توجيهاته في هذا المجال « من لا يرحم لا يرحم » ، « ولا تنزع الرحمة الا من شقى » •

* * *

وأما عن منهجه في الدعوة فكان يتحرك خلال اطار كريم من الرحمة والرفق ، ياح على قومه في الدعوة حرصا على استنقاذهم من عذاب الله ، وضنا بهم — وهم أصحاب فضائل وذوو قربي أن يعيشوا في جاهلية وضلالة ، وهو يقول كما تحدث عنه ربه :

« لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى » •

ويقوم الخطأ بجرح مشاعر المخطيء أو يلبسه خزيا وحسبه من المواقف التي تحتاج الى تقويم أن يقول « ما بال أحدكم يفعل كذا أو ييقول كذا ؟ أو ما بال أقوام يقولون كذا وكذا ؟

ويتكلم رجل في الصلاة بشيء من كلام الدنيا ، وضربه الصحابة أفخاذهم بأيديهم ليسكت ؟ ويسكت الرجل وقد بلغ منه الروع مبلغا عظيما ، وعندما تنتهي الصلاة يقول له النبي الكريم في رفق وأناة : ان هذه الصلاة لا يصح فيها شيء من كلام الدنيا وانما الذكر وقراءة القرآن •

وينبهر الرجل بهذه الحكمة وهذه الاناة ويقول والله ما رأيت معاً
مثلك .. بأبى وأمى أنت يا رسول الله ؟

وتغريه حكمة رسول الله ومنهجه في أن يسأل عن أشياء من أمور
الجاهلية ويجيبه النبي ﷺ بما يبين له موقف الاسلام مما سأل .

ويرى الصحابة رجلاً يبول في ركن من المسجد فيهمون به ، فيقول
لهم النبي الكريم : دعوه ولا تروعه حتى يقضى حاجته ، ثم أريقوا على
بوله ذنوباً من الماء .



ان هذه الرحمة البالغة على طريق دعوته عليه الصلاة والسلام
هى السر في ذبوعها وانتشارها واقبال الناس عليها .

وهذه حقيقة سجلها القرآن الكريم ، وخطب بها رب العالمين نبيه في
موقف غلبه فيه الغضب فعلته قريش به وبالمسلمين يوم واحد وبخاصة
تمثيلهم بجثة حمزة بن عبد المطلب .

يقول له رب العالمين : « فبما رحمة من الله لنت لهم واو كنت فظا
غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم
في الأمر فاذا عزمتم فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » .



ويبقى الحديث عن الرسالة التي حملها الرسول الخاتم أنها تقوم على
ركائز قوية من الرحمة كما أنها من حيث غايتها تستهدف قيام مجتمع من
الرحماء على الأرض ، يتجلى ذلك في قوله سبحانه : « وما أرسلناك الا
رحمة للعالمين » .

وأسلوب القصر هنا له شأنه ومغزاه وكأن الرحمة هي كل شيء في هذه الرسالة الهادية •

وجاء في الحديث الشريف « ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » •

أما معالم الرحمة في الرسالة الخاتمة الهادية فتتمثل في أمور :

أولها : انقاذ الفكر الديني من كل صور الزيف والتلبيس ، والتدليس التي أخذها المغرضون في رسالات الأنبياء •

يقول سبحانه وتعالى : « ان هذا القرآن يقضى على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون وإنه الهادى ورحمة للمؤمنين » •

ويقول : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » •

ثانيها : انقاذ البشر من تسلط الامبراطوريات الظالمة في الشرق والغرب والتي استبعدت البشر فألغت انسانيتهم وتحولوا الى أصنام تعبد الأصنام وكانت هذه المظالم والضلالات سببا لقت رب العالمين لهم كما هيأت لمجيء رسالة الرحمة التي حررت الانسان من بغى أخيه الانسان وأقامت أهدى حضارة على وجه الأرض •

ثالثها : تشجيع روح السماحة في كل ما جاءت به من تكاليف ، فلا غنت ولا ارهاق ، ولا تلزم انسانا بما لا يطيق ، ولا تترز وازرة وزر أخرى ، فلا يسأل انسان عن ذنب غيره يقول تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » •

ويقول جل شأنه « ما يريد الله ليجعل عليكم حرج » • ، ويقول « يريد الله أن يخفف عنكم » كما قول « لا يكلف الله نفسا الا وسعها »

وفي سلوك نبي الرحمة « ما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما » •

رابعها : الرفق والمودة والبر بأهل الكتاب الذين ظلوا على اتباعهم للرسالات السابقة ولم تتسع قلوبهم للإيمان بالرسالة الخاتمة فنرى القرآن اكريم يقول للنبي ﷺ — بعد أن ذكر جانباً من انحرافاتهم « فأعف عنهم وأصفح إن الله يحب المحسنين » •

بل ان الكتاب الحق يتجاوز ذلك الى التوصية بالبر بهم والاقساط بهم وفي ظل هذه الرحمة وقف النبي ﷺ عندما مرت به جنازة يهودي ، كما جعل عمر عطاء لليهودي الفقير من بيت مال المسلمين •

خامسها : أن هذه الرحمة التي ورد ذكرها مرارا في الكتاب العزيز — وتعد من الملامح البارزة للرسالة الخاتمة تجاوزت — البشر حتى شملت الحيوان الذي يشارك الانسان الحياة على الأرض فذكر النبي ﷺ رجلا دخل الجنة ، لأنه سقى كلبا يلحس الثرى من شدة العطش كما ذكر امرأة دخلت النار في هرة حبستها دون طعام أو شراب •

الفصل الخامس

من خطب الامام على كرم الله وجهه

١ - خطبة الزهراء

« الحمد لله الذى هو أول كل شىء وبديه^(١) ، ومنتهى كل شىء ، وولىه ، وكل شىء خاضع له ، وكل شىء قائم به ، وكل شىء ضارع اليه ، وكل شىء مستكين له .

خشعت له الأصوات ، وكلت دونه الصفات ، وضلت دونه الأوهام ، وحارت دونه الأحلام^(٢) ، وانحسرت^(٣) دونه الأبصار ، لا يقضى فى الأمور غيره ، ولا يتم شىء منها دونه .

سبحانه ما أجل شأنه ، وأعظم سلطانه ، تسبح له السموات العلى ، ومن فى الأرض السفلى ، له التسبيح والعظمة ، والملك والقدرة ، والحوّل والقرّة ، يقضى بعلم ، ويعفو بحلم .

قوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ، وعز كل ذليل ، وولى كل نعمة ، وصاحب كل حسنة ، وكاشف كل كربّة ، المطلع على كل خفية ، المحصى لكل سريرة ، يعلم ماتكن الصدور ، وما ترخى عليه الستور .

الرحيم بخلقه ، الرؤوف بعباده ، من تكلم منهم سمع كلامه ، ومن سكت منهم عام ما فى نفسه ، ومن عاش منهم فعليه رزقه ، ومن مات منهم فاليه مصيره ، أحاط بكل شىء علمه ، وأحصى كل شىء حفظه .

اللهم لك الحمد عدد ما تحبى وما تميت ، وعدد أنفاس خلقك ولفظهم

(١) البداية : أول كل شىء ومبداه .

(٢) الأحلام : العقول .

(٣) انحسرت : تعبت وكلت الأبصار فلم تستطع أن تراه .

ولحظ أبصارهم ، وعدد ما تجرى به الريح ، وتحمله السحاب ، ويختلف به الليل والنهار ، ويسير به الشمس والقمر والنجوم ، حمدا لا ينقضى عدده ، ولا يفنى أمده .

اللهم أنت قبل كل شيء ، واليك مصير كل شيء ، وتكون بعد هلاك كل شيء ، وتبقى ويفنى كل شيء ، وأنت وارث كل شيء ، أحاط علمك بكل شيء ، وأيسر يعجزك شيء ، ولا يتواري عنك شيء ، ولا يقدر أحد قدرتك ، ولا يشركك أحد حق شركك ، ولا تهتدى العقول لصفتك ، ولا تبلغ الأوهام حدك .

حارت الأبصار دون النظر اليك ، فلم تراك عين فتخبر عنك كيف أنت وكيف كنت ، لا نعلم اللهم كيف عظمتك ، غير أننا نعلم أنك حي قيوم ، لا تأخذك سنة^(١) ولا نوم ، لم ينته اليك نظر ، ولم يدركك بصر ، ولا يقدر قدرتك ملك ولا بشر .

أدركت الأبصار ، وكتبت الآجال ، وأحصيت الأعمال ، وأخذت بالنواصي والأقدام ، لم تخلق الخلق لحاجة ولا لرحمة ، ملأت كل شيء عظمة ، فلا يرد ما أردت ، ولا يعطى ما منعت ، ولا ينقص سلطانك من عصاك ، ولا يزيد في ملكك من أطاعك .

كل سر عندك عامه ، وكل غيب عندك شاهده ، فلم يستتر عنك شيء ، ولم يشغلك شيء عن شيء ، وقدرتك على ما تقضى كقدرتك على ما قضيت ، وقدرتك على القوى كقدرتك على الضعيف ، وقدرتك على الأحياء كقدرتك على الأموات .

فاليك المنتهى ، وأنت الموعد ، لا منجى الا اليك ، بيدك ناصية كل

دابة ، وبإذنك تسقط كل ورقة ، لا يغرب^(٥) عنك مثقال ذرة ، أنت الحي القيوم •

سبحانك ، ما أعظم ما يرى من خلقك ، وما أعظم ما يرى من ملكوتك ، وما أقلهما فيما غاب عنا منه ، وما أسبغ^(٦) نعمتك في الدنيا وأحقرها في نعيم الآخرة، وما أشد عقوبتك في الدنيا ، وما أيسرها في عقوبة الآخرة •

وما الذى نرى من خلقك ، ونعتبر من قدرتك ، ونصف من سلطانك، فيما يغيب عنا منه ، مما قصرت أبصارنا عنه ، وكلت عقولنا دونه، وحالت الغيوب بيننا وبينه •

فمن قرع سنه ، وأعمل فكره : كيف أقمت عرشك ؟ كيف ذرأت^(٧) خلقك ؟ وكيف علقت في الهواء سماواتك ؟ وكيف مددت أرضك ؟ يرجع طرفه^(٨) حاسرا وعقله مبهورا ، وسمعه والها^(٩) ، وفكره متحيرا •

فكيف يطلب علم ما قبل ذلك من شأنك ، اذ أنت وحدك في الغيوب التى لم يكن فيها غيرك ولم يكن لها سواك ، لا أحد شهدك حين فطرت الخلق ، ولا أحد حضرك حين ذرأت النفوس •

فكيف لا يعظم شأنك عند من عرفك ؟ !! وهو يرى من خلقك ما ترتاع به عقولهم ، ويملا قلوبهم ، من رعد تفزع له القلوب ، وبرق يخطف

(٥) أى لا يغيب عن علمه شيء ولو كان مثقال ذرة •

(٦) أى أن نعمته سائغة تامة •

(٧) ذرا الخلق : خلقهم •

(٨) الطرف : البصر • حاسرا : كليلا •

(٩) الوله : ذهاب العقل والتحير •

الأبصار ، وملائكة خلقتهم وأسكنتهم سمواتك ، وليست فيهم فترة^(١٠)
ولا عندهم غفلة ، ولا بهم معصية •

هم أعلم خلقك بك ، وأخوفهم لك وأقومهم بطاعتك ، ليس يغشاهم
نور العيون ، ولا سهو العقول ، لم يسكنوا الأصلاب ، ولم تضمهم
الأرحام ، أنشأتهم انشاء ، وأسكنتهم سمواتك ، وأكرمهم بجوارك ،
وائتمنتهم على وحيك ، وجنبتهم الآفات ، ووقيتهم السيئات ، وطهرتهم
من الذنوب ، فلولوا تقويتك لم يقووا ، ولولا تثبيتك لم يثبتوا ، ولولا
رهبتك لم يطيعوا ، ولولاك لم يكونوا •

أما انهم على مكانتهم منك ، ومنزلاتهم عندك ، وطول طاعتهم أياك لو
يعاينون ما يخفى عليهم لاحتقروا أعمالهم ، ولعلموا أنهم لم يعبدوك حق
عبادتك •

فسبحانك خالقا ومعبودا ومحمودا بحسن بلائك عند خلقك ، أنت
خلقت ما دبرته مطعما ومشريا ، ثم أرسلت داعيا إلينا ، فلا الداعي أجبنا ،
ولا فيما رغبنا فيه رغبنا ، ولا إلى ما شوقتنا إليه اشتقنا •

أقبلنا كلنا على جيفة^(١١) نأكل منها ولا نشبع ، وقد زاد بعضنا على
بعض حرصا ، لما يرى بعضنا من بعض فافتضحنا بأكلاها ، واصطلحنا على
حبها ، فأعمت أبصار صلاحنا وفقهائنا ، فهم ينظرون بأعين غير صحيحة ،
ويسمعون بأذان غير سمعية ، فحيثما زالت زالوا معها ، وحيثما مالت
أقبلوا إليها •

وقد عاينوا المأخوذين على الغرة^(١٢) كيف فاجأتهم الأمور ، ونزل بهم
المحذور ، وجاءهم من فراق الأحبة ما كانوا يتوقعون ، وقدموا من الآخرة

(١٠) الفترة : الضعف .

(١١) الجيفة : هي جثة كل شيء يموت إذا انتنت وخرجت رائحتها .
والمقصود هنا الدنيا ، فهي جيفة منتنة لا يتكالب عليها الا كلاب الطريق .

(١٢) على غرة : على غفلة على سبيل المفاجأة .

ما كانوا يوعدون ، فارقوا الدنيا وصاروا الى القبور ، وعرفوا ما كان فيه من الغرور ، فاجتمعت عليهم حسرتان : حسرة الفوت وحسرة الموت .

فاغبرت لها وجوههم ، وتغيرت بها ألوانهم ، وعرفت بها جباههم ، وشخصت أبصارهم ، وبردت أطرافهم ، وحيل بينهم وبين المنطق .

وان أحدهم لبين أهله ينظر ببصره ويسمع بأذنه ، ثم زاد الموت في جسده حتى خالط بصره ، فذهبت من الدنيا معرفته ، وهلكت عند ذلك حجته ، وعانين هول أمر كان مغطى عليه ، فأحد^(١٣) لذلك بصره .

ثم زاد الموت في جسده ، حتى بلغت نفسه الحلقوم ، ثم خرج روحه من جسده فصار جسدا ملقى لا يجيب داعيا ، ولا يسمع باكيا ، فنزعوا ثيابه وخاتمه ثم وضأوه وضوء الصلاة ، ثم غسلوه وكفنوه أدراجا^(١٤) في أكفانه ، وحنطوه ثم حملوه الى قبره ، فدلوه^(١٥) في حفرة ، وتركوه مغطى بمقطعات من الأمور ، وتحت مسألة منكر ونكير^(١٦) ، مع ظلمة وضيق ، ووحشة قبر ، فذلك مثواه حتى يبلى جسده ويصير ترابا .

حتى اذا بلغ الأمر الى مقداره ، وألحق آخر الخلق بأوله ، وجاءه أمر من خالقه ، أراد به تجديد خلقه ، فأمر بصوت من سماواته ، فمارت السماوات مورا^(١٧) ، وفزع من فيها ، وبقي ملائكتها على أرجائها .

(١٣) أى جملة حديدا شديدا شاخصا .

(١٤) الإدراج : لف الشيء في الشيء . فها هو قدلف في اكفانه .

(١٥) دلوه أى اتزلوه .

(١٦) ذلك ان الانسان اذا وضع في قبره وذهب عنه أصحابه وأهله وخلاته جاءه ملكان منكر ونكير ، فيقتدان الميت ويسألانه : من ربك ؟ وما دينك وما النبى الذى بعث فيكم .

(١٧) مارى السماوات أى تحركت وجاءت وذهبت حتى اخلت نطلها .

ثم وصل الأمر الى الأرض - والخلق رفات لا يشعرون - فأرج^(١٨) الأرض وأرجفها وزلزلها ، وقلع جبالها ونسقها وسيرها ، وركب بعضها بعضا من هيئته وجلاله ، وأخرج من فيها ، فجددهم بعد بلائهم وجمعهم بعد تفرقهم ، يريد أن يحصيهم ويميزهم •

فريقا في ثوابه ، وفريقا في عقابه ، فخلد الأمر لأبده دائما ، خيره وشره ، ثم ام ينس الطاعة من المطيعين ، ولا المعصية من العاصين ، فأراد عز وجل أن يجازى هؤلاء وينتقم من هؤلاء •

فأثاب أهل الطاعة بجواره وحلول داره وعيش رغد وخلود أبدي ومجاورة الرب ، وموافقة محمد ﷺ ، حيث لا ظن^(١٩) ولا تغير ، وحيث لا تصيهم الأحزان ، ولا تعترضهم الأخطار ، ولا تشخصهم الاسفار •

وأما أهل المعصية فخلدهم في النار ، وأوثق منهم الأقدام ، وغلت^(٢٠) ومنهم الأيدي الى الأعناق ، في لهب قد اشتد حره ، ونار مطبقة^(٢١) على أهلها ، لا يدخل عليهم بها روح^(٢٢) ، مهم شديد ، وعذابهم يزيد ، ولا مدة للدار تنقضى ، ولا أجل للقوم ينتهى •

اللهم انى أسألك بأن لك الفضل ، والرحمة بيدك ، فأنت وليهما ، لا يليهما أحد غيرك ، وأسألك باسمك المخزون المكنون ، الذى قام به عرشك

(١٨) أى جعلها ترتج وتهتز وتضطرب وتلقى ما فى جوفها •

(١٩) الظن : الرحيل •

(٢٠) غلت الأقدام : قيدت وسلسلت بالسلاسل والقيود •

(٢١) مطبقة على أهلها : قد أحاطت بهم فلا يستطيعون الفكك منها •

(٢٢) الروح : هو النسيم العليل الذى ينعش النفوس ويسرها •

وكرسيك وسمواتك وأرضك ، وبه ابتدعت خلقك ، والصلاة على محمد ،
والنجاة من النار برحمتك ، آمين ، انك ولى كريم •

* * *

٢ — خطبة جامعة اخم ل الخمر

قام على بن أبى طالب خطيبا فقال :

« الحمد لله فاطر الخلق وفالق الاصباح ، وناشر الموتى وباعث من
فى القبور ، وأشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله •

أوصيكم بتقوى الله ، فان أفضل ما ترسل به العبد الايمان والجهاد
فى سبيله ، وكلمة الاخلاص فانها الفطرة ، واقام الصلاة فانها الملة ،
وايتاء الزكاة فانها من فريضته ، وصوم شهر رمضان فانها جنة (٢٣) من
عذابه ، وحج البيت فانها منفاة للفقير محضنة (٢٤) للذنب ، وصلة الرحم
فانها مثراة (٢٥) فى المال منسأة (٢٦) فى الأجل محبة فى الأهل ، وصدقة السر

فانها تكفر الخطيئة وتطفى غضب الرب ، وصنع المعروف فانها يدفع ميتة
السوء ويقي مصارع الهول •

أفيضوا فى ذكر الله فانها أحسن الذكر ، وارغبوا فيما وعد المتقون

(٢٣) جنة : وقلة .

(٢٤) محضنة للذنب : مذهب له باحقة له .

(٢٥) أى سبيل للثراء والغنى .

(٢٦) منشأة فى الأجل : زيادة فى العمر .

فان وعد الله أحقق الوعد ، واقتدوا بهدى نبيكم ﷺ فإنه أفضل الهدى ، واستنوا بسنته فإنها أفضل السنن ، وتعلموا كتاب الله فإنه أفضل الحديث ، وتفقهوا في الدين فإنه ربيع القلوب •

واستشفوا بنوره فإنه شفاء لما في الصدور ، وأحسنوا تلاوته فإنه أحسن القصص ، وإذا قرئ عليكم فاستمعوا وأنصتوا لعلكم ترحمون •

وإذا هديتم لعلمه فاعملوا بما علمتم به لعلكم تهتدون ، فان العالم العامل بغير علمه كالجاهل الجائر الذي لا يستقيم عن جهله بل قد رأيت أن الحجة أعظم والحسرة أدموم على هذا العالم أنسلخ من علمه على هذا الجاهل المتحير في جهله ، وكلاهما مضلل مشبور •

لا ترتابوا ، ولا تشكوا فتكفروا ، ولا ترخصوا لأنفسكم فتذهلوا (٢٧) ، ولا تذهلوا في الحق فتخسروا ، ألا وان من الحزم أن تتقوا ، ومن الثقة ألا تغتروا ، وان أنصحكم لنفسه أطوعمكم لربه ، وان أغشكم لنفسه أعصاكم لربه ، من يطع الله يأمن ويستبشر ، ومن يعص الله يخف ويندم ، ثم سلوا الله وارغبوا في العافية ، وخير مادام في القلب اليقين •

ان عوازم الأمور أفضلها ، وأن محدثاتها شرارها ، وكل محدث بدعة ، وكل محدث مبتدع ، ومن ابتدع فقد ضيع ، وما أحدث محدث بدعة الا ترك بها سنة •

المغبون من غبن دينه ، والمغبون من خسر نفسه ، وان الرياء من الشرك ، وان الاخلاص من العمل والايمان ، ومجالس اللهو تنسى

(٢٧) الذهول : ترك الشيء تناسيا له عن عمد او شغله شاغل عنه ، فان الاكثار من الترخص في الأمور يشغل الانسان كثيرا عن واجبات الدين •

القرآن ويحضرها الشيطان وتدعو الى كل غي ، ومجالسة النساء تزيغ القلوب وتطمح اليه الأبحار وهي مصادد الشيطان .

اصدقوا الله فان الله مع من صدق ، وجانبوا الكذب فان الكذب مجانب للإيمان ، ألا ان الصدق على شرف منجاة وكرامة ، وان الكذب على شرف ردى وهلكة .

ألا وقولوا الحق تعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله ، وأدوا الأمانة الى من ائتمنكم ، وصلوا أرحام من قطعكم ، وعودوا بالفضل على من حرمكم ، واذا عاهدتم فأوفوا ، واذا حكمتكم فاعداوا ، ولا تفاخروا بالآباء ولا تتبازوا^(٢٨) بالآلقاب ولا تمازحوا ، ولا يغضب بعضكم بعضا .

وأعينوا الضعيف والمظلوم والغارمين^(٢٩) في سبيل الله وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وارحموا الأرملة واليتيم ، وأفشوا السلام وردوا التحية على أهلها بدئها أو بأحسن منها .

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعانوا على الاثم والعُدوان ، واتقوا الله ان الله شديد العقاب »^(٣٠) .

وأكرموا الضيف ، وأحسنوا الى الجار ، وعودوا المرضى ، وشيعوا الجنائز ، وكونوا عباد الله اخوانا .

أما بعد ، فان الدنيا قد أدبرت وأذنت بوداع ، وان الآخرة قد أظلت

(٢٨) التنازع بالآلقاب : رمى الناس بعضهم بعضا بالآلقاب السيئة المهينة .

(٢٩) الغارمين : الذين لزمتهم الديون في غير معصية .

(٣٠) سورة المائدة : ٢ .

وأشرفت باطلاع ، وإن المضمار اليوم وغدا السباق ، وإن السبقة^(٣١) الجنة والغاية النار .

ألا وأنكم في أيام مهل من ورائها أجل يحثه عجل ، فمن أخلص لله عمله في أيام مهلة قبل حضور أجله فقد أحسن عمله ونال أمه ، ومن قصر عن ذلك فقد خسر عمله وخاب أمه وضره أمه ، فاعملوا في الرغبة والرهبة ، فإن نزلت بكم رغبة فاشكروا الله واجمعوا معها رهبة ، وإن نزلت بكم رهبة فاذكروا الله واجمعوا معها رغبة ، فإن الله قد تأذن المسلمين بالاحسن ولن شكر بالزيادة .

وإني لم أر مثل الجنة نام طالبها ولا كالنار نام هاربها ، ولا أكثر مكتسبا من شيء كسبه ليوم تدخر فيه الذخائر وتبلى فيه السرائر وتجتمع فيه الكبائر .

وإنه من لا ينفعه الحق يضره الباطل ، ومن لا يستقيم به الهدى يجر به الضلال ، ومن لا ينفعه اليقين يضره الشك ، ومن لا ينفعه حاضره فعلازمه^(٣٢) عنه أعور وغائبه عنه أعجز .

وأنكم قد أمرتم بالظن^(٣٣) ودلتم على الزاد ، ألا وإن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان : طول الأمل واتباع الهوى ، فأما طول الأمل فينسى الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيبعد عن الحق .

ألا وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة ، ولهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة إن استطعتم ، ولا تكونوا من

(٣١) أي أن الجنة مجال التسابق والتنافس .

(٣٢) العازب : الغائب البعيد .

(٣٣) الظن : الرحيل .

بنى الدنيا ، فان اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل » (٢٤) .

* * *

٣ - وصيته الجامعة لكميل

عن كميل التخمى قال : أخذ بيدي على بن أبى طالب ، فخرج بى الى ناحية الجبانة ، فلما أصح^(٢٥) تنفّس الصعداء ثم قال :

« يا كميل ، ان هذه القلوب أوعية ، فخبرها أوعاها ، فاحفظ عني ما أقول لك :

الناس ثلاثة : عالم ريانى ، ومتعام على سبيل نجاة ، وهمج رعا
أتباع كل ناعق ، مع كل ريح يميلون ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم
يلجأوا الى ركن وثيق .

يا كميل ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة
والعلم يزكو على الانفاق ، ومنفعة المال تزول بزواله .

يا كميل ، محبة العلم دين يدان به ، يكسب الانسان الطاعة في
حياته ، وجميل الأحدثه بعد وفاته ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه .

يا كميل ، مات خزان المال وهم أحياء ، والعامة يلقون ما بقى
الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم موجودة ، ان هاهنا لعلماء جما
— وأشار بيده الى صدره — لو وجدت له حملة ، بلى أجد لقنا^(٢٦) غير
مأمون ، يستعمل آلة الدين للدنيا ، ويستظهر بنعم الله على عباده وبحججه

(٢٤) البداية والنهاية لابن لاثير (٣٠٧/٧) ، وحياة الصحابة
(٤٧٢/٣ — ٤٧٤) ، وجاء بعضها في اعجاز القرآن للبلاغتي (ص ١٤٥) .

(٢٥) أصح : خرج الى الصحراء .

(٢٦) اللقن : سريع الفهم والفتنة ، ولكنه غير مأمون اى غير ثقة .

على أوليائه ، أو منقادا لحمة الحق ولا بصيرة في أحنائه (٣٧) .

ينقدح (٣٨) الشك في قلبه لأول عارض من شبهة ، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، أو منعموا بالذلة سلس (٣٩) القيادة للشهوة ، أو مغرما بالجمع والادخار ، ليسا من رعاة الدين في شيء ، أقرب شبها بهما الأنعام السائمة (٤٠) .

كذلك يموت العلم بموت حامله ، اللهم بلى لا تغلو الأرض من قائم بحجة الله ، اما ظاهرا مشهورا ، واما خائفا مغمورا ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته .

وكم ذا وأين ؟ أولئك والله الأقلون ، والأعظمون عند الله قدرا ، بهم يحفظ الله حججه وبيناته ، حتى يودعوها نظراءهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم .

هجم بهم العلم على حقيقة الايمان حتى باسروا روح اليقين ، فاستلنوا ما استخشن المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالرفيق الأعلى .

(٣٧) أحنائه : جوانبه ، فهو ينقاد لأهل الحق لا فيها للحق وإيمان به ولكن هو التقليد فحسب ، فهو لا يحمل بين جوانب نفسه بصيرة يميز بها بين الحق والباطل .

(٣٨) أى يؤثر الشك في صدره عند ورود أى شبهة اليه ، ذلك لأن الايمان واليقين لم يتمكن في قلبه .

(٣٩) سلس القيادة : سهل الانقياد .

(٤٠) الأنعام السائمة : المشية والأغنام التى ترعى حيث شاعت . والمقصود هنا انه ليس له انقياد للحق ، به هو منقاد لشهوته ونزواته حيثما كانت ، وقد يظن أهل الحق في شيء ثم ينكمس على عقبيه فينقاد سهولة لأهل الباطل .

يا كميل ، أولئك خلفاء الله في أرضه ، والدعاة الى دينه ، آه آه
شوقا اليهم • انصرف يا كميل اذا شئت (٤١) •



٤ — من كلامه عليه السلام

في آداب الحكماء والعلماء

» من حلم ساد ، ومن ساد استفاد ، ومن استحميا حرم ، ومن هاب
خاب ، ومن طلب الرئاسة صبر على السياسة ، ومن أبصر عيب نفسه عمى
عن عيب غيره ، ومن سل سيف البغي قتل به •

ومن احتقر لأخيه بثرا وقع فيها ، ومن نسي زاته استعظم زلة غيره ،
ومن هتك حجاب غيره انتهكت عورات بيته ، ومن كابر في الأمور عطب ،
ومن اقتحم اللجة (٤٢) غرق •

ومن أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تجبر على
الناس ذل ، ومن تعمق في العمل مل ، ومن صاحب الأنذال حقر ، ومن
جالس العلماء وقر ، ومن دخل مداخل السوء اتهم •

ومن حسن خلقه سهلت له طريقه ، ومن حسن كلامه كانت الهيبة
أمامه ، ومن خشى الله فاز ، ومن استقاد الجهل ترك طريق العدل ، ومن
عرف أجله قصر أمه •

(٤١) العقد الفريد — ابن عبد ربه الأندلسي — لجنة التأليف والترجمة
والنشر ١٩٤٠م — (٢١٢/٢) — (٢١٣) •

(٤٢) اللجج : جمع لجة . ومنه لجة البحر : الماء الكثير الذي لا يرى
طرفاه . فمن يدخل في غمرة هذا الماء الكثيف يغرق . وكذا من دخل في لج
الأمور في اختلاطها بشبهاتها وتفرعاتها يغرق فيها فلا يهتدى للحق منها •

ثم أنشأ يقول :

البس أخاك على عيوبه واستر وغط عاى ذنوبه
وصبر على بهت السفه وللزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلا وكل الظلوم الى حسبه « (٤٣)

* * *

« أوصيكم عباد الله ونفسى بتقوى الله ولزوم طاعته ، وتقديم العمل ، وترك الأمل ، فانه من فرط فى علمه لم ينتفع بشىء من أمله .

أين التعب بالليل والنهار ، والمقتحم لجج البحار ، ومفاوز القفاز (٤٤) ؟
يسير من وراء الجبال وعالج (٤٥) الرمال ، يصل الغدو بالرواح ، والمساء
بالصباح فى طلب محقرات الأرباح ، هجمت عليه منيته ، فعظمت بنفسه
رزيته ، فصار ما جمع بورا ، وما اكتسب غرورا ، ووافى القيامة
محسورا (٤٦) .

أيها اللاهى الغار (٤٧) نفسه ، كأنى بك وقد أتاك رسول

(٤٣) العتد الفريد لابن عبد ربه (٢/٢٠ - ٢١) .

(٤٤) المفاوز : الصحارى القفار المهلكة ، وقد سميت الصحراء مفاوز
لأن من دخلها وخرج منها سالما فقد فاز ، والقفاز : جمع قفزة ، وهى الأرض
التي ليس بها نبات ولا ماء .

(٤٥) علاج الرمال : هو ما تراكم من الرمل ودخل بعضه فى بعض .

(٤٦) محسورا : نادما اشد الندم على ما قدم واقتترف من الذنوب وترك
من الطاعات .

(٤٧) الذى يغرنفسه ويخدعها بجعله .

ربك^(٤٨) ، لا يقرع لك بابا ، ولا يهاب لك حجابا ، ولا يقبل منك بديلا ، ولا يأخذ منك كفيلا ، ولا يرحم لك صغيرا ، ولا يوقر فيك كبيرا ، حتى يؤدبك الى قعر مظلمة ، أرجاؤها موحشة ، كفعله بالأعمى الخالية والقرون الماضية .

أين من سعى واجتهد ، وجمع وعدد ، وبنى وشيد ، وزخرف ونجد^(٤٩) ، وبالقليل لم يقنع ، وبالكثير لم يمتنع ؟ !!

* * *

٥ — وصية أمير المؤمنين

على بن أبى طالب لابنه الحسن

« من الوالد الفانى ، المقر لازمان ، المدبر للعمر ، المستسلم فيه للدهر ، الدام للدنيا ، الساكن مساكن الموتى ، الظاعن اليهم عنها غدا ، الى المولود المؤمل ما لا يدرك ، السالك سبيل من قد هلك ، عرض الأسقام ، ورهينة الأيام ، ورمية المصائب ، وعبد الدنيا ، وتاجر الغرور ، وغريم المنايا ، وأسير الموت ، وحلف الهموم ، وقرين الأحزان ، ونصب الآفات ، وصريع الشهوات ، وخائفة الأموات .

أما بعد ، فان فيما قد تبينت من ادبار الدنيا عنى ، وجنوح^(٥٠) الدهر على ، واقبال الآخرة على ، ما يزعنى^(٥١) عن ذكر ما سوى ، والاهتمام بما ورائى ، غير أنى حين تفرد بى دون هموم الناس هم نفسى ، فصدقتى

(٤٨) يقصد ملك الموت .

(٤٩) التجديد : هو تزيين البيوت بالفرش والوسائد والبسط وانواع الزينة المختلفة .

(٥٠) جنوح الدهر : ميله على الانسان بمصائبه ودواهيها .

(٥١) ما يزعنى : يكتنى ويزجرنى .

رأيت ، وتصرف بى هواى ، وصرح الى محض أمرى ، فأقصى بى الى جد
لا يزرى^(٥٢) به لعب ، وصدق لا يشوبه كذب .

وجدتك — أى بنى — من بعضى ، بل وجدتك من كلى ، حتى كان
شيئاً لو أصابك أصابنى ، وكان الموت لو أتاك أتانى ، فعنانى^(٥٣) من أمرك
ما عنانى من نفسى ، فكثبت اليك كتابى هذا ان أنا بقيت أو فنيت .

وانى أوصيك يا بنى بتقوى الله ، ولزوم أمره ، وعمارة قلبك بذكره ،
والاعتماد بحبله فهو أوثق السبب بينك وبينه .

يا بنى أحببى قلبك بالموعظة ، وأمته بالزهد ، وقوه باليقين ، وذله بذكر
الموت ، وأكسره بالفناء ، وبصره فجائع الدنيا ، وحذره صولة^(٥٤) الدهر ،
وفحش تقلب الأيام ، واعرض عليه أخبار الماضين ، وذكره ما أصاب من
كان قبلك .

وسر فى ديارهم ، واعتبر بآثارهم ، وانظر ما فعلوا ، وعمن انتقلوا ،
وأين حلوا ، فانك تجدهم انتقلوا عن الأحبة وحلوا دار الغربى ، وكأنك .
عن قليل قد صرت كأحدهم ، فأصلح مثواك ، واحرز^(٥٥) آخرتك ودع
القول فيما لا ترف ، والدخول فيما لا تكلف ، وأمسك عن السير اذا خفت ،
ضلالة ، فان الكف عند حيرة الضلالة خير من ركوب الأهوال .

وأمر بالمعروف تكن من أهله ، وأنكر المنكر بيدك ولسانك وبائن^(٥٦)

(٥٢) لا يتهاون ويتناقص به لعب .

(٥٣) فعنانى من أمرك : فشق على واهمنى .

(٥٤) صولة الدهر : سطوته وقهره .

(٥٥) احرز آخرتك : اجعلها مقصدك دائماً وضبطها اليك واحفظها
ولا تفرط فيها .

(٥٦) أى فارق من فعل المنكر جهد طاعتك وبكل ما تملك من جهد .

من فعله بجهدك ، وخفض الغمرات الى الحق ، وتفقه الدين ، وعود نفسك الصبر على المكروه ، وألجئ نفسك في الأمور كلها الى الله ، فانك تلجئها الى كهف حريز (٥٧) ومائع عزيز .

وأخلص في المسألة لربك ، فان بيده العطاء والحرمان ، وأكثر الاستخارة ، وتفهم وصيتي لا تذهبن عنك صفحا (٥٨)

أى بنى . . انى لما رأيته قد بلغت سنا ، ورأيتنى ازددت وهنا ، بادرت وصيتى اياك خصالا منهم أن تجعل بى أجلى قبل أن أقضى اليك ما فى نفسى ، وأنقص فى رأيى كما نقصت فى جسمى ، أو تسبقنى اليك بعض غلبة الهوى و فتن الدنيا ، فتكون كالصعب النفور (٥٩) .

وانما قلب الحدث (٦٠) كالأرض الخالية ، ما ألقى فيها من شيء قبلته ، فباكرتك بالأدب قبل ان يقسو قلبك ويشغل لبك (٦١) ، لتستقبل بجد رأيك ما قد كفاك تجربته ، فتكون قد كفيت مؤنة الطلب ، وعوفيت من علاج التجربة ، فأتاك من ذلك ما قد كنا نأثيه ، واستبان لك ما ربما أظلم علينا فيه .

أى بنى ، انى لم أكن عمرت عمر من كان قبلى ، فقد نظرت فى أعمارهم ، وفكرت فى أخبارهم ، وسرت فى آثارهم ، حتى عدت كأحدهم

(٥٧) أى محفوظ مصال منيع .

(٥٨) صفحا : جانبيا . أى لا تدع وصيتى هذه تذهب عنك جانبيا أو تباعد عنك .

(٥٩) أى تنفر من نصيحتى فلا تقبلها .

(٦٠) الحدث : الشاب الحديث السن الصغير .

(٦١) لبك : عقلك .

بل كأننى لما قد انتهى الى من أمورهم قد عمرت مع أولهم الى آخرهم ،
فعرفت صفو ذلك من كدره ، ونفعه من ضرره ، فاستخلصت من كل أمر
نحيلته (٦٢) ، وتوخيت لك جمياته ، وصرفت عنك مجهولة .

ورأيت عنايتى بك واجبة على ، فجمعت لك ما ان فهمته أدبك ،
فاغتنم ذلك وأنت مقتبل بين النية واليقين ، فعليك بتعليم كتاب الله
وتأويله ، وشرائع الاسلام وأحكامه وحلاله وحرامه ، لا تجاوز ذلك قبله
الى غيره .

فان أشفقت أن تلبسك شبهة لما اختف فيه الناس من أهوائهم
ورأيهم مثل الذى لبسهم ، فتقصد فى تعليم ذلك بلطف .

يا بنى ، وقدم عنايتك فى الأمر ليكون ذلك نظرا لدينك لا مماريا (٦٣)
ولا مفاخرا ولا طالبا لعرض عاجلتك ، فان الله يوفقك لرشدك ، ويهديك
لقصدك ، فاقبل عهدي اليك ، ووصيتى لك .

واعلم يا بنى أن أحب ما أنت آخذ به من وصيتى تقوى الله
والاقتصار على ما افترض الله عليك ، والأخذ بما مضى عليه أولوك من
آبائك ، والصالحون من أهل بيتك ، فانهم لم يدعوا أن ينظروا لأنفسهم
كما أنت ناظر ، وفكروا كما أنت مفكر ، ثم ردهم ذلك الى الأخذ بما
عرفوا ، والامسك عما لم يكلفوا .

فان أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم ما عاموا فيكون طلبك ذلك
بتعليم وتفهيم وتدبر ، لا بتوارد الشبهات وعلم الخصومات .

وابداً قبل نظرك فى ذلك بالاستعانة بالله عليه ، والرغبة اليه ،

(٦٢) نحيلته : خلاصته . وهى مأخوذة من النحل الذى يأخذ من كل
الأزهار والرياحين ويعطى لنا خلاصة هذا كله فى شكل عسل .

(٦٣) الممارى هو المجادل فى الباطل بغية الجدل والظهور لا طلباً
للوصول للحق .

واحذر كل شائبة أدخلت عليك شبهة ، وأسلمتك الى ضلالة ، فإذا أيقنت أن قد صفا قلبك فاخضع ، وتم رأيك فاجتمع كان همك في ذلك هما واحداً ، فاعز فيما فسر لك •

وان أنت لم يجتمع لهما ما تحب من فراغ نظرك فاعلم أنك انما تخبط خبط عشواء ، وليس من طلب الدين من خبط ولا خلط ، والامساك عند ذلك أمثل •

وان ما أبدوك به في ذلك آخره أنى أحمد الله الهى والهك ، اله الأولين والآخرين ، رب من في السموات ومن في الأرضين بما هو أهله ، وكما هو الله ، وكما يحب وينبغى له ، وأسأله أن يصلى على نبينا محمد ﷺ ، وأن يتم علينا نعمه لما وفقنا من مسألته ، والاجابة لنا ، فان بنعمته تتم الصالحات •

اعلم أى بنى أن أحدا لم ينبىء عن الله عز وجل كما نبأ محمد ﷺ فارض به رائدا ، فانى لم آلك نصيحة ، ولم تبلغ في ذلك ، وأنى اجتهدت مبلغى في ذلك لعنايتى وطول تجربتى وان نظرى لك كنظرى لنفسى •

اعلم أن الله واحد أحد صمد ، لا يضافه فى ملكه أحد ، ولا يزول ولم يزل ، أول من قبل الأشياء ، بلا أولية ، وآخر بلا نهاية ، حكيم عليم قديم ، لم يزل كذلك •

فإذا عرفت ذلك فافعل كما ينبغى لك في صغر خطره ، وقلة قدرته ، وكثرة عجزه ، وعظيم حاجتك الى ربك ، فاستعن بالله في طلب حاجتك ، وتقرب اليه بطاعته ، وارغب اليه بقدرته ، وارهب منه لربوبيته ، فانه حكيم لم يأمرك الا بحسن ، ولم ينهك الا عن قبيح •

اجعل نفسك ميزانا بينك وبين غيرك ، وأحبب لغيرك ما تحب
لنفسك ، واكره له ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم ، وأحسن
كما تحب أن يحسن اليك ، ولا تقل ما لا تعلم بل قل مما تعلم ، ولا تقل
ما لا تحب أن يقال لك .

اعلم يا بنى أن الاعجاب ضد الصواب ، وآفة الألباب ، فاسع في
كدحك ، ولا تكن خازنا لغيرك ، فإذا هديت لقصدك فكن أخشع ما تكون
لربك ، واعلم أن أمامك طريقا ذا مشقة بعيدة وأهوال شديدة ، وأنت
لا غنى بك عن حسن الارتياح ، وقدر بلاغك من الزاد من خفة الظهر ،
فلا تحملن على ظهرك فوق طاقتك ، فيكون ثقله وبالا عليك .

وإذا وجدت من أهل الحاجة من يحمل لك زادك ، وأوافيك به حيث
تحتاج اليه فاغتمته ، واغتم ما أقرضت من استقرضك في حال غناك .

واعلم أن أمامك عقبة كئودا^(٦٤) ، مهبطها على جنة أو على نار ،
فارتد لنفسك قبل نزولك ، فليس بعد الموت مستعقب^(٦٥) ، ولا إلى الدنيا
منصرف .

واعلم أن الذى بيده خزائن السموات والأرض قد أذن لك فى الدعاء ،
وضمن الإجابة ، وأمرك أن تسأله فيعطيك ، وتطلب اليه فيرضيك .

وهو رحيم لم يجعل بينك وبينه حجابا ، ولم يلجئك الى من تشفع به
اليه ، ولم يمنحك ان أسأت التوبة ، ولم يعاجلك بالنقمة ، ولم يؤيسك من

(٦٤) العقبة الكئود : الشاقة الثقيلة .

(٦٥) أى ليس بعد الموت من استرضاء ، فقد مضى زمان العمل وجاء
زمان الحساب حيث لا رجعة للدنيا .

رحمته ، ولم يسد عليك باب التوبة ، وجعل توبتك الفزوع عن الذنب ،
وجعل سيئتك واحدة ، وجعل حسنك عشرا •

واذا ناديتك أجابك ، واذا ناجيته علم نجواك ، فأفضيت اليه
بحاجتك ، وأثنته ذات نفسك ، وشكوت اليه همومك ، واستعنته على
أمورك ، وسألكه من خزائن رحمته ، التي لا يقدر على اعطائها غيره من
زيادة الأعمار ، وصحة الأبدان ، وسعة الرزق ، وتمام النعمة •

فالحج في المسألة ، فبالدعاء تفتح أبواب الرحمة ، ولا يتطنك (٦٦)
إبطاء اجابته ، فان العطية على قدر النية ، فربما أخرت الاجابة متطول
مسألة السائل فيعظم أجره ويعطى سؤله ، وربما خضر ذلك له في الآخرة ،
فيعطى أجر تعبده ، ولا يفعل بعده الا ما هو خير له في العاجلة والآجلة ،
ولكن لا يجد لطفه أحد ، ولا يعرف دقائق تدبيره الا المصطفون •

ولتكن مسألتك لما يبقى ويدوم في صلاح دنياك ، وتسهيل أمرك
وشمول عافيتك ، فانه قريب مجيب •

اعلم أي بنى أنك خلقت للآخرة لا للدنيا، وللبقاء لا للبقاء، وانك لا
ينجو من قلة دار بلغة ، وطريق الآخرة ، وانك طريدة الموت الذي لا ينجو
منه هاربه ، ولا يفوته طالبه ، فاحذر أن يدركك وأنت على حال سيئة ،
وأعمال مردية (٦٧) ، فتقع في ندامة الأبد ، وحسرة لا تتفقد ، فتفقد دينك
انفسك ، فدينك لحمك ودمك ، ولا ينقذك غيره •

(٦٦) القنوط : اليأس .

(٦٧) مردية : مهلكة .

أى بنى ، أكثر ذكر الموت وذكر ما تهجم عليه ، ونفضى بعد الموت إليه ، واجعله نصب عينيك ، حتى يأتيك ، وقد أخذت له حذرک ، ولا يأتیک بغتة فيمهلك^(٦٨) . هو أكثر ذكر الآخرة وكثرة نعمهما وحبرهما^(٦٩) وسرورها ودوامها وكثرة صنوف لذاتها ، وقلة آفاتهما إذا سلمت .

وغير في ألوان عذابها وشدة غمومها ، وأصناف نكالها^(٧٠) ان أنت تيقنت ، فان ذلك يزهدك في الدنيا ، ويرغبك في الآخرة ، ويصغر عندك زينة الدنيا ، وغرورها وزهرتها ، فقد نبأك الله عنها ، وبين أمرها وكشف عن مساويها .

فإياك أن تغتر بما ترى من اخلاص^(٧١) أهلها اليها ، وتكالبهم عليها ككلاب عاوية وسباع ضاربة ، يهر^(٧٢) بعضهم الى بعض ، عزيزها ذليلها ، وكثيرها قليلها ، قد أضلت أهلها عن قصد السبيل ، وسلكت بهم طريق العمى ، وأخذت بأبصارهم عن منهج الصواب ، فتأهوا في حيرتها ، وغرقوا في فتنتها ، واتخذوها رياء^(٧٣) ، فلعبت بهم ولعبوا بها ونسوا ما وراءها ، فإياك يا بنى أن تكون مثل من قد شانتته^(٧٤) بكثرة عيوبها .

أى بنى ، انك أن ترهدها فيما قد زهدتك فيه من أمر الدنيا ، وتعرض نفسك عنها ، فهي أهل ذلك ، فان كنت غير قابل نصحي إياك عنها فاعلم

(٦٨) فيمهلك ويغلبك .

(٦٩) الحيور : السرور .

(٧٠) النكال : العذاب .

(٧١) اخلاص أهلها : ركونهم الى الدنيا .

(٧٢) يهر : يكره بعضهم بعضا .

(٧٣) أصبحت الدنيا كل حياتهم ، حتى انهم اعتبروها بمصدر الرى والهناء ، ومعلوم ان الرى هو سبب من أسباب استهزار الحياة .

(٧٤) شانتته : تركت عيانيه وصمته بالمعالي والمساويء .

يقينا أنك لن تبلغ أمك ، ولن تعدو أجلك ، فانك في سبيل^(٧٥) من قد كان قبلك ، فأجعل في الطلب ، واعرف سبيل المكتسب ، فانه رب طلب قد جر الى حرب ، وليس كل طالب يصيب ، ولا كل غائب يؤوب^(٧٦) ، وأكرم نفسك عن كل دنية ، وان ساقطك .

اياك أن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضا ، وقد جعلك الله به حرا ، وما منفعة خير لا يدرك باليسير ، ويسير لا ينال الا بالعسير ، واياك أن توجف^(٧٧) بك مطايا الطمع ، فتوردك مناهل^(٧٨) الهلكة .

وان استطعت ألا تكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ، فانك مدرك فسمك وأخذ سهوك ، وان اليسير من الله أعظم وأكرم ، وان كان كل من الله ، والله المثل الأعلى .

واعلم أن لك في يسير مما تطلب فقتال من الملوك افتخارا وبيع عرضك ودينك عليك عارفاقتصد في أمرك تحمد معقبة عقلك ، انك لست باثما شيئا من عرضك ودينك الا بئمن ، والمغبون من حرم نصيبه من الله ، فخذ من الدنيا ما أتاك ، وتول عما تولى عنك .

فان أنت لم تفعل فأجعل في الطلب ، واياك ومقاربة من يشينك ، وتباعد من الساطان ، ولا تأمن خدع الشيطان ، ومتى ما رأيت منكرا من أمرك فأصلحه بحسن نظرك ، فان لكل وصف صفة ، ولكل قول حقيقة ،

(٧٥) اى انك سائر في نفس الطريق الذى سار فيه من كان قبلك وهو طريق الرحيل عن الدنيا مهما طال عمرك ، فكذا طريق كل حى .

(٧٦) يؤوب : يعود ويرجع الى اهله وأحبابه .

(٧٧) توجف : تسرع . الوجيف : السير السريع .

(٧٨) المناهل : الموارد التى يستقى ويشرب منها الماء .

ولكل أمرا وجها ، ينال الأريب^(٧٩) فيه رشد ، ويهلك الأحمق بتعسفة فيه نفسه .

يا بنى .. كم قد رأيت من قيل له تحب أن تعطى الدنيا بما فيها مائة سنة بلا آفة ولا أذى ، لا ترى فيها سوءا ، ويكون آخر أمرك عذاب الأبد ، فلا يقنع بها ولا يريد بها ، ورأيت قد أهلك دينه ونفسه باليسير من زينة الدنيا ، وهذا من كيد الشيطان وحبائله^(٨٠) فاحذر مكيدته وغروره .

يا بنى .. أملك عليك لسانك ، ولا تتطلق فيما تخاف الضر فيه ، فان الصمت خير من الكلام في غير منفعة ، وتلافيك ما فرط من همتك أيسر من ادراكك ما فات من منطقك .

واحفظ ما في الوعاء بشد الوكاء^(٨١) ، واعلم أن حفظ ما في يديك خير من طلب ما في يد غيرك ، وحسن التدبير مع الكفاف^(٨٢) أكفى لك من الكثير في الاسراف ، وحسن اليأس خير لك من الطلب الى الناس .

يا بنى .. لا تحدث عن غير ثقة فتكون كذابا ، والكذب داء فجانبه^(٨٣) وأهله .

يا بنى .. العفة مع الشدة خير من الغنى مع الفجور ، من فكر أبصر ومن كثر خطؤه هجر ، رب مضيع ما يسره ، وساع فيما يضره ، من خير

(٧٩) الأريب : العاقل .

(٨٠) حبائله : مصليده . مفردها حباله .

(٨١) الوكاء : كل سر أو خيط يشد به فم السقاء أو الوعاء .

(٨٢) الكفاف من القوت : الذى يكون على قدر حاجة الانسان ويغنيه عن سؤال الناس فلا يزيد عنه شيء ولا ينقص .

(٨٣) جانبه : ابتعد عنه وعن أهله .

حظ المرء قرين صالح ، فقارن أهل الخير تكن منهم ، وبائن أهل الشر تبين منهم •

ولا يغلبن عليك سوء الظن ، فإذ لك لن تدع بينك وبين خليلك صلحا ، قد يقال من الحزم سوء الظن •

بئس الطعام الحرام ، وظلم الضعيف أفحش الظلم ، الفاحشة تقصم القلب ، إذ كان الرفق خرقا^(٨٤) كان الخرق رفقا ، وربما كان الداء دواء ، وربما نصح غير الناصح وغش المتنصح •

إياك والاتكال على المنى فانها بضائع النوكى^(٨٥) ، ذك^(٨٦) قلبك بالألب كما تذكى النار الحطب ، ولا تكن كصاحب الليل وغشاء^(٨٧) السيل •

كفر النعمة لؤم ، وصحبة الجاهل شؤم ، والعقل حفظ التجارب ، وخير ما جربت ما وعظك ، ومن الكرم لين الشيم^(٨٨) ، باذر الفرصة قبل أن تكون غصة ، ومن الحزم العزم^(٨٩) ، ومن سبب الحرمان التواني ، ومن الفساد أضاعة الزاد ومسدة المعاد •

لكل أمر عاقبة ، فرب مشير بما يضر ، لا خير في معين مهين ، ولا في صديق ظنين^(٩٠) لا تدع الطلب فيما يحل ويطيب فلا بد من بلغة^(٩١) ، وسيأتيك ما قدر لك •

(٨٤) الخرق : الحق والجهل •

(٨٥) النوكى : الحمقى . والأثوك : الأحمق •

(٨٦) ذك قلبك : أى أشعله وأجعله متقدما بالألب •

(٨٧) الغشاء : ما يحمله السيل ويسوقه أمامه من الزيد والوسخ وغيره •

(٨٨) الشيم : الصفات •

(٨٩) العزم : الاستعداد فى أخذ تعاليم الله بالحزم والعزم الأكيد •

(٩٠) ظنين : كثير الظن فى الناس •

(٩١) البلغة : ما يتبلغ به من العيش بدون زيادة على الحاجة •

التاجر مخاطر ، من حلم ساد ، ومن تفهم ازداد ، ولقاء أهل
الخير عمارة القلوب ، ما ذل لك بقوة .

واياك أن تطمح بك مطية اللجاج ، وإن قارفت سيئة ففعل محوها
بالتوبة ، ولا تخن من ائتمنك وإن خانك ، ولا تدع سروان أذاع شرك .

خذ بالفضل ، واحسن البذل ، وأجيب للناس الخير ، فإن هذه من
الأخلاق الرفيعة ، واذك قأما تسلم ممن تسرعت إليه ، وكثيرا ما يحمده
من تفضلت عليه .

اعلم أى بنى أن من الكرم الوفاء بالذمم والدفع عن الحرم ،
والصدود آية المقت^(٩٢) ، وكثرة المال آية البخل ، وبعض الامساك عن
أخيك مع الالف خير من البذل مع الجنف^(٩٣) ، ومن الكرم صلة الرحم ،
والتحريم وجه القطيعة .

احمل نفسك من أخيك عند جموحه على البذل ، وعند تباعده على
الدنو ، وعند شدته على اللين ، وعند تحرمه على الاعتذار ، حتى كأنك له
عبد ، وكأنه ذو نعمة عليك .

ولا تضع ذلك فى غير موضعه ، ولا تفعله بغير أهله ، ولا تتخذ من
عدو صديقك صديقا ، فتعداى صديقك ، ولا تعمل بالخديعة فإنها أخلاق
الأنام ، وامحض^(٩٤) أخاك النصيحة — حسنة كانت أم قبيحة — وساعده
على كل حال ، وزل معه حيث زال ، ولا تطلبن منه المجازاة فإنها من شيم
الدناءة ، وخذ على عدوك بالفضل ، فإنه أحرى للظفر .

(٩٢) المقت : المكره .

(٩٣) الجنف : الميل عن الحق والظلم .

(٩٤) امحض أخاك النصيحة : اخلص له النصيحة .

لا تصرم^(٩٥) أخاك على ارتياب ، ولا تقطعه دون استعتاب ، وإن من غالظك فإنه يوشك أن يلين ، ما أقبح القطيعة بعد الصلة ، والجفاء بعد اللطف ، والعداوة بعد المودة ، والخيانة لمن ائتمنتك ، وخلف الظن لمن ارتجأك ، والغرر بمن وثق بك •

وإن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية ، ومن ظن بك خيرا فصدق ظنه ، ولا تضيعن بر أخيك اتكالا على ما بينك وبينه ، فإنه ليس لك بأخ من أضعف حقه •

لا يكون أهلك أشقى الناس بك ، ولا ترغبن فيمن زهد فيك ، ولا ترهغن فيمن رغب اليك ، إذا كان للخالط موضعا لا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته ، لا يكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان اليه ، ولا على البخل أقوى منك على البذل ، ولا على التقصير أقوى منك على الفضل •

لا يكثرن عليك ظلم من ظلمك ، فإنه يسعى في مضرته ونفعك ، وليس جزاء من سرك أن تسوءه •

اعلم أي بنى أن الرزق رزقان ، رزق تطلبه ورزق يطلبك ، فإن لم تأتئه أتاك ، واعلم أن الدهر ذو صروف ، فلا تكونن ممن يسبك لأعنة الدهر ومحفلا عند الناس عذره •

ما أقبح الخضوع عند الحاجة ، والجفاء عند الغنى ، إنما لك من دينيك ما أصلحت به مثواك ، فأنفق يسرك ، ولا تكن خازنا لغيرك ، فإن كنت جازعا مما تغفل من يديك فاجزع على ما لا يصل اليك •

(٩٥) لا تصرم أخاك : أي لا تقطع علاقتك به ومودتك له لجرد الشك والظن •

استدل على ما لم يكن بما قد كان ، فان الأمور أشباه يشبه بعضها بعضا ، ولا تكفرن ذا نعمة فان كفر النعمة من قلة الشكر ولؤم الخلق ، وأقل العذر ، ولا تكونن ممن لا تنفعه العظلة الا اذا بلغت في الملامة ، فان العاقل يتعظ بالقليل ، والبهايم لا تنفع الا بالضرب •

واتعظ بغيرك ، ولا يكونن غيرك متعظا بك ، واحتذ بحذاء^(٩٦) الصالحين ، واقتد بأدابهم ، وسر بسيرتهم ، واعرف الحق لمن عرفه لك رفيعا كان أو وضيعا ، واطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر •

من ترك القصد جاز ، نعم حظ المرء القناعة ، شر ما أشعر قلب المرء الحسد ، في القنوط التفريط ، وفي الخوف من العواقب البغى ، الحسد لا يجاب الا مضرة وغیظا يؤمن قلبك ويمرض جسمك ، فأصرف عنك الحسد تغم ، وأتق صدرك من الغل تسلم •

وارج من بيده خزائن الأرض والأقوات والسموات ، وسله طيب المكاسب تجده منك قريبا ولك مجيبا ، الشح يجلب الملامة ، والصاحب الصالح مناسب ، والصديق من صدق غيبه ، والهوى شريك العمى ، ومن التوفيق سعة الرزق •

نعم طارد الهموم اليقين ، وفي الصدق النجاة ، عاقبة للكذب شر عاقبة ، رب بعيد أقرب من قريب ، وقريب أبعد من بعيد ، والغريب من لم يكن له حبيب ، من تعدى الحق ضاق مذهبه ، من اقتصر على قدره كان أبقي له ، ونعم الخلق وأوثق العرى التقوى ، من أعتبك^(٩٧) قد هوى ، وقد يكون اليأس دراكا اذا كان الطمع هلاكا •

(٩٦) أى اقتد بهدى وعمل الصالحين •

(٩٧) أعتبك : رجع الى ما أرضاك عنه بعد ان ترك ما كنت تأخذه عليه واستخطك عليه •

كم من مريب قد شقى به غيره ونجا هو من البلاء ، جانبك من يجنى عليك ، وقد تعدى الصحاح مبارك^(٩٨) الجرب ، وليس كل عورة تظهر ، ربما أخطأ البصير قصده ، وأصاب الأعمى رشده ، ليس كل من طلب وجد ، ولا كل من تولى نجا .

آخر الشيء فانك اذا شئت عجلته ، أحسن ان أحبيت أن يحسن اليك احتمال أخاك على كل ما فيه ، ولا تكثر العتاب فانه يورث الضغينة ويجر الى المغضبة ، وكثرته من سوء الأدب ، استعقب من رجوت صلاحه .
قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل ، من كابد الحزبة^(٩٩) عطب ، ومن لم يعرف زمانه حرب^(١٠٠) ، ما أقرب النقمة من أهل البغى .
وأخلق^(١٠١) من غدر أن لا يوفى له ، زلة العالم أقبح زلة ، وعلة الكذاب أقبح علة .

الفساد بين الكثير ، والاقتصاد يثمر القليل ، والقلة ذلة ، ووبر
الدين أكرم الطبائع ، واخوف شر حاف ، والزلل مع العجاة ، لا خير في اذة تعقب ندامة .

العاقل من وعظته التجربة ، ورسواك ترجمان عقلك ، وكتابك أحسن ناطق عنك ، فتدبر أمرك وتقتصر شرك .

الهدى يجلو العمل ، وليس مع اختلاف ائتلاف ، ومن حسن العمل

(٩٨) الصحاح : هي الابل السليمة الصحيحة التي لم تصب بالجرب ، والبارك هي مواضع بروك الابل . والجرب : هي الابل التي قد أصيبت بالجرب .

(٩٩) الحزبة : العصابة المجتمعة .

(١٠٠) حرب : سلب ونهب .

(١٠١) أى احرى به واجتر .

افتقاد (١٠٣) حال الجار ، لن يهلك من اقتصد ، سر المرء دخيله ، ورب باحث
عن حقه ، وليس كل من ينظر بصيرا •

رب هزل صار جدا ، من أثمن الزمان خانه ، ومن تعظم عليه أهانه ،
ومن لجأ اليه أسلمه ، ليس كل من رمى أصاب ، وإذا تغير السلطان تغير
الزمان ، وخير أهلك من كفالك ، المزاح يورث العداوة ، والحق أقدر من
اجترأ وربما أكدى الحق •

رأس الدين صحة اليقين ، وتمام الاخلاص تجنب المعامى ، وخير
القول الصدق ، والسلامة مع الاستقامة ، سل عن الرفيق قبل الطريق ،
وعن الجار قبل الدار •

كن من الدنيا على بلغة (١٠٣) ، احمل لمن دل عليك ، واقبل عذر من
من اعتذر اليك ، وارحم أخاك وان عصاك ، وصله وان جفأك ، وعود
نفسك السماح ، وتخیر لها من كل حال أحسنه •

لا تتكلم بما يرديك ولا ما كثيره يزريك (١٠٤) ، أنصف من نفسك قبل أن
ينتصف منك •

أى بنى ، أياك ومشاورة النساء الا ما جربت بكمال ، فان رأيهن يجر
الى من ، وعزمهن الى وهن ، أكف عليهن من أبصارهن بحجابك أياهن ،
فان شدة الحجاب خير لهن من الارتباب ، وليس خروجهن بأشد عليك من
دخولهن لا تثق به عليهن ، فان استطعت أن لا يرقهن غيرك فافعل •

أقلل الغضب ، ولا تكثر العتاب فى غير ذنب ، فان المرأة ريحانة

(١٠٢) أى يتعرف احوال جاره وليعينه ويقوم بأمره •

(١٠٣) هى ما يتبلغ الانسان به فى حياته فلا يزيد عن حاجته شئ •

(١٠٤) يزريك : أى يجعلك محتقرا بين الناس فيتهاونون بشانك •

وليس بقرمانة^(١٠٥) ، وأحسن للمالك الأديب وإن أكرم أحد منهم جرماً فأحسن العفو فإن العفو من العز أشد من الضرب لمن كان له قلب ، وخف القصاص ، واجعل لكل امرئ منهم عملاً تأخذه به ، فإنه أحرى أن لا يتواكلوا .

وأكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذى به تطير ، وأماك الذى اليه تصير ، فإنك بهم تصول وبهم تطول ، وهم العمدة^(١٠٦) عند الشدة ، أكرم كريمهم ، وعد^(١٠٧) سقيمهم ، وأشركهم فى أمورهم ، ويسر عن معسرهم ، واستن بالله لعى أمرك كله ، فإنه أكرم معين .

استودع الله دينك ودينك والسلام .



(١٠٥) القرمانة : القرمانة فى اللغة هو الحافظ الوكيل لما تحت يديه من أموال وغيره والقائم بأبواب الرجل ، والمقصود أن المرأة ليست هكذا ، وإنما هى تحتاج لمن يقوم بأمرها .

(١٠٦) العمدة : ما يعتمد عليه . فعشيرة الإنسان وقومه هم الذين يعتمد عليهم عندما تنزل به الشدائد والمصائب وتلم به الفواجع .

(١٠٧) أى زر من يمرض منهم .

الفصل السادس

من خطب أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

١ — خطب عمر بن الخطاب اذ ولى الخلافة ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا أيها الناس ، انى داع فأمنوا ، اللهم انى غليظ فاينى لأهل طاعتك بموافقة الحق ، ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم ، اللهم انى شحيح فسحقى فى نوائب المعروف قسدا من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة ، واجعلنى ابتغى بذلك وجهك والدار الآخرة ، اللهم ارزقنى خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين ، اللهم انى كثير الغفلة والنسيان فالهمنى على كل حال ، وذكر الموت فى كل حين •

اللهم انى ضعيف عند العمل بطاعتك فارزقنى النشاط فيها ، والقوة عليها بالنية الحسنة التى لا تكون الا بعزتك وتوفيقك • اللهم ثبتنى باليقين ، والبر ، والتقوى ، وذكر المقام بين يديك والحياء منك ، وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى ، والمحاسبة لنفسى ، وصلاح النيات ، والاحذر من الشبهات • • اللهم ارزقنى التفكر ، والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك ، والفهم له ، والمعرفة بمعانيه ، والنظر فى عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت، انك على كل شىء قدير •

٢ — عن سعيد بن المسيب قال : لما ولى عمر بن الخطاب خطب الناس على منبر رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا أيها الناس ، انى علمت أنكم كنتم تؤنسون منى شدة وغلبة ، وذلك أنى كنت مع رسول الله ﷺ ، وكنت عبده وخادمه ، وكان كما قال الله تعالى : « بالؤمنين رؤوف رحيم » فكنت بين يديه كالسيف المسلول الا أن يغمدنى أو ينهانى عن أمر فأكف ، والا أقدمت على الناس لمتان لينه ، فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راض والحمد لله كثيرا وأنا به أسعد ، ثم قمت ذلك المقام مع أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ بعده ، وكان كما قد علمتم فى كرمه ودعته ولينه ، فكنت خادمه كسيف بين يديه أخاط شدتى بلينه الا أن يتقدم الى فأكف ، . لا أقدمت ، فلم أزل على ذلك حتى توفاه الله ، وهو عنى راض ، والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد . . . ثم صار أمركم الى اليوم ، وأنا أعلم ، فسيقول قائل : كان يشتد علينا الأمر الى غيره فكيف به اذ صار اليه ؟! واعلموا أنكم لا تسألون عنى أحد ، قد عرفتمونى وجربتمونى وعرفتم من سنة نبيكم ما عرفت وما أصبحت نادما على شئ أكون أحب أن أسأل رسول الله ﷺ الا وقد سألته . . . فاعلموا أن شدتى التى كنتم ترون ازدادت أضاعفا اذ صار الأمر الى على الظالم ، والمعتدى ، والأخذ للمسلمين لضعيفهم من قويمهم ، وانى بعد شدتى تلك واضع خدى بالأرض لأهل العفاف والكف منكم والتسليم ، وانى لا أبى — ان كان بينى وبين أحد منكم .

٣ — أوصى عمر رضى الله عنه ، الخليفة من بعده فقال :

« أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيرا : أن تعرف لهم سابقتهم وأوصيك بالأنصار خيرا ، فاقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئتهم وأوصيك بأهل الأمصار خيرا ، فانهم ردة (الاسلام) ، وجباة الأموال والقبىء ، لا تحمل فيئهم الا عن فضل منهم ، وأوصيك بأهل البادية خيرا ، فانهم أصل العرب ، ومادة الاسلام : أن تأخذ من حوائى أموال أغنيائهم فتترد على فقرائهم ، وأوصيك بأهل الذمة خيرا : أن تتقاتل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم ، اذا أدوا ما عليهم

للمؤمنين طوعا ، أو عن يد ، وهم صاغرون ، وأوصيك بتقوى الله ، وشدة الحذر منه ، ومخافة مقتته أن يطلع منك على ربيية ، وأوصيك أن تخشى الله في الناس ، ولا تخشى الناس في الله ، وأوصيك بالعدل في الرعية والتفرغ لحوائجهم وشغورهم ، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم فان ذلك — باذن الله — سلامة لقلبك وحفظ لوزرك ، وخير في عاقبة أمرك ، حتى تقضى من ذلك الى من يعرف سريرتك ويحول بينك وبين قلبك . وأمرك أن تشتد في أمر الله ، وفي لقلبك ، وحط لوزرك ، وخير في عاقبة أمرك : حتى تقضى من ذلك الى من حدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم ، ثم لا تأخذك في أحد الرأفة حتى تهتك منه مثل ما انتهك من حرمة .

واجعل الناس سواء عندك لا تبالى على من وجب الحق ولا تأخذك في الله لومة لائم ، وإياك والأثرة ، والمحامات فيما ولاك الله مما أفاء الله على المؤمنين ، فتجور وتظلم وتحرك نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك .

وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة ، فان اقترفت لدنياك عدلا وعفة عما بسط الله لك اقترفت إيماننا ورضوانا ، وان غابك عليه الهوى ، ومالت بك شهوة اقترفت به سخط الله ، ومعاصيه .

وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة وقد أوصيتك وحضضتك ونصحت لك ابتغى بذلك وجه الله والدار الآخرة . واخترت من دلائلك ما كنت دالا عليه نفسى وولدى فان عملت بالذى وعظمتك ، وانتهيت الى الذى أمرتك أخذت به نصيبا وافرا ، وان لم تقبل ذلك ، وإم يهكم ، ولم تنزل معاضم الأمور عند الذى يرضى الله به عنك يكن ذلك بك انتقاصا ، ورأيك فيه مدخولا ، لأن الأهواء مشتركة ، ورأس كل خطيئة والداعى الى كل هلكة ابليس ، وقد أضل القرون السالفة قبلك ، فأوردتهم النار ، وبئس الورد المورد وبئس الثمن أن يكون حظ امرئ هوالاة لعدو الله والداعى الى معاصيه !! .

ثم اركب الحق وخض اليه الغمرات وكن واعظاً لنفسك .

وأنشدك الله لما ترحمت على جماعة المسامين فأجللت كبيرهم ورحمت صغيرهم ، ووقرت عالمهم ، ولا تضرهم فيذلوا ، ولا تستأثر عليهم بالفيء ، فتغضبهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم ، ولا تجرمهم في البعوث فتقطع نسلهم ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم ، ولا تغلق بابك دونهم ، فيأكل قويمهم ضعيفهم .

هذه وصيتي اياك ، وأشهد الله عليك ، وأقرأ عليك السلام » .



٤ — كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص ، رضى الله عنهما ، ومن معه من الأجناد !

أما بعد فاني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فان تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيذة في الحرب .

وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وانما ينصر المسلمين بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عدونا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فان استويناه في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، والا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا .

واعلموا أن عايكم في مسيرتكم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله ، وأنتم في سبيل الله ، ولا تقولوا : ان عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا وان أسأنا ! فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سلط على بنى اسرائيل لما عملوا بمساخت الله كفار المجوس : « فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا » .

واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه أنصر على عدوكم،
أسأل الله ذلك لنا ولكم .

وترفق بالمسلمين في مسيرهم ولا تجشّمهم مسيرا يتبعهم ولا تقصر
بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم
فانهم سائرون الى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع^(١) ، وأقم بمن معك
في كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ، ويرمون
أسلحتهم^(٢) وأمتعتهم ، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا
يدخلوا من أصحابك الا من تثق بدينه ، ولا يبرزوا^(٣) أحدا من أهلها شيئا
فان لهم حرمة وذمة ، ابتليتكم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما
صبروا لكم فتولوهم خيرا ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل
الصلح^(٤) ، وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك
وبينهم^(٥) ولا يخف عليك أهرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل
الأرض من تطمئن الى نصحه وصدقه ، فان الكذب لا ينفك خبره ، وان
صدقك في بعضه ، والغاش عين عليك ، وليس عينا لك ، وليكن منك عند
دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا^(٦) بينك وبينهم
فتقطع السرايا أمدادهم وموقفهم ، وتتبع الطلائع^(٧) عوراتهم ، وانتق
الطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك ، وغير لهم سوابق الخيل ، فان
لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا الى
أهل الجهاد والصبر على الجلال ، لا تخص بها أحدا بهوى ، فيضيع من

(١) الكراع : الخيل والسلاح .

(٢) أى يصلحون ما فسد منها .

(٣) يبرز : ينقص أو يأخذ منه شيئا .

(٤) أى لا تطلبوا النصر على أعدائكم بظلم أهل الصلح .

(٥) اذك العيون : أى أرسل اليهم من يلتقط أخبارهم ويعرف أسرارهم .

(٦) السرايا جمع سرية : والسرية قطعة من الجيش ما بين خمسة
انفس الى ثلاثمائة .

(٧) الطلائع : جمع طليعة والطليعة : مقدمة الجيش ومن يبعث قدامه
ليطلع على أسرار العدو .

رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ولا تبعن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف عليها فيه غلبة أو ضيعة ونكابة ، فإذا عاينت العدو فاضمم اليك قاصيك وطلائعك وسرايك ، واجمع اليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزة^(٨) ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتلة^(٩) ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها فتصنع بعدوك كمنعة بك ، ثم أذك أحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البليات^(١٠) ولا تؤتى بأسير ليس له عقد^(١١) الا ضربت عنقه لترهب بذلك عدو الله وعدوك ، والله ولى أمرك ، ومن معك ، ووالى النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان » .



٥ — كتب عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، الى أبى موسى الأشعري — رواها ابن عيينة :

« أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى اليك الخصم ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، أس^(١٢) بين الناس في مجاسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك^(١٣) ولا يخاف ضعيف من جورك . . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، ثم راجعت نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فإن الحق قديم (لا يبطله شيء) والرجوع اليه خير من التماذى على الباطل ، الفهم

(٨) المناجزة : القتال والنزال .

(٩) النقاتل : جمع مقتل وهو الموضع الذى اذا أصيب فيه الإنسان او الحيوان لا يكاد يسلم .

(١٠) البليات : الايقاع بالعدو ليلا بغتة .

(١١) عقد : عهد .

(١٢) س : سوبين الناس .

(١٣) الحيف : الظلم .

فيما يتلجأ^(١٤) في صدرك مما لم يبلغك به كتاب الله ولا سنة نبيه ﷺ
واعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور عند ذلك ، ثم اعمد الى أحبها عند
الله ورسوله وأشبهها بالحق ، واجعل (لمن ادعى حقا غائبا أمدا ينتهي
اليه) فان أحضر بينة أخذت له بحقه ، والا وجهت عليه القضاء ، فان
ذلك أجلى للعمى ، وأبلغ في العذر •

والمسلمون عدول^(١٥) بعضهم على بعض الا مجاودا في حد أو مجريا
عليه شهادة زور ، أو ظنينا^(١٦) في ولاء أو قرابة ، أو نسب ، فان الله ،
عز وجل ، ولى منكم السرائر ، ودرأ^(١٧) عنكم بالبينات والأيمان •

ثم اياك والتأذى بالناس والتكر للخصوم في مواطن الحقوق التي
يوجب الله عز وجل بها الأجر ، ويحسن بها الذخر ، فانه من تخلص نيته
فيما بينه وبين الله ، ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس ، ومن
تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره •

وقال رضى الله عنه :

« تعلموا العلم وعلّموا الناس وتعلموا له الوقار والسكينة
وتواضعوا لمن تعلمتم منه العلم ، وتواضعوا لمن علمتموه العلم ، ولا
تكونوا من جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم بجهلكم » •

وقال رضى الله عنه :

« كونوا أوعية الكتاب وينابيع العلم وسلوا الله رزق يوم بيوم ولا
يضركم أن لا يكثر لكم » •

(١٤) أى يتردد في صدرك ويقلق ولم يستقر •

(١٥) عدول : جمع عدل وهو المرضى الحكم أو الشهادة •

(١٦) الظنين : المتهم وكل ما لا يوثق به •

(١٧) درأ : دفع •

وقال رسول الله ﷺ : لا شفاعة في الموت ولا حيلة في الرزق ولا راحة في الدنيا ولا سلامة من ألسنة الخلق ولا راد لقضاء الله .

ويجب أن يكون قول رسول الله ﷺ السابق الإشارة إليه هو دستور المحامي في حياته العملية .

وعلى رأس المناقب الحميدة والصفات الكريمة ، والفضائل الجمة ، التي مدح الله — تعالى بها نبيه محمداً — ﷺ — فضيلة الرحمة التي هي كمال في نفوس العقلاء هذا الكمال يجعلهم يهتمون لآلام غيرهم ، ويسعون لازالتها أو لتخفيفها ، كما يجعلهم هذا الكمال الانساني يحرصون على تصحيح أخطاء المخطئين ، وارشادهم الصراط المستقيم ، عن طريق الكلمة الطيبة ، أو الفعل الحسن (١) .

والرحمة في ألقها الأسمى واتساعها الذي لا يجد صفة من صفات الله — عز وجل — فإن رحمته سبحانه — شملت الوجود كله ، وعمت جميع مخلوقاته ، كما قال سبحانه :

« ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » (٢) .

وكل ما يرى في هذا الكون من تراحم وتعاطف بين الناس ، هو أثر من آثار رحمة الله تعالى التي أودعها في قلوب مخلوقاته وأوفر الناس نصيباً من هذه الرحمة ، هم العقلاء السعداء الذين يحسون بحاجات الضعفاء ، ويعملون على سدها وقضاؤها .

وقد أراد — سبحانه — أن يمتن على الانسانية كلها بانسان يمسح آلامها ، ويخفف أحزانها ويصحح أخطاؤها ، ويرحم ضعيفها وينصر

(١) دكتور/محمد سيد طنطاوى — جريدة الأخبار في ١٩٩٣/٨/٣ .

(٢) الاعراف : ١٥٦ .

مظلومها ، ويهديها الى الطريق القويم .. فكان هذا الانسان هو محمد ابن عبد الله — ﷺ — الذى أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات الى انور ، ولينقذهم من الظلم والفجور ، وليملا قلوبهم بالرحمة بدل القسوة وبالرقة لا بالغلظة ، وبالتواد والتعاطف لا بالتقاطع والتدابير ..

ولقد كانت صفة الرحمة من أبرز الصفات التى مدح الله — تعالى — بها نبيه محمدا — ﷺ — والتى تكرر الحديث عنها في كثير من آيات القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (الأنبياء : ١٠٧) أى : وما أرسلناك — أيها الرسول الكريم — الا رحمة للعالمين من الانس والجن ، وذلك أننا قد أرسلناك بدين الاسلام ، الذى متى اتبعوه سعدوا في حياتهم وبعد مماتهم •

وفي الحديث الصحيح : « انما أنا رحمة مهداة » •

فرسالته — ﷺ — رحمة في ذاتها ، وهو — ﷺ — رحمة بشخصه وبقوله وبفعله ، وبكل لون من ألوان ساوكة ولكن هذه الرحمة انتفع بها من استجاب لدعوتها ، أما من أعرض عنها فقد ضيع على نفسه فرصة الانتفاع •

ورحم الله صاحب الكشف فقد وضع هذا المعنى فقال : « أرسل الله — تعالى — رسوله محمدا رحمة للعالمين ، لأنه جاءهم بما يسعدهم متى اتبعوه ، ومن خالف ولن يتبع فقد ضيع نصيبه من هذه الرحمة ومثاله : أن يفجر الله عينا غديقة — أى : كبيرة عذبة — فيسقى ناس زروعهم ومواشيهم بمائها فيفلحوا ويبقى ناس مفرطون فيضيعوا فالعين المفجرة في نفسها نعمة من الله تعالى — ورحمة للفريقين ، ولكن الكسلان مخنة على نفسه ، حيث حرماها ما ينفعها •

وفي موضع اخر نجد القرآن الكريم يوضح أن صفة الرحمة التى

سكبها في قلب نبيه محمد ﷺ — كانت من أعظم الأسباب التي حملت اتباعه على محبته الصادقة ، وعلى الالتفاف من حوله ، وعلى اقتدائه بأنفسهم وبأموالهم ، واستمع الى القرآن الكريم وهو يقرر هذه الحقيقة فيقول « فيما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » (آل عمران : ١٥٩) •

أى : فبسبب رحمة عظيمة فيأضة ، منحك الله — تعالى — اياها يا محمد ، كنت لنا مع أتباعك ولو كنت — أيها الرسول الكريم — كرية الخلق ، خشن الجانب ، لانفض أصحابك من حولك ولتفرقوا عنك ، ونفروا منك ، ومادام الأمر كذلك فاعف عن أخطاءهم ، والتمس من الله — تعالى — أن يغفر لهم زلاتهم وشاورهم في الأمور التي تقتضى المصلحة مشورتهم فيها ، فإذا ما صحت عزيمة على تنفيذ أمر معين بعد المشورة وبمباشرة الأسباب المشروعة ، فتوكل على الله — تعالى — بدؤن تردد ، انه سبحانه يحب المعتمدين عليه المفوضون أمورهم اليه •

وفي موضع ثالث ، نرى القرآن الكريم يمدح النبي ﷺ — لحرصه على منفعتهم ، فيقول : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » •

(التوبة : ١٢٨)

أى : لقد جاءكم — أيها الناس — لرسول عظيم الشأن ، هذا الرسول ليس غريبا عنكم وانما هو من جنسكم ، تعرفون حسبه ونسبه ومولده ونشأته وخلقه ، فقد شهدتم له في صباه بالصدق والأمانة كما شهدتم له في شبابه بالعفاف والاستقامة •

وقوله — سبحانه — عزيز عليه ما عنتم أى شديد وشاق عليه عنكم

ومشتتكم لكونه واحدا منكم فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب •

قوله — تعالى : « حريص عليكم » أى حريص على إيمانكم وهدايتكم وعزتكم وسعادتكم والحرص على الشيء معناه : شدة الرغبة في الحصول عليه وحفظه •

وقوله عز وجل : « بالْمُؤْمِنِينَ رِعْوَفٌ رَحِيمٌ » أى : شديد الرأفة معناتها : السعى في إزالة الضرر والرحمة معناتها : السعى في إيصال الخير إلى الغير •

فهو ﷺ يسعى بشدة في إيصال الخير والنفع للمؤمنين ، وفي إزالة كل مكروه عنهم •

قال بعض الحكماء : لم يجمع الله تعالى لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه ، إلا أنبى — ﷺ — فانه قال « بالْمُؤْمِنِينَ رِعْوَفٌ رَحِيمٌ » وقال عن ذاته : « ان الله بالناس لرعوف رحيم » •

وهذه الرحمة التي سكبها الله — تعالى — في قلب نبيه محمد — ﷺ — كانت رحمة عامة ، شملت الصغير والكبير ، والفقير والضعيف ، والقريب والبعيد ، والعدو والصديق والطير والحيوان ، وكان من كلامه — ﷺ — « لن تؤمنوا حتى ترحموا قالوا : يا رسول الله كلنا رحيم ، قال : انه ليس برحمة أحكمكم صاحبه ، ولكنها رحمة العامة » •

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه — قال « قبل رسول الله — ﷺ — الحسن والحسين ، وعنده الأقرع بين حابسي التميمي ، فقال الأقرع : ان لى عشرة من الأولاد ما قبلت واحدا منهم ، فنظر اليه رسول الله — ﷺ — وقال : « من لا يرحم لا يرحم » •

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : أخذ

رسول الله — ﷺ — ابنه ابراهيم فقبله وشمه ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وابراهيم وجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ — تخرقان بالدموع •

فقال عبد الرحمن بن عوف ، وأنت يا رسول الله ؟ — كأنه تعجب من بكائه — فقال — ﷺ — « يا بن عوف انها الرحمة ، ثم قال ان العين لتدمع ، وان القلب ليخشع ، ولا نقول الا ما يرضى الرب ، وانا لفراقك يا ابراهيم لحزونون » •

وعندما جاءه رجل فقال له يا رسول الله انى أشكو اليك قسوة قلبي ، رد عليه — ﷺ — بقوله : أحب أن يلين قلبك ، وتذكر حاجتك ؟ ارحم اليتيم ، وامسح رأسه وأطعمه من طعامك يلين قلبك ، وتذكر حاجتك •

وقال له رجل : يا رسول الله انى لأرحم الشاة أن أذبجها فقال — ﷺ — « ان رحمتها رحمك الله » •

وفي صحيح البخارى انه — ﷺ — قال : « دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » •

ولقد لازمت هذه الرحمة رسول الله — ﷺ — حتى فى أعصب المواقف ، وفى أخرج الأوقات ، فعندما استقبله السفهاء من بعض أهل الطائف أسوأ استقبال ، فحذفوه بالحجارة ، حتى سالت دماؤه

وجاءه جبريل ليقول له ان الله أمرنى أن أطيعك فيهم ، فان شئت أطبقت عليهم الاخشبين ، فما كان منه — ﷺ — الا أن قال : « يا أخى يا جبريل لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله — عز وجل — اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون » فقال له جبريل : « صدق من سماك الرؤوف الرحيم » •

ورحمته — ﷺ — لغيره ، لم تكن حنانا لا عقل معه ، أو شفقة تنتكر للعدل والنظام أو رافة تحابى الظالم على حساب المظلوم ، أو سلوكا

يتعارض مع الحدود التي أمر الله — تعالى — بتنفيذها ، أو قولاً أو عملاً يتنافى مع اعتناق الفضائل والبر كلا ثم كلا لم تكن رحمته — ﷺ — من هذا القبيل الذى يتناقض مع احقاق الحق وابطال الباطل ، وانما كانت رحمته — ﷺ — هى الكمال بعينه ، وهى العدل بذاته وهى وضع الأمور فى مواضعها الصحيحة •

لم تمنع رحمته من أن يقيم حدود الله — تعالى — على من تجاوزها وتعداها ، فعندما سرقت امرأة من أشرف قبائل قريش ، وجاءه أسامة بن زيد لكى يشفع لها بعد أن اهتم الناس بأمرها قال — ﷺ — حديثه المشهور ، « يا أسامة أتشفع فى حد من حدود الله انما أهلك من كل مكان قبلكم انهم كانوا ، اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها •

وعندما اعتدى نفر من قبيلة عكل على الرعاة الذين كانوا فى خدمتهم واستاقوا الابل التى كانت تحت رعايتهم ، ما كان منه — ﷺ — الا أن أرسل بعض أصحابه لىأتى بهؤلاء الغادرين ، فلما حضروا أمر بقطع أيديهم وأرجلهم جزاء غدرهم وخيانتهم •

والخلاصة أن رحمته — ﷺ — التى شملت الانسان والحيوان والطير لم تمنعه من أن يقيم حدود الله — تعالى — بالحق والعدل ، امثالاً لقول الله تعالى : « ولكم فى القصص حياة يا أولى الالباب نعلمكم تتقون » •

نسأل الله تعالى — أن يجعلنا جميعاً من عباده الرحماء ، أنه أكرم مسئول وأعظم مأمول •

والقاضى العادل هو القاضى الرحيم — أسوة بالرسول ﷺ — فالقاضى الرحيم أفضل من القاضى القاسى والقاضى الرحيم أقوى علماً من القاضى المتشدد مصداقاً لحديثه ﷺ : « ارحموا من فى الأرض برحمتكم من فى السماء وويل للقاضى الأرض من قاضى السماء الا من عدل •

مثال مرافعة نموذجية في جنائية قتل

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد النبي الأمي المبعوث رحمة العالمين أما بعد فإن خير بداية
دائما هي البدء بحمد الله جلّت قدرته على سابغ فضاه ونعمته وفائض
احسانه ورعايته عليه عز وجل اعتمادا وبه سبحانه وتعالى اعترانا •

حضرات المستشارين الاجلاء :

يسعدني ويشرفني ويرفع من قدرى أن أقف اليوم أمام خيرة قضاة
مصر وصفوة مستشاري العائلة القضائية حيث نقف أمامكم في هذه القاعة
في صمت وخشوع واحترام وكأننا أمام مسجد ولو لم نسمع أذان
المؤذنين أو كأننا أمام هيكل أو معبد ولو لم نسمع أنغام المرتلين وداخل
تلك القاعة التي هي معمل النفس الانسانية وبركان الطبيعة البشرية
وداخل تلك الجدران التي لها ذاكرة أقوى من ذاكرة الانسان فنقطع الى
حضراتكم لكي نقضوا ببراءة المتهم ... من التهمة المسندة اليه حيث أن
هذه القضية المصطنعة لا تجد سندا تقوم عليه ولو أن محرروها وصانعوها
أنصتوا الى صوت الفطرة في داخلهم ولو أنهم أنصتوا الى صوت الضمير
ذلك السفير الالهي الذي لا يخطئ لما حرروا هذه القضية ضد أشخاص
أبرياء ولما أدخلوا المتهم فيها على الاطلاق • وان لم يحاسب محرروا
هذه القضية في هذه الدنيا فانهم سوف يحاسبون في الآخرة حيث
البرلمان الوحيد الذي تهلك فيه الأغلبية وتتجو الأقلية •

والحقيقة فانني بعد أن استغرقت في قراءة أوراق تلك القضية وبعد
أن انتهيت من قراءتها تماما شعرت بدوار في رأسي وكاد أن يشل تفكيري
وتساءلت وصرخت من أعماقي :

•• ألهذا الحد يمكن أن يصل ظلم الانسان لأخيه الانسان ؟

•• ألهذا الحد يمكن أن يصل حقد الانسان لأخيه الانسان ؟ !

•• ألهذا الحد يمكن أن يصل كره الانسان لأخيه الانسان ؟ !

وانتفضت من أعماقى وتمنيت لو دافعت عنه أمام ساحات القضاء المقدسة ولا أحيد عن الحقيقة اذا قلت لحضراتكم أننى كنت محظوظا الى أبعد الحدود عندما رشحنى المتهم للدفاع عنه أمام مستشارين عظماء وأساتذة كرام أجلاء هم صفوة مستشارى العائلة القضائية وهم جبايزة العلم وأساطين القانون فى مصر الذين نشرف بالمثل أمامهم اليوم ومع طائفة من كبار محامى مصر •

وبداية يسعدنا أن نقف أمام هذه القضية موقف علماء المنطق من قضاياهم المنطقية حيث يضعون المقدمات ثم يرتبون عليها النتائج فإذا كانت المقدمات سليمة ومقطوعة بصحتها كانت النتائج أيضا سليمة ومقطوعا بصحتها • وإذا كانت المقدمات غير سليمة وغير مقطوع بصحتها كانت النتائج غير سليمة وغير مقطوع بصحتها •

وإذا كان القانون هو ذلك الشيء الذى إذا عرض على العقول تلقته بالقبول فانه بنظره واحدة من حضراتكم على أوراق تلك القضية فسوف تتأكدون عدالتكم من أن تلك القضية قد خلت من أساسيات ومبادئ المنطق سواء كان المنطق العلمى أو القانونى أو القضائى •

ولا يخفى على عدالتكم وكما تعلمنا فى محرابكم هذا المقدس أن اكل دعوى شقين لحل الشق الأول هو الواقع أما الشق الثانى فهو القانون وإذا كانت وقائع هذه القضية تقود بأكملها الى براءة المتهم مما أسند اليه •

فان المبادئ القانونية ترشحه للحصول على البراءة أيضا ومن ثم فاننا نتشرف بأن ندفع بالدفع الآتية :

- ١ — ندفع بانتفاء القصد الجنائي بعنصرية العلم والارادة •
- ٢ — ندفع بانتفاء نية ازهاق الروح •
- ٣ — ندفع بانتفاء سبق الاصرار والترصد لأنه ظرف شخصي
بجت •
- ٤ — ندفع بانتفاء الاتفاق الجنائي لانتفاء نية التدخل •
- ٥ — ندفع ببطلان الاعتراف لحصوله تحت تأثير اكراه معنوي •

«أما عن الوقّع يا حضرات المستشارين»

فانه مما لا شك فيه أن جريمة القتل هي جريمة بشعة •
ومما لا شك فيه أيضا أن جريمة القتل لا يقبلها العقل ولا المنطق
ولا القانون •

ومما لا شك فيه أيضا أن جريمة القتل تجرمها كافة الشرائع السماوية
والقوانين الوضعية •

ومما لا شك فيه أيضا أن جريمة القتل تعد أخطر الجرائم التي
عرفتها البشرية على مر العصور والأيام •

ولكن الأخطر من جريمة القتل فعلا هو قيام جهات التحقيق بمحاولة
تلفيق تلك القضية •

والأفظع من جريمة القتل ذاتها هي محاولة تصوير تلك القضية
بصورة ممسوخة •

والأفظع من جريمة القتل أيضا هو محاولة اسناد الاتهام الى اناس
بسطاء لا صلة لهم بالواقعة من أساسها باسنادها الى اناس أبرياء •
وادخال المتهم ... فيها بصورة هزلية وغير طبيعية •

ولقد جئنا الى هنا لنجد الاجابة على الاسؤال الهام وهو :
هل هذا المتهم مدان أم براء؟؟

وهل اشترك في الجريمة أم لم يشترك فيها ؟

واذا كان قد اشترك فيها .. فكيف كان ذلك ؟

واذا لم يشترك فلماذا يدخل في الاتهام ؟

ولن نصل الى اجابة شافية الا بمعرفة حقيقة واقعة الدعوى ؟

ولن نصل الى حقيقة واقعة الدعوى في هذا الصراع القضائي

الجبّار الا :

— بالتعلّل في صميم الأسباب الملبسة للجريمة •

- وتحليل شخصية المتهم التى تقود الى عدم اشتراكه فيها
- — ومعرفة العلل النفسية المصاحبة للمتهم

كل ناك يقودنا الى معرفة الدور الذى قام به المتهم فى الجريمة .

وهل كان له دور أم لا ؟

وما حجم ذلك الدور — ثانوى أم رئيسى ؟

وهل كان فاعلا أصليا أم مساهما تبعا أم أصليا .

أم لم يكن له دور على الاطلاق .

وقبل أن نسرد دور المتهم فى هذه القضية فان لنا ملاحظتين على هذه القضية :

الملاحظة الأولى :

فمى أننى لن أتناول من الوقائع الا ما يخص موكلى وذلك لعدم
إضاعة وإطالة وقت المحكمة الثمين .

وأیضا لترك الوقائع الخاصة بكل متهم لهیئة الدفاع
الخاصة به .

— وأخيرا لالتزام حدود الدفاع .

كما أننا ننضم الى كل ما جاء بأقوال الدفاع عن المتهمين الأول والثانى
والثالث فى كل ما جاء بدفاعهم من المبادئ القانونية والواقعية .

الملاحظة الثانية :

١ — نحن نشك فى صحة الواقعة من أساسها ونقرر باختلافها
وتلفيقها .

ولكن الفرض الجدلى على فرض حدوثها طبقا للتصوير الوارد
بالأوراق سوف تتأكدون عدالتكم من خلو الأوراق من أى دور للمتهم بها

حيث لم يكن له دور رئيسى أو دور ثانوى وحتى مجرد تواجده معهم على مسرح الجريمة لا يعتبر بذاته اشتراكا بها •

٢ — أن حظه العاثر والصدفة البحتة وحدها هى التى أوقعته فى الطريق المؤدى الى المحكمة لأن الآخرين عندما احتاجوا الى سيارة تدخل الحظ العاثر للمتهم ليكون له مجرد دور ضئيل فى تعرفهم على صديق له لكى يستأجر لهم سيارة •

ولنا عودة بالتفصيل فى موضوع السيارة بعد ذلك •

أولا : الدور الذى قام به المتهم

ونأتى بعد ذلك الى السؤال الهام فى هذه القضية عن ماهية الدور الذى قام به المتهم وماهية الأفعال الايجابية أو السلبية •• وسوف نصل فى النهاية الى أنه لم يكن له أدنى دور على الاطلاق ولم يشترك فى الجريمة لا من قريب ولا من بعيد وسوف نعرض ذلك فى ثلاث نقاط أساسية :

(أ) اسم المتهم الرابع

ان اسم المتهم الرابع لم يظهر الى السطح الا بإشارة خفية من المتهم الثالث فقط •

أى أن اسمه ظهر فجأة فى القضية وقذف به عن طريق المصادفة فى تلك الدعوى والأدلة على ذلك عديدة ومتنوعة لأن الأدلة هى السلاح البتار فى الدعوى وتشمل هذه الأدلة ما يلى : (قراءة المحضر أفضل)

١ — محضر تحريات الشرطة : قد خلا من اسمه تماما

٢ — أمر الضبط والاحضار الصادر من النيابة : قد خلا أيضا من اسمه •

٣ — الضبط والقبض كان فى أحد المقاهى المصرية كما ثبت من محضر الشرطة •

٤ — المبلغ الذى تم تقاضيه : لم يذكر فى البداية • ثم قيل أنه ٥٥ جنيه ثم ١٠٠٠ جنيه وخلاصة ذلك أنه :
لا ضبط ولا تليس ولا شاهد رؤية وحيد فى الأوراق الأمر الذى يؤكد انتفاء أى دور للمتهم فى هذه القضية •

(ب) « السلاح النارى »

ان السلاح النارى المزعوم أن المتهم كان يحمله أثناء الواقعة لم يكن له وجودا أصلا فى الحقيقة •

لا تصور له ... لم يضبط • لم يستخدم على الإطلاق وإذا كان قد قيل أنه تم التصرف فيه فكان الأولى معرفة مكان التصرف ••

وهذا لم يذكر •• فإذا كانوا استطاعوا انتزاع اعتراف المتهم بالاعتراف كاملا بين المتهمين فكيف لم يستطيعوا معرفة مكان السلاح النارى الذى يزعمون وجوده مع المتهم ولكنهم لم يذكروا ذلك لتأكيدهم من وجود سلاح أصلا ••

فإذا ذكروا مكان السلاح لكان لزاما عليهم أن يحضروه ولكن كيف يحضروه ولا وجود له •• لذلك لم يذكروا مكان التصرف فى السلاح •
ودليل عدم وجوده :

- ١ — عدم ضبطه •
- ٢ — عدم استخدامه •
- ٣ — عدم ذكر مكان التصرف فيه •

ج — « استئجار السيارة »

المتهم مجرد وسيط فى استئجار السيارة للآخرين ولا يمكن أن يسأل عن قتل عمد لمجرد التوسط فى استئجار السيارة •
وإذا كانت المساهمة الجنائية تتطلب تعاون أشخاص عديدين فكل منهم دوره الريادى وارايدته الاجرامية •

فسوف تعلمون عدالتكم من مسألة استئجار السيارة نقطتين :

- ١ — السيارة لم تؤجر باسم المتهم الرابع بل باسم متهم آخر .
- ٢ — قام الآخرون بتغيير تلك السيارة الى سيارة أخرى المزعـم أنها استخدمت في الجريمة .

أى أن دوره في مسألة السيارة لم يكن له وجود أصلا وبالتالي فإن :
مقدار مساهمته ماديا في احداث النتيجة قد انعدم تماما وبالتالي
فلم يـقم لا بعمل تنفيذى ولا بعمل تحضيرى ومن ثم :

- ١ — لم يكن فاعلا أصايا : لأنه لم يقتل ولم يضرب .
- ٢ — لم يكن مساهما أصليا : لأنه لم يـقم بدور رئيسى فى التنفيذ .
- ٣ — لم يكن مساهما تبـعيا : لأنه لم يـقم حتى بدور ثانوى فيها .

ومن ثم فإنه يكون قد انتفى الفعل الذى يقوم عليه الركن المادى
لأن الحقيقة الكبرى أنه لم يكن متواجدا على مسرح الأحداث على
الاطلاق على فرض حدوث الواقعة وهو ما ننكره تماما .

ثانيا — ظروف المتهم والجريمة

(أ) أسباب الجريمة

قد يكون القتل عموما لسبب عاطفى أو سياسى انتقامى أو جنسى
أو غيره .

وإذا كان هناك أسباب عاطفية فى هذه القضية بين بعض المتهمين
وغيرهم وأيضا توجد أسباب سياسية لانتماء البعض الى الجماعات
الاريترية وأيضا أسباب انتقامية .

والمتهم قد انتفى في جانبه أى من هذه الأسباب حيث :

- ١ — لم يثبت وجود أى علاقة عاطفية بينه وبين آخرين •
- ٢ — لم يثبت وجود علاقة سياسية على الاطلاق •
- ٣ — لم يثبت وجود أى أسباب انتقامية تدفعه الى تلك الجريمة •
- ٤ — لم يثبت وجود أدنى صلة أو علاقة بينه وبين المجنى عليه أو زوجته •

اذن السؤال هو :

لماذا يقتل بالرغم من كل ذلك وما القابل ٥٠٤ جنيه هراء •

الخلاصة :

انه لا يوجد أى سبب يمكن أن يقود المتهم الى هذه الجريمة على الاطلاق ولا يوجد أى سبب يدفعه الى ذلك أبدا •

والمحصلة الثانية :

انه لم يشترك في الجريمة من أساسها ولم يكن له دور فيها على الاطلاق لعدم وجود أدنى سبب لارتكابه الجريمة •

اما عن الزعم بالصلة المالية :

- هراء وهزل وكذب •
- انتفاء الدوافع على الجريمة •
- انتفاء أسباب الجريمة •
- انتفاء البواعث على الجريمة •
- لا حافظ — لا دافع — لا مصلحة •
- لا غرض — لا باعث •
- لا سبب على الاطلاق •

(ب) تحليل شخصية المتهم

ان التحليل الدقيق لشخصية المتهم يقود بلا أدنى شك الى أنه لم يشترك في تلك الجريمة وذلك للأسباب الآتية :

فمن صفاته :

- هادى
- مستقيم
- متدين ومن أسرة متدينة وأبوين صالحين
- عطوف — مؤدب (بشهادة كل من يعرفونه)

فوق كل ذلك :

- طالب وصغير السن
- لا ماضى له — لم يرتكب أدنى مخالفة
- لا سوابق له اطلاقا
- وبالتالي فشخص هذه مواصفاته لا يمكن أن يرتكب تلك الجريمة

(ج) العال النفسية المصاحبة للمتهم

- ولا يقصد بتلك العال النفسية الجنون
- ولكننا نقصد النواحي النفسية المصاحبة لشخصيته حيث أنه :
- انقيادى
- انطوائى
- ضعيف الشخصية
- سهل السيطرة عليه
- شخص مغلوب على أمره فى الذهاب والاياب وارادته غير كاملة
- فإذا كنا لا نسلم بحدوث تلك الواقعة من أساسها الا أنه على فرض حدوثها فان شخصية المتهم هذه قد يحتمل تقوده الى الذهاب معهم جبرا

عن ارادته بدليل عدم اشتراكه في أى فعل وعدم صدور أى عمل تنفيذى في الجريمة •

فالجبرية في التصرف لا يمكن أن يسأل عنها الشخص أبداً ودليل عدم رضائه عن ذلك :

هو عدم ذهابه معهم الى حدائق القبة حيث الاتفاق على الجريمة •
ولذلك نشكر محررى المحضر حيث قرروا عدم ذهابه معهم الى حدائق اقبة •

خلاصة الوقائع يا حضرات المستشارين الأجلاء

— ان الواقعة من أساسها ملفقة ومخلقة •

— ولكن على فرض حدوثها وهو ما لا نسلم به — فان حظه العاثر هو الذى أوقع المتهم فى طريق احتياجهم الى سيارة ثم تدخل الحظ مرة أخرى لكي يكون له مجرد دور التوسط فى استئجار سيارة ثم استبدالها بعد ذلك عن طريق الآخرين بسيارة أخرى •

« الخلاصة »

- ١ — لم يكن معهم على مسرح الأحداث ومسرح الجريمة •
- ٢ — ان المتهم كان مجرد أداة أو آلة صماء فى يد من حركها وهذا يدل على حسن نيته حيث فوجيء بما حدث أمامه مفاجأة ولم يخطر بباله على الاطلاق لعدم علمه بما سيحدث •
- ١ — نشكك فى صحة الواقعة بالكامل لتفريقها •
- ٢ — عدم وجود المتهم على مسرح الجريمة •
- ٣ — على فرض وجوده فقد كان أداة أو آلة صماء •

يا حضرات المستشارين :

الآن وقد فرغت من واجبى فاطلعتكم على القضية على قدر امكانياتى

المتواضعة أجد الزاما على ومن واجبي أن أقول كلمة هي فصل الخطاب في هذه القضية •

فلقد شرفنا بالمثل أمام عدالتكم ونحن نرتجف من هيبتكم حيث تشرف عليكم في سماء هذه الدار تلك الحكمة الخالدة التي تبلى الدهور وهي لا تبلى وتتغير المبادئ والأنظمة وهي ثابتة لا تتغير تلك الحكمة الخالدة التي تعلن أن العدل أساس الملك وأن أساس العدل هو القضاء العادل وأن القضاء هو القانون الحي وبغيره يصبح القانون فعلا عاجزا ضعيفا لا خير فيه ولذلك فنحن نمثلي احتراماً للقضاء ونحيطه بالحببة والتقدير •

وإذا كان واجبي كمحام قد انتهى إلا أنه مما لا ريب فيه أن واجب المهنة المقدس يتطلب كثيرا من الصنعة وأنه فيما بين الأوراق والملفات والشهود والتحقيق والاثام والدفاع يخلق جو خاص هو جو المحاكم وكثيرا ما تضيق على المتهم شخصيته في وسط هذا الزحام العلمي • فيصبح المتهم ويمسى فاذا به قد تحول الى نظرية قانونية أو دليل يترأسقه الخصمان النيابة والمحاماة فهو في نظر النيابة مجرد اتهام وهو في نظر المحاماة مجرد دفاع أما شخصيته أما حريته أما عواطفه فهي مسألة ثانوية في نظر الاتهام •

وانى أؤكد لحضراتكم أنه ليس أقسى على المتهم من هذا التجرد عن شخصه هذا التكر عن أهله وجنسه وليس أقسى على المتهم من هذا التلذذ عن عواطفه ولذلك يجب ألا ننسى أن المتهم الذى هو في السجن مجرد رقم هو في بيته حياة ومحبة كما يجب ألا ننسى أيضا أن المتهم الذى هو في نظر النيابة مجرد اتهام هو في الوقت نفسه ابن وأخ وصديق الأمر الذى يجعلنا نتطاع الى حضراتكم لتتظروا اليه بعينى العطف والعدل •• ولم لا وأتم قضية الحق وأيضا مربو الخاق ؟ •

وكلمة العدل التي بها تتطقون يتجاوب صداها في نفوس ثائرة نفوس

فزعة حائرة فاجعلوا حكمكم رسالة عدل وبشرى سلام فاذا جنحتم الى الرحمة فاشملوا بها انثىء ولا أريد بالرحمة أن تتجاوزوا للمتهم عن شىء مما يستحقه عدلا لأنى لأقول ان الرحمة فوق العدل بل أقول ان الرحمة هى أقصى وأسمى مرتبة من مراتب العدل فاذا طلبتها فانما أطلب العدل فى أسمى معانيه واذا طلبتها فانما أطلب العدل المجرد من كل مؤثر أطلب العدل الذى يقضى بقصاصين مختلفين اختلافا كبيرا على شخصين ارتكبا جريمة واحدة فى ظروف متشابهة لما بينهما من اختلاف الطبائع وتغاير الأسباب والمقاصد •

ولم يتبقى فى النهاية •• يا ملائكة الرحمة على سطح هذه الأرض الا كلمة تخرج من أفواهكم اتعلن براءة المتهم مما أسند اليه •••

وأرجو أن تتذكروا يا حضرات المستشارين وأنتم فى خاوتكم المقدسة :

١ — ان المتهم ما يزال فى ريعان الشباب وزهرة الصبا •

٢ — ان صحيفة سوابقه نظيفة ناصعة بيضاء فلم يرتكب أدنى مخالفة طيلة حياته •

٣ — ان المتهم له أبوين قد بلغ بهما الكبر الحد الذى يجب عايه أن يرعاهما •

٤ — ان المتهم ليس له دور فى هذه القضية المصطنعة وأنه لم يكن فاعلا أصليا ولم يكن مساهما أصليا ولم يكن مساهما تبعا وان شخصيته انطوائية •

وأرجو فى النهاية أن لا أكون أطلت أو أثقلت على حضراتكم ولكته شرف الحديث الى قضاة مصر وواجب المهنة المقدس كما أرجو أن تغفروا لى ذلك الصوت الذى تحدثت به اليكم فانه لم يكن صوتى ولكته صوت المتهم يريد أن يصل الى قلوبكم الكبيرة لكى تقضوا له بالبراءة •

— ٢ —

أقوال ماثورة من مرافعة

يجب أن يعلم الطائشون أن اللعب بالنار فيه اذى والم وحرق وسقام وبالتالي يجب ألا يعود ذلك اليوم الكريه حيث ينظرون الى المتهمين باعتبارهم جرائم وباعتبارهم أعضاء فاسدة يجب أن تستأصل — فهم ينظرون اليهم تلك النظرة وكأنهم ليسوا من البشر •

ولكن الجرثومة الأولى في تلك القضية هي ••

والجرثومة الثانية في تلك القضية هي ••

والحقيقة أن الجرثومة الفاسدة الخبيثة الحقيقية في تلك القضية هي على أمل أن تنحدر تلك النفوس الضعيفة في مأوى الاثم والجريمة •

ولكنهم لا يتركون ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، حيث يأخذون ويتحكمون في كل شيء •

ولكن فاتهم ••

وفاتهم أيضا ••

وصانعوا هذه القضية قد عبثوا بالقانون وعاثوا في الأرض فسادا ولكننا — مع كل ذلك — على ايمان كامل بأننا أمام محكمة تحقق العدل ولا تعاقب الا بقدر الجرم وتبرىء من تعتقد فيه البراءة •

وذلك لأن من أهم خصائص القاضي العادل : تقدير أسباب الجريمة والنتائج المتبرتبة على الجريمة وحالة المتهم وتربيته ولأن المتهم مابزال صغير السن فانه يستلزم الرأفة وكذلك أعفى القانون القاصر لأنه لا يقدر تمام التقدير الظروف علها وبالتالي يلجأ الى حكمة القاضي في تقدير ذلك حيث أنه ليس للمحكمة دار وليس للعدل وطن •

فأنتم — واني لأرتجف من هولها انتم — أنتم لسان الله وصوت

القدر كونوا — علموا — أخطبكم — أناشدكم — طهروا — افهموا —
اجعلوا . . .

نحن ننام في حراسة القضاء وعينه البصيرة وعقله الساهر على
راحة الناس .

أين العقل المدبر ..

أين اليد المحركة ..

أين الملكية التي حركت هذه الآلات الصماء .

ولقد حدثت هذه القضية على سبيل الاستثناء ومن طبيعة الاستثناء
أنه لا يعرف حداً لأنه لا يعرف قاعدة بل هو ضد كل قاعدة ولا يعبأ بعدل
أو مساواة لأنه لا مساواة مع استثناء ولا يخضع لضمان لأنه لا يرى
ضماناً إلا في هدم الضمانات ولأنه انفكاك من كل قيد ولذلك فالاستثناء هو
الظلم بعينه لأنه يفتح الباب لكل شهوة .

ونحن مع اعترافنا بحسن تقدير السيد النائب والنتائج الباهرة التي
توصل إليها نستسمح في أننا نخالفه في ذلك .

وابرهان والدليل على البراءة ...

نحن نفهم أن ...

نحن نفهم أن ...

لكننا لا نفهم كيف ...

ولا نفهم كيف ...

ختام مراقبة في قضية مخدرات (١)

حقا .. ان الحق ميزة لدى صاحبه يجعله في موقف مشروع تقتضاه
قوى النظام الاجتماعي وعلى رأسه القضاء على حمايته . ولازال الحق
يستند الى سند من العدل يعصمه عن مزالق الزلل والخطر . وعما يعرضه
للضياع والفناء ومازال هذا العدل يجد مرتعه خصيبا أمام قضائنا الشامخ .
فمنذ كان الانسان وحتى يكون كان العدل وسيبقى حلم حياته وأمل
مفكره وجوهر شبائعه وسيباج أمنه . وكذلك كان وسيبقى رائدا لركبه
على طريق الرخاء والتقدم والسلام . فالعدل كالخبز حق محتوم لكل
مواطن والانسان كل انسان حري بأن تصان كرامته حري بأن يحفظ عليه
وقاره فلا يؤخذ في أمره بالظنة ولا يجري حسابه على أساس من
الشائعات والتقولات .

وحسبنا الله ونعم الوكيل فيمن اصطنع هذه الدعوى ودبر لها .
وحسبنا أن القضاء العادل سيقف بمشيئة الله حجر عثرة في وجه كل من
عبث بحقوق المتهمه الثالثة اذ العايب بحقوق الغير بأمل أن ينشئ لنفسه
أو لغيره حقوقا عن طريق اغتيال حقوق الغير اغتيالاً لحمته الغش وسداه
سوء الضمير ، فلن يستطيع ذلك . اذ العدالة تتعارض كل التعارض في
الأخذ بيد من يعمل على هضم حقوق الآخرين وضياعها بأمل أن ينشئ
لنفسه حقوقا فوق أنقاضها .

ومن ثم وفي اطار هذه الكلمة الختامية فان الدفاع عن المتهمه الثالثة
وقبل أن ينتهى الى طلباته الختامية يستأذن المحكمة الموقرة أن يسجل :
اذا كانت أدلة الثبوت في الدعوى قد انهارت برمتها بعد أن
كشفت الأمور عن عدم جدية التحريات فحسب . بل خلت الأوراق تماما
مما يفيد أن تحريات ما أجريت بل ثبت أن ما سمي بتحريات بالنسبة

(١) الموسوعة القانونية في جرائم المخدرات — للأستاذ/احمد سعيد

للمتهمة الثالثة على الأقل نم يظهر على الساحة الا بعد القبض على
المتهمين الأول والثانى •

كما كشفت الأوراق على أن المتهمة الثالثة يشاركها فى السكن شقيها •
وهو المتهم الرابع وزوجته وابنته وهو الأمر الذى لم تتناوله التحريات
وكشفت على أن مستصدر الاذن تضارب وتناقض فى أقواله مع معاونيه
ومع وكيل الادارة التى يعملون به جميعا •• تناقضا صارخا •• فمن قوله
أن المتهمة تتعاطى فحسب •• وأخرى لها ولأصدقائها •• وثالثة بدون
بدون مقابل •• ورابعة بعدم العلم بهذا المقابل وعدم استطاعة الجزم به
•• •• وكشفت عن خصومة نشأت بين المتهمين الثالثة والرابع ومحرر
محضر الضبط ومعاونيه •• وقرأخيا فى التحريز •• وعبنا تم فى محتوياته
•• عدا عن فيلم سينمائى يجرى تصويره يستلزم تواجد مثل الأدوات
المضبوطة •• مع شيوع للاتهام على النحو الذى أنف بيانه •

وفى اطار هذه الكلمة الختامية تستوقفنا قضية النزاع أو قضية ••
•• كما أطلقت عليها الصحافة وصورتها وجسمتها حتى أصبحت على كل
لسان •• وهى قضية •• •• بين أيديكم فهل كانت تحتل هذه الضجة
الاعلامية ؟ وهل هى القضية التى كانت تستأهل العجلة فى ورود تقرير
المعمل الكيمائى فى أقل من أسبوع من تاريخ ارسال الاحراء للمعمل ؟
وهل هى القضية التى كانت تستوجب العجلة فى نظرها وتقديم المتهمين
محبوسين على ذمتها •

ولكن قد تكون المصلحة فى هذه العجلة •• فإذا كانت الدعوى قد
ركبها شيطان السوء فلا نزن أبدا أن القضاء العادل وهيئتك الموقرة
خاصة وقد عقد لقضائها جوا مليئا بالقانون والعدل •• سوف تلوى وجهها
عما اكتسح هذه الدعوى وعما قوضها مما جعل ماديتها تلو سحبها مكسدة
وتحتويها ظلمة كالحة ويكتنفها الاضطراب الفادح •

ولكن شمس الحقيقة •• وان تحجبها غيوم الباطل •• فالى حين ••
وان غدا لناظره لقريب •

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة
الاهداء	٥
المقدمة	٧
الفصل التمهيدى : المحللة مهنة الجبارة	١٣
الفصل الأول : مفهوم المرافعة	١٦
تمهيد وتقسيم	١٦
المطلب الأول : ماهية المرافعة	١٦
المطلب الثانى : مبادئ المرافعة	٢٧
أولا : البلاغة فى المرافعة	٢٧
١ — ضرورة البلاغة فى اظهار الحق	٢٨
٢ — مجال اللغة العالوية فى المرافعات	٢٩
٣ — مطابقة لغة المرافعة لمقتضى الحال	٣٠
ثانيا : العاطفة فى لغة المرافعة	٣٠
ثالثا : الاتماس فى المرافعة	٣١
رابعا : المرافعات لغة جراحة	٣٢
خامسا : الاعتدال فى لغة المرافعات	٣٣
سادسا : لغة المرافعة لغة حديث لا كتابة	٣٣
سابعا : المرافعة وشهادة الشهود	٣٤
ثامنا : دور قاعة الجنائيات بحكمة مصر	٣٦
تاسعا : المرافعات فى مصر	٥٣
الفصل الثانى : عناصر المرافعة	٥٥
تمهيد	٥٥
عناصر نجاح المرافعة القضائية	٥٦
المطلب الأول : افتتاح المرافعة	٥٧
مميزات أسلوب المقدمة	٥٨
مثال لافتتاح المرافعة	٥٩
من المقدمات المشهورة	٦٠
المطلب الثانى : موضوع المرافعة	٦١
العناصر الاساسية للمرافعات الناجحة	٦٢

الموضوع

الصفحة

٦٥	من الأمثلة الإنشائية
٦٦	أقوال مأثورة في موضوع المرافعة
٦٨	كلمات خالدة
٨٦	المطلب الثالث : ختام المرافعة
٨٦	من أمثلة الختام الجيد في المرافعات
٨٨	الفصل الثالث : أحكام المرافعة
٨٨	تمهيد
٨٨	المطلب الأول : ارتجال المرافعة
٨٩	الأسلوب واللغة
٨٩	للدفاع كامل حريته
٩٠	حرية المرافعة
٩٢	قواعد الالتقاء الجيد
٩٤	طريقة الارتصال
٩٤	عدم إرهاق المحكمة
٩٥	ملاحظات عند الالتقاء
٩٦	تحسين الأسلوب
٩٦	المطلب الثاني : مقومات المرافع الناجح
٩٩	المطلب الثالث : دستور المرافعة
٩٩	تمهيد
٩٩	أولاً : دستور المرافعة
١٠٥	ثانياً : كيفية تهر القلق عند المرافعة
١٠٩	ثالثاً : عظماء المحامين
١٠٩	١ — الأستاذ إبراهيم الهلباوى
١٢٤	٢ — سيثرون
١٢٥	٣ — هنرى روبير
١٢٩	٤ — سعد زغلول
١٣٠	٥ — لاثسو
١٣٠	٦ — الشيخ محمد عبده
١٣٢	الفصل الرابع : مرافعات النصف قرن الأولى من القضاء
١٣٢	١ — قضية مقتل المرحوم بطرس غالى باشا
١٣٥	٢ — دفاع الأستاذ/ محمود بك أبو النصر
١٣٧	٣ — دفاع الأستاذ/ أحمد لطفى بك المحامى
١٣٩	٤ — مرافعة الأستاذ/ إبراهيم الهلباوى

الموضوع	الصفحة
٥ — مرافعة صاحب السعادة/ عبد الخالق ثروت . . .	١٤١
٦ — مرافعة الأستاذ/ محمد طاهر نور	١٤٧
٧ — مرافعة الأستاذ/ ابراهيم الهلباوى	١٥١
٨ — مرافعة الأستاذ/ وهيب دوس	١٥٥
٩ — مرافعة الأستاذ/ مصطفى حنفى رئيس نيابة الاستئناف	١٦٠
١٠ — دفاع الأستاذ/ مكرم عبيد	١٦٢
١١ — دفاع الأستاذ/ مصطفى حنفى بك	١٦٥
١٢ — مرافعة الأستاذ/ صادق العجيزى	١٧١
١٣ — مرافعة الأستاذ/ عبد اللطيف محمود	١٧٢
١٤ — مرافعة الأستاذ/ عمر عارف	١٧٥
١٥ — مرافعة الأستاذ/ عبد اللطيف محمود	١٨٢
١٦ — مرافعة النائب العام محمد لبيب عطية	١٨٦
١٧ — من المرافعات الجيدة	١٩٣
الفصل الخامس : من خطب الامام على رضى الله عنه	
١ — خطبة الزهراء	٢٠١
٢ — خطبة جامعة لخصال الخير	٢٠٧
٣ — وصيته الجامعة لكميل	٢١١
٤ — من كلامه فى آداب الحكماء والعلماء	٢١٣
٥ — من وصيته لابنه الحسن	٢١٥
الفصل السادس : من خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب	
الفصل السابع : نماذج للمرافعة	
فهرست الكتاب	
٢٦٢	

رقم الابداع ١٩٩٣/٩٢٦٥

الرقم الدولى

I.S.B.N.

977 - 5160 - 23 - 5

مطابع الدار البيضاء

الحاج احمد سعد الأبيض وابنائنه

القاهرة — العباسية ١٨ شى مستشفى الدمرداش ت ٢٨٢٥٠٤٦



Biblioteca Alexandrina



0227328